

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة

سورة الأعراف

@ { المص }

إما أن تكون مختصرة من المصطفى، على عادة العشاق؛ يرمزون إلى ذكر بعض حروف المحبوب، اتقاء الرقباء، أي: يا أيها المصطفى المختار لرسالتنا؛ هذا كتاب أنزل إليك، وإما أن تشير إلى العوالم الثلاثة: الجبروت والملكوت والملك. وزاد هنا الصاد، إشارة إلى صدقه فيما يُخبر به من علم الغيوب، ولذلك ذكر هنا جملة من القصص والأخبار.

وقال الورتجبي: كان الله - تبارك وتعالى - إذا أراد أن يتكلم مع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والأعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه صلى الله عليه وسلم بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، ويخبره بما كان وما يكون، أشار إلى هذه الأشياء بحروف التهجي، وأعلمه سر ذلك بخفي الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه - عليه الصلاة والسلام - يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق، ونبياً صادق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة، فعبر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه، وخواص أمته ربما تطلع على سر بعضها، كالصحابه والتابعين والمتقدمين من العلماء والأولياء، كأن حروف المقطعات رموز ومعاني سور القرآن، لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأخبار من الصديقين. هـ.

@ { كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ }

قلت: { كتاب } خير، أي: هذا كتاب، و { أنزل } : صفته، والحرَج: الضيق، و { لتنذر } : متعلق بأنزل، أو بلا يكن، لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم، و { ذكرى } : يحتمل النصب بإضمار فعل، أي: لتنذر ولتذكر ذكرى، والجر عطف على { لتنذر } ، أي: للإنذار والتذكير، والرفع عطف على { كتاب } .

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: هذا { كتابٌ أنزل إليك } من ربك، { فلا يكن في صدرك حرجٌ منه } أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة، كقولك: لا أرينك ها هنا، كأنه قال: فلا يحرج صدرك منه، وإنما أنزلناه إليك لتنذر به من بلغه، { وذكرى للمؤمنين } أي: وتذكيراً وموعظة للمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بمواعظة.

الإشارة: تذكير أهل الإنكار ووعظهم يحتاج إلى سياسة كبيرة وحلم كبير وصبر عظيم، لا يطيقه إلا الأكابر من أهل العلم بالله؛ كالأنبياء والصديقين، لسعة

معرفتهم، واتساع صدورهم لحمل الجفاء وتحمل الأذى، ونهيه تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام - عن ضيق صدره: تشرع لورثته من بعده؛ الداعون إلى الله - عز وجل - وإلا فهو صلى الله عليه وسلم بحر واسع، لا تكدره الدلاء، كما قال البوصيري.

قَهُوِ الْبَحْرِ وَالْأَتَامُ إِضَاءٌ
والله تعالى أعلم.
@ { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }
{

قلت: { قليلاً } : صفة لمصدر، أو زمان محذوف، أي: تتذكرون تذكراً قليلاً، أو زماناً قليلاً، والعامل فيه: تذكرون، و { ما } : زائدة لتأكيد القلة.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { اتَّبِعُوا } أيها الناس { ما أنزل إليكم من ربكم } من أحكام القرآن والسنة؛ إذ كله وحي يوحى،
{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ }
{ النَّجْم:3 }، { وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ } أي: الله، { أولياء } من الجن والإنس يضلونكم عن دينه، أو: ولا تتبعوا من دون ما أنزل إليكم أولياء، تتبعونهم فيما يأمرونكم به وينهونكم، وتتركون ما أنزل إليكم من ربكم، { قليلاً ما تذكرون } : تتعظون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، بعد كما إنذاره ووضوح تذكاره، وذلك لانطماس البصيرة وعمي القلوب، والعياذ بالله.

الإشارة: اتباع الحبيب في أمره ونهيه يدل على صحة دعوى المحبة، ومخالفته يدل على بطلانها.

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظَهِّرُ حُبَّهُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ
هَذَا مَخَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ
إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ
وجمع المحبة في محبوب واحد يدل على كمالها، وتفرق المحبة يدل على ضعفها، ولذلك قال الشاعر:

كَأَنَّ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ فَاسْتَجَمَعَتْ مُذْ رَأَيْتَكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِي
فلا تجتمع المحبة في محبوب واحد إلا بعد كمال معرفة المحبوب، وشهود أنوار جماله وكمال أسرارهِ. والله تعالى أعلم.
@ { وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فِجَاءَهَا بِأَسْتَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } * { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْتَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } * { فَلَيْسَ أَسْأَلُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ أَسْأَلُ الْمُرْسَلِينَ } * { فَلَنْقُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا عَائِبِينَ }
{

قلت: { كم } : خبرية، مفعول { أهلكنا } ، وهو على حذف الإرادة، أي: في الحال أردنا إهلاكها، و { بيئاتاً أو هم قائلون } : حالان، أي: بائتين أو قائلين، وأعني الضمير في { هم } عن واو الحال.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: كثيراً من القرى { أهلكناها } لما عصت أمرنا، وخالفت ما جاءت به رسلنا، { فجاءها بأستاً } أي: عذابنا { بيئاتاً } أي: ليلاً، كقوم لوط؛ قلبت مدينتهم، عاليها سافلها، وأرسلت عليهم الحجارَةَ بالسَّحَرِ، { أو هم قائلون } نصف النهار، كقوم شعيب، نزلت عليهم نار فأحرقتهم، وهو عذاب يوم الظلّة،

وإنما خص الوقتين؛ لأنهما وقت دعة واستراحة، فيكون مجيء العذاب فيهما أقطع.

{ فما كان دعواهم { أي: دعاؤهم واستغاثتهم حين جاءهم بأسنا، { إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين { أي: إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه، تحسراً، أو: ما كان دعاؤهم إلا قولهم: { يَا وَيْلَتَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاَهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ { [الأنبياء: 14، 15]: ميتين، فإذا أحييناهم وبعثناهم من قبورهم، فوالله { لنسألن الذين أرسل إليهم { عن قبول الرسالة وإجابة الرسل، { ولنسألن المرسلين { عما أجيئوا به، والمراد بهذا السؤال: توبيخ الكفرة وتقريعهم، وأما قوله تعالى: { وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُئُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ { [القصاص: 78]، فالمنفي: سؤال استعلام؛ لأن الله أحاط بهم علماً، أو الأول في موقف الحساب، وهذا عند حصول العقاب.

{ فلنقصنَّ عليهم { أي: على الرسل والأمم، فنقص على الرسل ما قُبلوا به من تصديق أو تكذيب، وعلى الأمم ما قابلوا به الرسل من تعظيم أو إنكار، أو فلنقص على الرسل ما علمنا من قومهم حين يقولون: { لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ { [المائدة: 109]. نقص ذلك عليهم { بعلم { وتحقيق؛ لاطلاعنا على أحوالهم، وإحاطة علمنا بسرهم وعلانيتهم. { وما كنا غائبين { عنهم، فيخفى علينا شيء من أحوالهم، بل كنا حاضرين لديهم، محيطين بسرهم وعلانيتهم.

الإشارة: ما أهلك الله قومًا وعذبهم إلا بتضييع الشرائع أو إنكار الحقائق، فمن قام بهما معًا كان مصحوبًا بالسلامة، موصوفًا بالكرامة في الدارين، ومن ضيعهما أو أحدهما لحقه الوبال في الدارين، فإذا لحقه إهلاك لم يسعه إلا الإقرار بالظلم والتقصير، حيث فاته الحزم والتشمير، فإذا ندم لم نفعه الندم، حيث زلت به القدم، فالبدار البدار إلى التوبة والانكسار، والتمسك بشريعة النبي المختار، والتحقق بمعرفة الواحد القهار، وصحبة الصالحين الإبرار، والعارفين الكبار، قبل أن تصير إلى قبرك فتجده إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

وكما أن الحق تعالى يسأل الرسل عما أجيئوا به، يسأل خلفاءهم - وهم الأولياء والعارفون - عما إذا قُبلوا من تعظيم أو إنكار، فيرفع من عظمهم في أعلى عليين، ويحط من أنكرهم في محل أهل اليمين. وبالله التوفيق.

@ { وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ تَقُلْتَ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } * { وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ {

قلت: { الوزن } : مبتدأ، و { يومئذ } : خبره، و { الحق } : صفته، أي: الوزن العدل حاصل يومئذ.

يقول الحق جلّ جلاله: { والوزن } أي: وزن الأعمال، على نعت الحق والعدل، حاصل يوم القيامة، حين يسأل الرسل والمرسل إليهم. والجمهور على أن صحائف الأعمال تُوزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق؛ إظهارًا للمعدلة وقطعًا للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم، فتعترف بها ألسنتهم، وتشهد

بها جوارحهم، ويؤيدم ما رُوي: " أن الرجل يُؤتى به إلى الميزان، فيُنشَر عليه تسعةً وتسعونَ سجلاً، كُلُّ سِجْلٍ مَدِّ البَصْرِ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ، قَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالبطاقة في كِفَّةٍ، فَتَثْقُلُ البطاقةُ، وَتَطْيِشُ السَّجَلَاتُ "

وقيل: توزن الأشخاص؛ لما رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّهُ لِيَأْتِي العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَنَاحَ بَعُوضَةٍ " والتحقق: أن المراد به الإهانة والتصغير، وأنه لا يساوي عند الله شيئاً؛ لاتباعه الهوى.

ثم فصل في الأعمال فقال: { فمن ثَقَلَتْ موازينه } أي: حسناته، أو الميزان الذي يوزن به حسناته، وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن، فعلى الأول هو جمع موزون، وعلى الثاني جمع ميزان، فمن رجحت حسناته { فأولئك هم المفلحون } الفائزون بالنجاة والثواب الدائم، { ومن خَفَّتْ موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم } بتضييع الفطرة السليمة التي فُطِرُوا عليها، واقتراف ما عرضها للهلاك، { بما كانوا بآياتنا يَظْلُمُونَ } حيث بدلوا التصديق بها بالتكذيب، والعمل فيها بالتفريط. نسال الله تعالى الحفظ.

الإشارة: العمل الذي يثقل على النفس كله ثقيل في الميزان؛ لأنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً، والعمل الذي يخف على النفس كله خفيف؛ لأنه فيه نوع من الهوى؛ إذ لا يخف عليها إلا ما لها فيه حظ وهوى، وفي الحكم: " إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلها على النفس فاتبعه؛ فإنه لا يثقل عليها إلا بما كان حقاً ". وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله ما ثقل ميزان عبد إلا باتباعه الحق، وما خف إلا باتباعه الهوى. قال تعالى: { والوزن يومئذ الحق } . هـ. بمعناه ذكره في القوت. وهذا في غير النفس المطمئنة، وأما هي فلا يثقل عليها شيء، وقد يثقل عليها الباطل، ويخف عليها الحق، لكمال رياضتها. والله تبارك وتعالى أعلم.

@ { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { ولقد مكناكم في الأرض؛ تتصرفون فيها بالبناء والسكن، والغرس والحرس والزرع، وغير ذلك من أنواع التصرفات، { وجعلنا لكم فيها معاش } أسباباً تعيشون بها؛ كالتجارة وسائر الحرف، { قليلاً ما تشكرون } على هذه النعم، فتقابلون المنعم بالكفر والعصيان، فأنتم جديرون بسلبها عنكم، وإبدالها بالنقم، لولا فضله ورحمته.

الإشارة: نعمة التمكين في الأرض متحققة في أهل التجريد، والمنقطعين إلى الله تعالى، فهم يذهبون في الأرض حيث شاؤوا، ومائدتهم ممدودة بأكلون منها حيث شاؤوا، فهم متمكنون من أمر دينهم؛ لقلة عوائدهم، ومن أمر دنياهم؛ لأنها قائمة بالله، تجري عليهم أرزاقهم من حيث لا يحتسبون، تخدمهم ولا يخدمونها؛ " يا دنياي اخدمني من خدمني، وأتعبني من خدمك ". فمن قَصُرَ منهم في الشكر توجه إليه العتاب بقوله: { ولقد مكناكم في الأرض } إلى قوله: { قليلاً ما تشكرون } ، ومن تحقق شكره قيل له: { وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ }

[القصص:5,6]. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } * { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } * { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } * { قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } * { قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ } * { قَالَ قَبِمَا أَعُوذْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } * { ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَينَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } * { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { ولقد خلقناكم } أي: خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصور، { ثم صورناكم } أي: صورنا خلقه أبيضكم آدم. نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره؛ لأنه المادة الأصلية، أي: ابتدأنا خلقكم ثم تصورككم بأن خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه، { ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم } تعظيمًا له، حيث وجد فيه ما لم يوجد فيهم، واختبارًا له ليظهر من يخضع ممن لم يخضع، { فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين } لآدم.

{ قال } له الحق تبارك وتعالى: { ما منعك ألا تسجد } أي: تسجد، فلا: زائدة، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود، وقيل: الممنوع من الشيء كالمضطر إلى خلافه، فكأنه قال: ما اضطررك إلى ترك السجود { إذ أمرتك }.

وفيه دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور، فأجاب بقوله: { قال أنا خيرٌ منه } ، أي: المانع لي من السجود هو كوني أنا خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به، فإبليس هو الذي سنّ التكبر، وقال بالتحسين والتقيح العقليين أولاً، وبهذا الاعتراض كفر إبليس؛ إذ ليس كفره كفر جحود.

ثم بين وجه الأفضلية، فقال: { خلقتني من نار وخلقته من طين } ، فاعتقد أن النار خيرٌ من الطين، وقد غلط في ذلك، فإن الأفضلية إنما تظهر باعتبار النتائج والثمرات، لا باعتبار العنصر والمادة فقط، ولا شك أن الطين ينشأ منه ما لا يحصى من الخيرات؛ كالثمار والحبوب وأنواع الفواكه.

قال البيضاوي: رأى الفضل كله باعتبار العنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ } [ص:75] أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة، كما نبه عليه بقوله تعالى: { ونفخت فيه من روحي } وباعتبار الغاية، وهو ملاكه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبين لهم أنه أعلم منهم، وأنه له خواصًا ليست لغيره. هـ.

ولما تبين عناده قال له تعالى: { فاهبط منها } أي: من السماء أو من الجنة، { فما يكون لك } أي: فما يصح لك { أن تتكبر فيها } وتعصى؛ فإنها موطن الخاشع المطيع، وفيه دليل على أن الكبر لا يليق بأهل الجنة، فإنه تعالى إنما

أنزله وأهبطه؛ لتكبره لا لمجرد عصيانه، { فاخرج إنك من الصاغرين } أي: ممن أهانه الله لتكبره. قال صلى الله عليه وسلم: " مَنْ تَوَاصَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَصَعَهُ اللَّهُ ".

ولما تحقق إبليس أنه مطرود، سأل الإمهال فقال: { أنظرني } أي: أخزني، { إلى يوم يُبعثون } فلا تمتني، ولا تعجل عقوبتي، { قال إنك من المنظرين }؛ يقتضي أنه أجابه إلى ما سأل، لكنه محمول على ما في الآية الأخرى: إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ {

[الجبر:38]؛ وهو نفخ الصور النخة الأولى، { قال فيما أغويتني } أي: بعد أن أمهلتني لأجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني، بسبب إغوائك إياي، والله { لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم }، وهو الطريق الذي يوصلهم إليك، فأقعد فيه، وأردهم عنه، { ثم لآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم }؛ فآتيهم من الجهات الأربع، وذلك عبارة عن تسلطه على بني آدم كيفما أمكنه.

قال ابن عباس: { من بين أيديهم } الدنيا يُزَيِّنُها لهم، { ومن خلفهم } الآخرة يُنَسِّبُها لهم، { وعن أيمنهم } الحسنات يُثَبِّطُهم عنها، { وعن شمائلهم } السيئات يُزَيِّنُها في أعينهم. هـ. ولم يجعل له سبيلاً من فوقهم، ولا من تحت أرجلهم؛ لأن الرحمة تنزل من أعلى، فلم يحل بينهم وبينها، والإتيان من تحت موحش، وأيضاً: السفليات محل للتواضع والخشوع، فتكثر فيه الأنوار فيحترق بها. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: (لأنّ فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، ولا يمكن أن يأتي من توحيد ولا إسلام).

ثم قال تعالى: { ولا تجد أكثرهم شاكرين }؛ مطيعين، قال بعض الصوفية: (لو كان ثم مقام أعظم من الشكر لذكره إبليس)؛ فالشكر أعظم المقامات، وهو الطريق المستقيم الذي قعد عليه إبليس، والشكر: هو إلا يُعصى الله بنعمه، أو: صرف الجوارح كلها في طاعة الله، أو رؤية المنعم في النعمة، وإنما قال إبليس ذلك؛ ظناً لقوله:

{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ {
[سبأ:20]، وسيأتي في الإشارة حقيقته.

{ قال } تعالى لإبليس: { اخرج منها }؛ من السماء أو الجنة، { مذعومًا } أي: مذمومًا، من ذامه، أي: ذمه، { مدحورًا } أي: مطرودًا. والله { لمن تَبِعَكَ منهم } في الكفر { لأملأنّ جهنم منكم أجمعين } أي: منك وممن تبعك.

تنبيه: ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقي وموجدي، وهو موجد الخلق، ولكن لي على حكمته أسئلة: الأول: ما الحكمة في إيجاد خلقه، لا سيما وكان عالمًا بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الألام؟ الثاني: ما الفائدة في التكليف، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غيره واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفني بطاعته ومعرفته، فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟ الرابع: لما عصيته فلم لعنني وأوجب عقابي، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره منه، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس: لما فعل ذلك فلم مكنتني من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟

السادس: ثم لما فعل ذلك، فلم سلطني على أولاده. ومكنني من إغوائهم وإظلالهم؟ السابع: ثم لما استمهله بالمدة الطويلة في ذلك فلم أمهلي، ومعلوم أن العالم لو كان خاليًا من الشر لكان ذلك خيرًا. هـ. قال شارح الأناجيل: فأوحى الله إليه من سرادقات الكبرياء: إنك ما عوفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض عليّ في شيء من أفعالي، فأنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل. قال الشهرستاني: اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصًا، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق - سبحانه - زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات. هـ. قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات، وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار:

أما الحكمة في أيجاد خلقهم؛ فخلقهم ليعرف بهم. وفي الحديث القدسي: " كنت كثرًا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقًا لأعرف بهم " ، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكيمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.

أما فائدة التكليف؛ فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالمًا له؛
{ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا }

[الكهف:49]، ولتظهر صورة العدل في الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم؛ فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب في كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا في الخضوع للجنس، أو من دونه، فأمره بالسجود لمن دونه في زعمه؛ ليظهر كذبه في دعوى محبته، وأما لعنه وطرده؛ فهو جزاء من كذب وعصى. وهذا الطرد كان في علمه تعالى، ولكن حكيمته تعالى اقتضت ترتيب الأسباب وارتباطها بالمسببات، فكان امتناعه واعتراضه سببًا لإظهار ما سبق له في علم الله، كما كانت وسوسته لآدم سببًا في إظهار خروجه من الجنة السابق في علم الله. وأما تمكينه من دخول الجنة؛ فليتنسب عنه هبوط آدم الذي سبق في علمه؛ لأن الحكمة اقتضت أن لكل شيء سببًا. أما تسلطه على أولاده، فليكون منديلًا تمسح به أوساخ الأقدار؛ إذا إن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان إنما هو بمشيئة الواحد القهار، ولا فعل لغيره، لكن الحق تعالى علمنا الأدب، فخلق الشيطان والنفس والهوى مناديل، فما كان فيه كما نسبه لله، وما كان فيه نقص نسبه للشيطان والنفس؛ أدبًا مع الحضرة.

وأما إمهاله؛ فليدوم هذا المنديل عندهم، يمسحون فيه أوساخ المقادير التي تجري عليهم إلى انقضاء وجودهم. وقوله: (معلوم أن العالم لو كان خاليًا من الشر لكان ذلك خيرًا)، مغالطة؛ لأن حكيمته تعالى اقتضت وجود الضدين: الخير الشر، وبهما وقع التجلي والظهور؛ ليظهر آثار أسمائه تعالى؛ فإن اسمه المنتقم والقهار يقتضي وجود الشر، فيما نفهم، وليظهر انتقامه وبطشه للعيان، ومعلوم أن الملك إذا وصف بوصف جلالي أو جمالي لا يظهر شرف ذلك الاسم إلا بظهور آثاره في مملكته. وقوله: (إنك ما عرفتني...) الخ.. يقتضي أنه لو عرف الله حق معرفته لفهم أسرار هذه الأشياء التي اعترض بها على ما بينها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأكوان ظاهرها أغيار، وباطنها أنوار وأسرار، فمن وقف مع ظاهرها لزمه الاعتراض والإنكار، ومن نفذ إلى شهود باطنها لزمه المعرفة والإقرار، ولعل إبليس لم - في حال الأمر بالسجود - من آدم إلا الأغيار، ولو رأى باطنه لكان أول ساجد لله الواحد القهار.

@ { وَبَاءَ آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } * { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَبَوَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } * { وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } * { قَدَلَاهُمَا بَعْزُورٍ فَلَمَّا دَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَبَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَتَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ } * { قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } * { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَّا جِبِينَ } * { قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وبا آدم اسكن أنت وزوجك } حواء { الجنة فكلا من حيث شئتما } من ثمارها، { ولا تقربا هذه الشجرة }؛ التين أو العنب أو الحنطة، { فتكونا من الظالمين } لأنفسكما بمخالفتكما، { فوسوس لهما الشيطان } أي: فعل الوسوسة لأجلهما، وهوة الصوت الخفي، { ليبدي } أي: ليظهر { لهما ما ووري } أي: ما غطى { عنهما من سواتهما } أي: عوارتهما، واللام: للعاقبة، أي: فعل الوسوسة لتكون عاقبتهما كشف عورتها، وكانا لا يربانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر. وفيه دليل على أن كشف العورة، ولو عند الزوج من غير حاجة - قبيح مستهجن في الطباع.

{ وقال } لهما: { ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا } كراهية { أن تكونا مَلَكينِ }. واستدل به من قال بفضل الملائكة على الأنبياء، وجوابه: أنه كان من المعلوم عندهما أن الحقائق لا تنقلن وإنما كانت رغبتهما فيما يحصل لهما من الغنى عن طعام والشراب، فيمكن لهما الخلود في الجنة، ولذلك قال: { أو تكونا من الخالدين } الذين يخلدون في الجنة.

ويؤخذ من قوله تعالى: { ما نهاكما ربكما } ، أن آدم عليه السلام لم يكن ناسياً للنهي، وإلا لما ذكره بقوله: { ما نهاكما ربكما } ، وقوله في سورة طه: { فنسي } ، أي: نسي أنه عدو له، ولذلك ركن إلي نصيحته، وقبل منه حتى تأول أن النهي عن عين الشجرة لا عن جنسها فأكل من جنسها؛ رغبة في الخلود، ولكنه غره من حيث الأخذ بالطواهر وترك الاحتياط.

ولم يقصد إبليسُ إخراجهما من الجنة، وإنما قصد أسقاطهما من مرتبتهما، وإبعادهما كما بعد هو، فلم يبلغ قصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سخينة عين، وغيط نفس، وخيبة ظن. قال الله تعالى:

{ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى }

[طه:122]، فصار عليه السلام خليفة لله في أرضه، بعد أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفة والجار؟

{ وَقَسَمَهُمَا } أي: خلف لهما { إني لكما لمن الناصحين } فما قلت لكما. وذكر قَسَمَ إبليس بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين مبالغة؛ لأنه اجتهد فيه، أو لأنه أقسم لهما، وأقسما له أن يقبلا نصيحته.

{ فدلَّهُمَا } ، أي: أنزلهما إلى الأكل من الشجرة، { بَعُرور } أي: بما غرهما به من القَسَم، لأنهما ظنَّا أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، { فلما ذاقَا الشجرة } أي: وجدا طعمها، أخذين في الأكل منها، { بدت لهما سَوَاتُهُمَا } ، وتهافت عنهما ثيابُهُما، فظهرت لهما عوراتهما؛ أدبًا لهما. وقيل: كان لباسهما نورًا يحول بينهما وبين النظر، فلما أكلا انكشف عنهما، وظهرت عورتها، { وطَفِقًا } أي: جعلًا { يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَقِ الجِنَّةِ } أي: أهذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ليستترا به، قيل: كان ورق التين. فادم أول من لبس المرقعه، { وناداهما ربُّهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين }؛ هذا عتاب على المخالفة، وتوبيخ على الاغترار بالعدو. وفيه دليل على ان مطلق النهي للتحريم.

ثم صرَّحًا بالتوبة فقالوا: { ربنا ظلمنا أنفسنا } حين صدَّرتنا للمعصية، وتعرضنا للإخراج من الجنة، { وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين }؛ وهذه هي الكلمات التي تلقاها من ربه فتاب عليه بها. قال البيضاوي: فيه دليل على أن الصغائر يُعاقب عليها إن لم تغفر، وقالت المعتزلة: لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقرين في تعظيم الصغير من السيئات، واستحقار العظيم من الحسنات.هـ.

{ قال اهبطوا }؛ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو: لهما وإبليس، وكرر الأمر له تبعًا؛ ليعلم أنهم قرناء له أبدًا. حال كونكم { بعضكم لبعض عدوٌّ } أي: متعادين، { ولكم في الأرض مستقر } أي: استقرار، { ومتاعٌ } أي: تمتع، { إلى حين } انقضاء آجالكم، { قال فيها } أي: في الأرض { تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون } للجزاء، بالنعيم، أو بالعذاب الأليم، على حسب سعيكم في هذه الدار الفانية.

الإشارة: قال بعض العارفين: كل ما نهى الله تعالى عنه فهو شجرة آدم، فمن دخل جنة المعارف، ثم غلبه القدر فأكل من تلك الشجرة - وهي شجرة سوء الأدب - أخرج منها، فإن كان ممن سبقت له العناية ألهم التوبة، فتاب عليه وهداه، وأهبطه إلى أرض العبودية؛ ليكون خليفة الله في أرضه، فأنعم بها معصية أورثت الخلافة والزلفى. وفي الحكم: "ربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول". وقال أيضًا: "معصية أورثت ذلًا وافتقارًا، خير من طاعة أورثت عزاً واستكبارًا". وقال بعضهم: كل سوء أدب يثمر لك أدبًا فهو أدب. والله تعالى أعلم

@ { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَالِكَ خَيْرٌ ذَالِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } {

قلت: من قرأ: { لباس } بالرفع، فهو متبدأ، والجملة: خبر، والرابط: الإشارة، والريش: لباس الزينة، مستعار من ريش الطير.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا { أي: خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره: قوله تعالى: { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ { [الرّم:6]، وقوله تعالى: { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ {

[الحديد:25]. من صفة ذلك اللباس: { يُواري { أي: يستر { سواتكم { التي قصد إبليس إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. رُوي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله تعالى فيها، فنزلت. ولعل ذكر قصة آدم تقدمه لذلك؛ حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. قاله البيضاوي.

{ وريثًا { أي: ولباسًا فاخرًا تتجملون به { ولباسٌ { أي: وأنزلنا عليكم لباس { التقوى { ، وهي خشية الله تعالى، أو الإيمان، أو السمات الحسن، واستعار لها اللباس؛ كقولهم: ألبسك الله لباس تقواه، وقيل: لباس الحرب. ومن قرأ بالرفع؛ فخبره: { ذلك خير { أي: لباس التقوى خير من لباس الدنيا؛ لبقائه في دار البقاء دون لباس الدنيا؛ فإنه فان في دار الفناء، { ذلك { أي: إنزال اللباس من حيث هو خير { من آيات الله { الدالة على فضله ورحمته، { لعلمهم يذكرون { فيعرفون نعمه، فيشكرون عليها، أو يتعظون فينزعون عن القبائح.

الإشارة: اللباس الذي يواري سوءات العبودية - أي: نقائصها - هي أوصاف الربوبية ونعوت الألوهية؛ من عز وغنى، وعظمة وإجلال، وأنوار وأسرار، التي أشار إليها في الحكم بقوله: " لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدًا، ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليه ". والريش هو بهجة أسرار المعاني التي تغيب ظلمة الأواني، أو بهجة الأنوار التي تُفني الأغيار، ولباس التقوى هي حفظه ورعايته لأوليائه في الظاهر والباطن مما يكدر صفاءهم أو يطمس أنوارهم. والله تعالى أعلم.

@ { يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَيُؤْءَاتُهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّآ جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ {

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا بني آدم لا يفتننكم الشيطانُ {؛ بأن يشغلكم عما يقربكم إلى الله، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته، { كما أخرج أبويكم من الجنة { بسبب غروره، والنهي، في اللفظ، للشيطان، والمراد: نهيم عن اتباعه. حال كون أبويكم { ينزعُ { الشيطان { عنهما لباسهما { بسبب غروره لهما، وإسناد النزاع إليه: مجاز؛ للسببية؛ { ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم { ، وهو تعليل للنهي. وتحذير من فتنته، و { قبيله {؛ جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا يقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا، وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة؛ فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى: { إنا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يؤمنون {؛ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم، وتمكينهم من خذلانهم، وحملهم على ما سولوا لهم، والآية هي مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة: الحكمة في خلق الشيطان هي كونه منديلاً تمسح فيه أوساخ الأقدار، وكونه يحوش أولياء الله إلى الله، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم، فلا يزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته، فحينئذ ينقاد إليهم، ويخدمهم بأولادهم. وفي الحكيم: "إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده".

قال محمد بن واسع: تمثل إلى الشيطان في طريق المسجد، فقال لي: يا ابن واسع، كلما أردتك وجدت بيني وبينك حجاباً، فما ذلك؟ قال: أقرأ، كلما أصبحت: اللهم إنك سلطت علينا عدواً من أعدائنا، بصيراً بعيوننا، مطلعاً على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب - وفي رواية: كما باعدت بينه وبين جنتك - إنك على كل شيء قدير. هـ.

@ { وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } * { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } * { قَرِيباً هَدَانَا وَقَرِيباً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: في وصف المشركين: { وإذا فعلوا فاحشة } أي: فعلة متناهية في القبح؛ كعبادة الصنم، وكشف العورة في الطواف، احتجوا بفعل آبائهم فقالوا: { وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها } فاعتذروا بعذرين باطلين: أحدهما: تقليد آبائهم، والآخر: افتراءؤهم على الله، فأعرض عن الأول؛ لظهور فساده، ورد الثاني بقوله: { قل إن الله لا يأمر بالفحشاء }؛ لأن الله تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال ومكارم الخلال. ولا حجة فيه للمعتزلة. انظر البيضاوي.

والآية كأنها جواب سؤالين مترتبين؛ كأنه قيل لهم: لِمَ فعلتم هذه الفواحش؟ قالوا: وجدنا آباءنا، فقيل: ومن أين أخذها آبؤكم؟ قالوا: الله أمرنا بها، فكذبهم الله بقوله: { إن الله لا يأمر بالفحشاء } أتقولون على الله ما لا تعلمون { ، أي: أتقولون على الله ما لا علم لكم به؛ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله.

{ قل أمر ربي بالقسط } أي: العدل، وهو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط، وأمر بأن قال: { وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد } أي: افعّلوا الصلاة في كل مكان يمكن في السجود إذا حضرتكم، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. والمعنى: إباحة الصلاة في كل موضع، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم: " جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا " وقيل: المراد إحضار النية والإخلاص لله في كل صلاة بدليل قوله: { وادعوه }؛ أي: اعبدوه { مخلصين له الدين } أي: الطاعة، فلا تعبدوا معه غيره، فإنكم راجعون إليه، { كما بدأكم تعودون } فيجازيكم على أعمالكم، فاحتج على البعث الأخرى بالبداة الأولى؛ لاشتراكهما في تعلق القدرة بهما، بل العود أسهل باعتبار العادة، وقيل: كما

بدأكم من التراب، تعودون إليه، وقيل: كما بدأكم حفاة عراة غرلاً، تعودون، وقيل: كما بدأكم مؤمناً وكافراً، يُعيدكم. قاله البيضاوي.

{ فريقاً هدى }؛ بأن وفقهم للإيمان، { وفريقاً حق عليهم الضلالة }؛ بمقتضى القضاء السابق، أي: خذل فريقاً حق عليهم الضلالة، { إنهم اتخذوا الشياطين أولياء } يطيعونهم فيما يأمرونهم به، { من دون الله }، وهذا تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم، { وَيَحْسَبُونَ } أي: يظنون { أنهم مهتدون }؛ فهم على جهل مركب، وفيه دليل على أن الكافر المخطيء والمعاند: سواء في الذم واستحقاق العذاب؛ إذ لا يعذر بالخطأ في أمر التوحيد.

الإشارة: تقليد الآباء في المساوىء من أقبح المساوىء، واحتجاج العبد بتخليته مع هواه هو ممن اتخذ إلهه هواه، إن الله لا يأمر بالفحشاء، فإذا قال العبد - في حال انهماكه: هكذا أحبني ربي، فهو خطأ في الاحتجاج؛ بل يجاهد نفسه في الإقلاع، ويتضرع إلى مولاه في التوفيق؛ فإن الحق تعالى إنما يأمر بالعدل والإحسان، ودوام الطاعة والإذعان، والخضوع لله في كل زمان ومكان، والتحقق بالإخلاص في كل أوان، وإفراد المحبة والولاية للكريم المنان. وبالله التوفيق.

@ { يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا بني آدم خذوا زينتكم } أي: ثيابكم التي تستر عورتكم، { عند كل مسجد } لطواف أو صلاة، واحتج به من أوجب ستر العورة في الصلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن ثيابه للصلاة، وقيل: المراد بالزينة: زيادة على الستر، كالتجمل للجمعة بأحسن الثياب وبالسواك والطيب، { وكلوا واشربوا }؛ أمر بإباحة؛ لِمَا رُوِيَ أن بني عامر، في أيام الحج، كانوا لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكون دسمًا؛ يعظمون بذلك حجهم، وهم المسلمون بذلك، فنزلت.

{ ولا تُسرفوا }؛ بتحريم الحلال، أو بالتقدم إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشربه إليه، وقد عدّ في الإحياء من المهلكات: شربه الطعام، وشربه الوقاع، أي: الجماع؟ { إنه لا يحب المسرفين }؛ لا يرتضي فعلهم. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرفٌ ومخيلة) أي: تكبر. وقال علي بن الحسين بن واقد: جمع الله الطب في نصف آية؛ فقال: { كلوا واشربوا ولا تسرفوا }.

الإشارة: إنما أمر الحق - جلّ جلاله - بالتزين للصلاة والطواف؛ لأن فيهما الوقوف بين يدي ملك الملوك، وقد جرت عادة الناس في ملاقات الملوك: التهيء لذلك بما يقدر عليه من حسن الهيئة؛ لأن ذلك زيادة تعظيم للملك، وتزيين البواطن بالمحبة والوداد أحسن من تزيين الظواهر وخراب البواطن؛ " إنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " وملاقات الملك بالذل والانكسار أحسن من ملاقاته بالتكبر والاستظهار. والله تعالى أعلم.

@ { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } *
{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } *
{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } *

قلت: من قرأ: { خالصة }؛ بالرفع، فخير بعد خير، أو خير عن مضمر، ومن قرأ بالنصب، فحال.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { قل } لهم: { مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ }؛ وهي ما يتجمل به من الثياب وغيرها، { التي أخرج لعباده } من النبات؛ كالقطن والكتان، أو الحيوان؛ كالحرير والصوف والوبر، والمعادن؛ كالدرع والجلي، { و } { قل أيضًا } من حرم { الطيبات مِنَ الرزق } أي: المستلذات من المأكَل والمشارب، ويدخل فيها المناكح؛ إذ هي من أعظم الطيبات. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات: الإباحة؛ لان الاستفهام للإنكار، وبه رد مالك - رحمه الله - على من أنكر عليه من الصوفية، وقال له: اتق الله يا مالك؛ بلغني أنك تلبس الرقيق، وتأكل الرقاق، فكتب إليه بالآية.

قال تعالى: { قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا } ، ويشاركهم فيها الكفار، ويوم القيامة تكون { خالصة } لهم دون غيرهم، { كذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } أي: كنفصلنا هذا الحكم نُفصل سائر الأحكام { لقوم يعلمون } فينزلونها في محلها بخلاف الجهال.

{ قل إنما حَرَّمَ ربي الفواحشَ }؛ وهي ما تزايد قبحها من المعاصي، وقيل: ما يتعلق بالفروج، { ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ } أي: جهرها وسرها، أو ما يتعلق بالجوارح الظاهرة والعوالم الباطنية وهي القلوب، { والإثم }؛ كقطع الرحم، أو عام في كل ذنب، { والبغْيَ }؛ وهو الظلم؛ كقطع الطريق والغصب، وغير ذلك من ظلم العباد، أو التكبر على عباد الله؛ وقوله: { بغير الحق }؛ تأكيد له في المعنى. { وأن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا } أي: حجة على استحقاق العبادة، وهو تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم ما لم يدل عليه برهان. { وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } من الإلحاد في صفاته، والافتراء عليه؛ كقولهم: { وَاللَّهُ أَمَرَنَا }
[الأعراف:28]، و { لَوْ سَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا }
[الأنعام:148].

{ ولكل أمة أجل } أي: مدة ووقت لنزول العذاب بها إن لم يؤمنوا، وهو تهديد لأهل مكة، { فإذا جاء أجلهم } أي: انقضت مدتهم، أو دنى وقت هلاكهم، { لا يستأخرون ساعة } عنه { ولا يستقدمون } أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون عنه أقصر وقت، أو لا يطبقون التقدم والتأخر لشدة الهول، وجعل بعضهم: { ولا يستقدمون } استثناءً؛ لأن الأجل إذا جاء لا يتصور التقدم، وحينئذٍ يوقف على: { ساعة }، ثم يقول: ولا هم يستقدمون عنه قبل وصوله.

الإشارة: قال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه: زينة الله التي أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلي، والطيبات من الرزق هي حلاوة الشهود. هـ. وهي لمن كمل إيمانه وصدقته في الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهي حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها في الدارين، وإنما حرم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يوهم نقصاً أو خللاً في أنوار جماله وسنانه.
والله تعالى أعلم.

ثم إن العباد والزهاد وأهل البداية من المريرين السائرين - ينبغي لهم أن يزهدوا في زينة الدنيا وطيباتها؛ لئلا تركز إليها نفوسهم، فيثبط سيرهم، وأما الواصلون فهم مع الله، لا مع شيء سواه، يأخذون من الله بالله، ويدفعون بالله، وقد اتسعت دائرة علمهم، فليسوا مع لباس ولا أكل ولا شرب ولا جوع ولا شبع، هم مع ما يبرز في الوقت من المقدورات. والله تعالى أعلم.

@ { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَن اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } * { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

قلت: { إما } شرط مؤكد بما ذكره بحرف الشك؛ للتنبيه على أن إتيان الرسل جائز، غير واجب، كما ظنه المعتزلة، وجوابه: { فمن اتقى... } الخ، وإدخال الفاء في الجواب الأول دون الثاني؛ للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد. قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا بني آدم } مهما { يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي } الدالة على توحيد ومعرفتي، { فمن اتقى } الشرك والتكذيب، و { أصلح } فيما بيني وبينه، منكم، بالعمل الصالح، { فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون } . { والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } ، فمن كمال الإيمان: أن يقدر الإنسان نفسه أن لو كان في زمان كل رسول، لكان أول من تبعه، ولكان من خواص أصحابه، هكذا يسير بعقله مع كل رسول من زمان آدم عليه السلام إلى مبعث رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد جعل الله لكل نبي خلفاء يخلفونه في تبليغ أحكامه الظاهرة والباطنة، وهم العلماء الأتقياء، والأولياء العارفين الأصفياء، فمن أراد أن يكون ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليتبع علماء أهل زمانه في الشريعة، وأولياء أهل عصره في تربية الحقيقة. وبالله التوفيق.

@ { فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِمَّا فِي الْكِتَابِ حِينَ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَهِيَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً }؛ بأن نسب إليه الولد والشريك، { أو كذب بآياته } التي جاءت بها الرسل من عنده، أي: لا

أحد أظلم منه، أو تَقَوْل على الله ما لم يقله، وكذَّب بما قاله، { أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب } أي: يلحقهم نصيبهم مما كتب في اللوح المحفوظ؛ من الأرزاق والأجال، { حتى إذا } انقضت أعمارهم و { جاءتهم رسلنا يتوفونهم } أي: يتوفون أرواحهم، { قالوا } لهم توبيخًا: { أين ما كنتم تدعون من دون الله } أي: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؛ لتدفع عنكم العذاب؟ { قالوا ضلوا عنا }؛ غابوا عنا { وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين }، اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه، وندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلت بهم القدم.

الإشارة: كل من أعرض عن خصوص أهل زمانه واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه، ينال نصيبه من الدنيا الفانية وما قُسيم له فيها؛ فإذا جاءت منيته ندم وتحسر، وقيل له: أين ما تمتعت به وشغلك عن مولاك؟ فيقول: قد غاب ذلك وفنى وانقضى، وكأنما كان برقًا سَرَى، أو طيفَ كَرَى، والدهر كله هكذا؛ لمن سدّد نظرًا، وعند الصباح يحمد القوم السرى، وستعلم، إذا انجلى الغبار، أفرس تحتك أم حمار.

وقد قال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه: " لا تَخَدَعَنَّكُمْ زخارفُ دُنْيَا دِينِي، عن مَرَاتِبِ جَنَاتٍ عَالِيَةٍ؛ فكان قد كَشَفَ القِنَاعَ، وارتفع الارتباب، ولاقى كل امرئٍ مستقرَّه، وعرف مثواه ومُنْقَلَبه " وفي حديث آخر: " مَنْ بدأ بنصيبه من الدنيا فَاتَهُ نصيبه من الآخرة، ولم يُدرك منها ما يريد، ومن بدأ بنصيبه من الآخرة، وصل إليه نصيبه من الدنيا، وأدرك من الآخرة ما يريد ".

@ { قَالَ ادْخُلُوا فِيهَا أُمَّمٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لِعَنَتِ أُمَّةً حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّوا قَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ } * { وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { قال } الله تعالى أي: يوم القيامة للكفار، بواسطة ملك، أو غيرها: { ادخلوا في } جملة { أمم } كانوا من قبلكم؛ { من الجن والإنس } متفقين معكم في الكفر والضلال، قَادخلوا مصاحبين معهم { في النار } قال تعالى، مخبرًا عن حالهم: { كلما دخلت أمةٌ } منهم في النار { لعنت أمتها } التي ضلت بالافتداء بها، { حتى إذا أدركوا } أي: تداركوا وتلاحقوا، { فيها جميعًا } قالت أوراهاهم {؛ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع السفلة، } لأولاهم { وهم المتبوعون الرؤساء - أي: قالت لأجلهم؛ لأن الخطاب مع الله لا معهم، قالوا: { ربنا هؤلاء } الرؤساء { أضلونا }؛ حيث سئوا لنا الضلال فاقتدينا بهم، { قاتهم عذابًا ضِعْفًا } أي: مضاعفًا { من النار }؛ لأنهم ضلوا وأضلوا. { قال } تعالى: { لكلِّ } واحد منكم { ضعفٌ } أي: عذابًا مضاعفًا، أما القادة؛ فلكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع؛ فلكفرهم وتقليدهم، { ولكن لا تعلمون } ما لكم، أو ما لكل فريق منكم.

{ وقالت أولاهم لأوراهاهم } أي: المتبوعون للأتباع: { فما كان لكم علينا من فضل } في الإيمان والتقوى تُوجب أن يكون عذابنا أشد من عذابكم، حتى يتضاعف

علينا العذاب دونكم؛ فإننا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب،
{ فذوقوا } أي: باشروا { العذاب بما كنتم تكسبون }؛ هو من قول القادة، أو
من قول الله - تعالى - لجميعهم.

الإشارة: إذا قامت القيامة تحققت الحقائق، وتميزت الطرائق، للخاص والعام،
فيرتفع المقربون في أعلى عليين، ويبقى أهل اليمين في أسفل منازل أهل
الجنة مع عوام المسلمين، فيتعلق عوامهم بخواصهم، فيقولون لهم: أنتم رددتمونا
عن صحبة هؤلاء، وأنتم خذلتهم عنهم، ثم يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا عن صحبة
هؤلاء المقربين، فاتهم حجاباً ضعفاً مما لنا، قال: لكل ضعف من الحجاب، هم
بتضليلهم لكم عن صحبتهم، وأنتم بتقليدكم لهم، ولكن لا تعلمون ما أعددت
للمقربين حين صبروا على جفاكم، وتحملوا مشاق طاعتي ومعرفتي؛ لأن كل آية
في الكفر تجر ذيلها على أهل الغفلة من المؤمنين. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } *
{ لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }

قلت: { سَمِّ الْخِيَاطِ } : عين الإبرة، وفي السين: الفتح والكسر والضم، والخياط:
ما يخاط به، على وزن جزام، والتنوين في { غَوَاشٍ } : للعوذ عن الياه، عند
سيبويه، وللصرف عند غيره.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا } عن: الإيمان بها، { لا
تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ }؛ لأدعيتهم وأعمالهم؛ فلا تقبل، أو لا تفتح لأرواحهم إذا
ماتوا، بل تغلق دونها إذا وصلت بها الملائكة إليها، فيطرحونها فتسقط من
السما، بخلاف أرواح المؤمنين؛ تُفتح لهم أبواب السماء حتى يفضوا إلى سدرة
المنتهى. { ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ } أي: يدخل، { الْجَمَلُ } وهو البعير { وفي
سَمِّ الْخِيَاطِ } أي: في ثقب الإبرة، والمعنى: لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا
يكون أبداً، فلا يدخلون الجنة أبداً، وقرأ ابن عباس { الْجَمَلُ } ، بضم الجيم
وسكون الميم، وهو حبل السفينة، الذي جُمِعَ بعضُه إلى بعض حتى صار أغلظ ما
يكون.

ثم قال تعالى: { وكذلك نجزي المجرمين } أي: مثل ذلك الجزاء القطيع نجزي
المجرمين، { لهم من جهنم مهادٌ } أي: فراش، { ومن فوقهم غَوَاشٍ } أي:
أعطية من النار. { وكذلك نجزي الظالمين } عبّر عنهم بالمجرمين تارة،
وبالظالمين أخرى؛ إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات، اتصفوا بالجرم والظلم، وذكر مع
الحرمان من الجنة: الجرم، ومع التعذيب بالنار: الظلم؛ تبييناً على أن الظلم
أعظم الإجرام.

الإشارة: أهل التربية النبوية من الشيوخ العارفين: آية من آيات الله، من كذب
بهم، واستكبر عن الخضوع لهم، لا تفتح لفكرته أبواب السماء، بل يبقى مسجوناً
بمحيطاته، محصوراً في هيكل ذاته، ولا يدخل جنة المعارف أبداً، بل يحيط به
الحجاب من فوقه ومن أسفله، فتنحصر روحه في الأكوان، ولم تفض إلى فضاء
الشهود والعيان.

وفي الحِكْم: " الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور في هيكل ذاته ". وقال أيضًا: " وسعك الكون من حيث جثمانيتك، ولم يَسَعَك من حيث ثبوت روحانيتك " ، فكل من لم تثبت له الروحانية: فهو محصور في الكون، وكل من تثبت له الروحانية؛ بأن استولى معناه على حسه، لم يسعه الكون، ولم يحصره عرش ولا فرش، وكذلك الصوفي؛ لا تظله السماء ولا تقله الأرض، أي: لا يحصره الكون من حيث فكرته. والله تعالى أعلم.

@ { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } * { وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَن تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

قلت: جملة { لا تُكلف } معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ويسهل عليهم، و { ما كنا لنهتدي } : اللام لتأكيد النفي، وجواب " لولا " : محذوف، أي: لولا هدايته إيانا ما اهتدينا.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { والذين آمنوا } بالرسول، { وعملوا } الأعمال { الصالحات } على قدر طاقتهم، { لا نكلف نفسًا إلا وُسْعها } أي: ما تسعه طاقتها، فمن فعل ذلك ف { أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون } ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ { أي: نُخرج من قلوبهم كل غل وعدواة، ونطهرها منه، حتى لا يكون بينهم إلا التودد، فيصيرون أحببًا وإخوانًا، وإما عبَّر بالماضي؛ لتحقيق وقوعه، كأنه وقع ومضى، وكذلك ما يجيء بعدها، ثم وصف الجنة فقال: { تجري من تحتهم } أي: من تحت قصورهم، { الأنهار }؛ من غسل وخمر وماء ولبن؛ زيادة في لذتهم وسرورهم، فالقصور مرتفعة في الهواء، والأنهار تجري تحتها.

{ وقالوا } حينئذٍ: { الحمد لله الذي هدانا لهذا } أي: لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان في الدنيا والعمل الصالح، { وما كنا لنهتدي } بأنفسنا { لولا أن هدانا الله } بتوقيفه وإرادته، { لقد جاءت رُسُلٌ ربنا بالحق } فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطًا وتبجحًا بأن ما عملوه في الدنيا يقينًا، صار لهم عين اليقين في الآخرة، { وتُودوا } أي: نادتهم الملائكة، أو الحق تعالى: { أن تُلَكُم الجنة } أي: هذه الجنة { أورثتموها } أي: أعطيتموها { بما كنتم تعملون } أي: بسبب أعمالكم، وهذا باعتبار الشريعة، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " لَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌكُمْ عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنت، قال: ولا أنا، إلا أن يتَّعَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ " فالشريعة تنسب العمل للعبد، والحقيقة تعزله عنه، وقد أذنت بها الآية قبله بقوله: { وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله } ، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.

وقال القشيري: إنما قال: { أورثتموها بما كنتم تعملون }؛ تسكينًا لقلوبهم، وتطمينًا لهم، وإلا، فإذا رأوا تلك الدرجات، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال: (يجوزون الصراط بعفو الله، ويدخلون الجنة برحمة الله، ويقتسمون المنازل بأعمالهم). هـ.

الإشارة: والذين آمنوا بطريق الخصوص، وعملوا الأعمال التي تناسبها، من خرق العوائد واكتساب الفوائد، والتخلية من الرذائل والتخلية بأنواع الفضائل على حسب الطاقة؛ أولئك أصحاب جنة المعارف، هم فيها خالدون في الدنيا والآخرة، قد نزع الله من قلوبهم المساوىء والأكدار، وطهرها من جملة الأغيار، حتى صاروا إخواناً متحابين؛ لا لغو بينهم ولا تأثيم، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، فإذا تمكنوا من هذه الحضرة (قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)، تحققوا أنهم محمولون بسابق العناية، محفوفون بعين الرعاية، فتحققوا بما جاءت به الرسل من عند الله، وما نالوه على يد أولياء الله من الذوق والوجدان، وكشف الغطاء عن عين العيان، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً، بمرته وكرمه.

@ { وَتَادَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالَتِ الْمُسْلِمَاتُ لَوْ أَنَّ بَيْنَهُنَّ مِثْرًا لَأَلْقَيْنَهُنَّ فِيهَا بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } * { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } * { وَيَبْتِغِيهَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَادَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } * { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبُّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

قلت: { أن } في هذه المواضع؛ مخففة من الثقيلة، أو: تفسيرية، وحذف مفعول: { وعد } الثاني؛ استغناء بمفعول وعد الأول، أو لإطلاق الوعد، فيتناول الثواب والعقاب.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا من النعيم { حقاً فهل وجدتم } أنتم { ما وعد ربكم } من البعث والحساب { حقاً } ، إنما قال أهل الجنة ذلك؛ تبححاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وتحسيراً لهم، فأجابهم أهل النار بقولهم: { نعم } ، قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، { فأذن مؤذن بينهم } بين الفريقين: { أن لعنة الله على الظالمين }؛ الكافرين، { الذين يصدون } الناس { عن سبيل الله } وهي الإسلام، { ويبغونها } أي: يطلبون بها { عوجاً } ، زيغاً وميلاً عما هو عليه من الاستقامة، أو يطلبونها أن تكون ذات عوج، { وهم بالآخرة كافرون } أي: جاحدون.

{ وبينهما } أي: بين الفريقين { حجاب } ، أو بين الجنة والنار حجاب، يمنع دخول أثر أحدهما للآخرى، { وعلى الأعراف }؛ وهو السور المضروب بين الجنة والنار، { رجال }؛ طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم، كما في الحديث. وقال في الإحياء: يشبه أن يكونوا من لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقربهم، ولا جناية تبعدهم، ولهم السلامة فقط، لا تقرب ولا تباعد. هـ.

قلت: لكن سيأتي أنهم يدخلون الجنة.

ثم وصفهم بقوله: { يعرفون كلاً } من أهل الجنة والنار، { بسيماهم }؛ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها؛ كيباض الوجوه من أهل الجنة، وسوادها في أهل النار، أو غير ذلك من العلامات. { ونادوا أصحاب الجنة } ، إذا نظروا إليهم، فقالوا لهم: {

أن سلامٌ عليكم { ، أي: نادوهم بالسلام عليهم، { لم يدخلوها { أي: الجنة،
{ وهم يطمعون { في دخولها.

{ وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ { أي: التفتوا إليهم على وجه القلة،
تعوذوا من حالهم، { قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين { في النار.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشمير إلى حضرة العي الكبير؛ نادوا أهل البطالة
والتقصير، فقالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا؛ من كشف الحجاب والدخول مع
الأحباب، حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً كما وجدنا نحن؟ قالوا على وجه
الدعوى والغلط: نعم، فأذن مؤذن بينهم، بلسان الحال: أن لعنة الله على
الظالمين؛ الذين بقوا مع حظوظ أنفسهم، ولم يخرقوا شيئاً من عوائدهم، مع
تراميهم على مراتب الرجال، وادعائهم بلوغ غاية الكمال، الذين يصدون عن
طريق الخصوص ويغونها عوجاً، وهم بالخصلة الآخرة - وهي إشراق نور الحقيقة
على أهل التربة - هم كافرون، وبينما حجاب كبير، وهو حجاب الغفلة، فلا
يعرفون أهل اليقظة، وهم أهل مقام الإحسان، بل بينهما مفاوز ومهَامِه، كما قال
الشاعر:

تَرَكْنَا الْبُحُورَ الرَّخْرَاتِ وَرَاءَنَا قَمِينِ أَيْنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهْنَا
وعلى الأعراف؛ وهو البرزخ الذي بين الحقيقة والشريعة، رجال من أهل
الاستشراق، يعرفون كلاً من العوام والخواص بسيماهم، ونادروا أصحاب الجنة
أي: الواصلين إلى جنة المعارف: أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون، لأنهم
في حالة السير وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار، أي: نار الحجاب
والتعب، وهم العوام، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.
@ { وَتَادَا أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } * { أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا
الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }

قلت: { ما أغنى } استفهامية أو نافية، و { ما كنتم } مصدرية، و { ادخلوا }:
محكى بقول محذوف، أي: قيل لهم ادخلوا...الخ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالاً { من رؤساء الكفرة،
{ يعرفونهم بسيماهم }؛ بعلامة فيهم من سوء حالهم، { قالوا { لهم: { ما أغنى
عنكم جمعكم { أي: كثرتم، أو جمعكم للمال، شيئاً أو أيّ شيء أغنى عنكم
جمعكم، { وما كنتم تستكبرون }؟ أي: واستكباركم؟ { أهؤلاء الذين أقسمتم لا
ينالهم الله برحمة } وهم ضعفاء المسلمين الذين كانت الكفرة تستحقرهم في
الدنيا، ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة، قد قيل لهم: { ادخلوا الجنة لا خوف
عليكم ولا أنتم تحزنون }. أو تقول الملائكة لأهل الأعراف: { ادخلوا الجنة لا
خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون } ، بعد أن حُبسوا على الأعراف حتى أبصروا
الفريقين وعرفوهم، وقالوا لهم ما قالوا، تفضل الله عليهم، فقيل لهم: ادخلوا
الجنة.

وقيل: لما عيّر أصحابُ الأعرافِ أهل النار، أقسموا - أي: أهل النار - أن أصحاب
الأعراف لا يدخلون الجنة، فقال لهم الله تعالى: { أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم
برحمة ادخلوا } يا أهل الأعراف { الجنة }. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أصحاب الأعراف: قوم من الصالحين حصل لهم محبة القوم، ليسوا من عوام أهل اليمين ولا من خواص المقربين، فإذا نظروا إلى أهل الطعن على الفقراء المتوجهين، والترفع عليهم، قالوا لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، أهؤلاء الذين كنتم تطعنون عليهم، وأقسمتم أنهم ليسوا على شيء؟ قد قيل لهم: ادخلوا جنة المعارف لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، وأنتم حصل لكم الخيبة، والحرمان، والأسر في أيدي النفوس، والحصر في سجن الأكوان. عائداً بالله من ذلك.

@ { وَتَادِبَا أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ } * { الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } * { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } * { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {

قلت: { هدى ورحمة } : حال من مفعول { فصلناه } ، { فيشفعوا } : جواب الاستفهام، { أو تُرد } ؛ بالنصب: عطف عليه، وبالرفع: استئناف، فعلى الأول: المسؤول أحد الأمرين؛ إما الشفاعة أو الرد، وعلى الثاني: المسؤول الشفاعة فقط.

يقول الحق جلّ جلاله: { ونادى } ، يوم القيامة، { أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا } أي: صبوا { علينا من الماء } ، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار، أو: صبوا علينا مما رزقكم الله؛ من سائر الأشربة، ليلائم قوله { أفيضوا } ، أو: من الطعام؛ على حذف الفعل، أي: أو أعطونا مما رزقكم الله، { قالوا إن الله حرمها على الكافرين } ، أي: منعها عنهم، { الذين إتخذوا دينهم لهواً ولعباً } ؛ كتحریم البحائر والسوائب، والتصدية حول البيت، والطواف به؛ عرياناً، وغير ذلك مما أحدثوه، واللغو: صرف القلب إلى ما لا يحصل به نفع أخروي. واللعب: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به؛ لخلوه عن منفعة دينية، { وغرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ؛ بأن أنسَتْهُمُ الْقِيَامَةَ، { فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا } ، والكاف: أي: ننسَاهُمْ؛ لأجل نسيانهم لقاء يومهم هذا، فلم يخطر به بالهم، ولم يستعدوا له، { وما كانوا بآياتنا يجحدون } أي: تُهْمَلُهُمْ لِأَجْلِ إِهْمَالِهِمْ الاستعداد للقاء، وإهمالهم آياتنا حتى جحدوا أنها من عند الله.

{ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم } أي: بيّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلةً { على علم } ، أي: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتيان، { وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون } فإنهم المنتفعون بهدايته ورحمته دون غيرهم.

{ هل ينظرون } أي: ما ينتظر الكفار به { إلا تأويله } ، أي: ما يؤول إليه أمره؛ من تبين صدقه، بظهور ما نطق به من الوعد والوعد، بقيام الساعة وما بعدها، { يوم يأتي تأويله } ؛ بظهور ما نطق به، { يقول الذين نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ } ، ولم

يؤمنوا به: { قد جاءت رسل ربنا بالحق } أي: قد تبين أنهم جاؤوا بالحق، وحصل لهم اليقين حيث لم ينفع، ثم طلبوا من يشفع فيهم فقالوا: { فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا } اليوم، { أو تُردُّ } أي: وهل نرد إلى الدنيا { فنعمل غير الذي كنا نعمل } فنستبدل الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة والإذعان، أو: فيشفعوا لنا في أحد الأمرين: إما السلامة من العذاب، أو الرد إلى الدنيا فنستبدل الكفر بالإيمان. قال تعالى: { قد خسروا أنفسهم }؛ أي: بخسوها بسوء أعمالهم وكفرهم، { وصلَّ عنهم ما كانوا يفترون } أي: غاب عنهم افتراؤهم فلم ينفعهم.

الإشارة: إذا وصل أهل الجد والتشميمير إلى حضرة العلي الكبير، وأفاض عليهم من ماء غيبه، حتى امتلأت قلوبهم وأسرارهم، فأثمر لهم العلوم اللدنية والأسرار الربانية؛ ناداهم أهل البطالة والتقصير: أفيضوا علينا من الماء الذي سقاكم الله منه، أو مما رزقكم من العلوم والمعارف. قالوا: إن الله حرمهما على البطالين؛ الذين اتخذوا طريق القوم لهوًا ولعبًا، وغرتهم الحياة الدنيا فقبضتهم في شبكتها، فيقول تعالى: فالיום ننسأهم من لذيذ مشاهدتي، وحلاوة معرفتي، كما نسوا لقائي بشهود ذاتي، وأنكروا على أوليائي وأهل معرفتي، وجددوا وجود التربية وحجروا على قدرتي، ولقد جنناهم بكتاب فضلنا فيه كل شيء؛ فقلنا فيه:

{ مَا تَسْخُ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِئَهَا تَاتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا }
[البقرة: 106] إلى يوم القيامة، هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله بظهور درجات المقربين، في أعلى عليين، حينئذ يحصل لهم اليقين بوجود المقربين، أو بالتربية النبوية في كل زمان وحين، فيطلب الشفاعة في اللحوق بهم، أو يرد إلى العمل بعملهم.. هيهات! قد بُعث ما في القبور، وحُصل ما في الصدور، فخسر المبطلون، وفاز المجتهدون السابقون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

@ { إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَ النَّجْمُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } * { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } * { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ }

قلت: { حثيًا } أي: سريعًا؛ صفة لمصدر محذوف، أي: طلبًا حثيًا أو حال من الفاعل، أي: حثًا، و { مسخرات } حال فيمن نصب، وخبر فيمن رفع، و { تضرعًا وخفية } مصدران، حالان من الواو، وكذلك { خوفًا وطمعًا }.

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ رَبَّكُمْ } الذي يستحق أن تعبدوه، وهو { الله } وحده { الذي خلق السماوات والأرض } أي: أظهرهما { في ستة أيام } أي: مقدار ستة أيام من أيام الدنيا؛ إذ لم يكن ثمَّ شمس، ولو شاء خلقهن في لحظة، والعدول إليه؛ لتعليم خلقه الثاني والتثبت.

{ ثم استوى على العرش } استواء يليق به، والعرش: جسم عظيم محيط بالأكوان. سمي به؛ لارتفاعه، وللتشبيه بسرير الملك، فالأكوان في جوفه محوقة؛ فقد استولى عليها ومحققها، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه

وحقته، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله.

وقال القشيري: ثم استوى على العرش، أي: تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت، وملوكنا إذا أرادوا التجلي والظهور للحنن والرعية؛ برزوا لهم على سرير ملكهم في إيوان مشاهدتهم. فأخبر الحق - سبحانه وتعالى - بما يقرب من فهم الخلق، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات، بأنه استوى على العرش، ومعناه: اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية، وتقدس الجبار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود. هـ.

{ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ } أي: يُعْطِي نور النهار بظلمة الليل، { يَطْلُبُهُ حَتِيئًا } أي: يعقبه سريعًا؛ كالتائب له، لا يفصل بينهما شيء، { وَ } { خَلَقَ } الشمس والقمر والنجوم مُسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ { أي: بقضائه وتصريفه، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمر غيبية، دالة على ظهور شيء منها.

والنهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين؛ إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به؛ لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل، فإنَّ عِلْمَ النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء، ثم اندرس ذلك العلم، فلم يبق إلا ما هو مختلط، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابًا لآثار يخلق الله - تعالى - بها في الأرض، وفي النبات والحيوان شيئًا، يعني في الجملة ليس قادمًا في الدين، بل هو الحق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل: قادر في الدين، فالكواكب ما خلقت عبثًا، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى السماء وقرأ قوله تعالى: { رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا... } [آل عمران: 191] الآية. انظر الإحياء للغزالي.

ثم قال تعالى: { إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } أي: الإيجاد والتصرف بالأمر والنهي، { تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } أي: تعظم في ألوهيته، وتعالى في ربوبيته، وتفرد في وحدانيته.

قال البيضاوي: (وتحقيق الآية - والله أعلم - أن الكفرة كانوا متخذين أربابًا، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد - وهو الله تعالى؛ لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم، وتدبير حكيم؛ فأبدع الأفلاك العلوية، والأجرام السفلية، ثم بعد تمام خلق عالم الملك أخذ في تدبيره؛ كالمملك الجالس على عرشه وسريره لتدبير مملكته، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام، فله الخلق والأمر. وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق:

{ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ }

[يونس: 3، السجدة: 4]، فربُّ الخلائق: مَنْ هذا صفته، لا غيره، انتهى المعنى.

ثم أمرهم بأن يدعوه، متذللين مخلصين، فقال: { ادعوا ربكم تضرعًا وخُفِيَّةً } أي: ذوي تضرع وخفاء؛ فإن الإخفاء دليل الإخلاص، { إنه لا يحب المعتدين } المتجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، ونبه على أن الداعي ينبغي ألا يطلب ما لا يليق به؛ كرتبة الأنبياء، وقيل: الاعتداء في الدعاء، هو الصياح به، والتشدد، أو اختراع دعوة لا أصل لها في الشرع، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "

سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدَّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ
وَمَا يُقَرَّبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ. ثم قرأ { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ."

{ ولا تُفسدوا في الأرض { بالكفر والمعاصي، { بعد إصلاحها { بيعث الأنبياء،
وشرع الأحكام، أو: ولا تفسدوا في الأرض بالمعاصي الموجبة لفساد العالم
بالقسط والفتن، بعد إصلاحها بالخصب والأمان، { وأدعوه خوفًا وطمعًا { أي: خوفًا
من الرد لقصور الأعمال، وطمعًا في القبول بالفضل والكرم؛ { إن رحمة الله
قريبٌ من المحسنين { المخلصين.

قال البيضاوي: هو ترجيح للطمع، وتنبية على ما يتوصل به إلى الإجابة، وتذكير
قريب؛ لأن الرحمة بمعنى الترحم، أو لأنه صفة محذوف؛ أي: أمر قريب، أو على
تشبيهه فعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو للفرق بين القريب من النسب، والقريب
من غيره. هـ. قلت: والأحسن أنه إنما ذكره؛ لأن المراد بالرحمة هنا: سر
الخصوصية، وهو مذكر، فراعى معنى اللفظ، كأنه قال: إن سر الولاية - وهي
الخصوصية - قريب من المحسنين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: { في ستة أيام { قال الورتجبي: في كل يوم من هذه
الأيام: ظهور صفة من صفاته الست: أولها: العلم، والثاني: القدرة: والثالث: السمع،
والرابع: والبصر، والخامس: الكلام، والسادس: الإرادة، كملت الأشياء بظهور أنوار
الصفات الستة، ولما أتمها صارت الحدثان؛ كجسد آدم بلا روح، فتجلى من صفته
السابعة. وهي حياته القديمة الأزلية الباقية، المنزهة عن همهمة الأنفاس
والمشابهة والقياس - فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون إلى الأبد؛
لحياتها بروح حياته، المقدسة عن الاتصال والانفصال. قلت: وهي المعبر عنها
بالمعاني القائمة بالأواني.

ثم قال: وفي أدق الإشارة: السماوات: الأرواح، والأرض: الأشباح، والعرش: القلوب،
بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح، ثم بدأ يكشف الذات
للقلوب؛ لأن مناظر القلوب للغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلي استواء
القدم، استوى قهر القدم، بنعت الظهور للعدم، أي: فتلاشى العدم، ثم استوى
تجلي الصفات على الأفعال، واستوى تجلي الذات على الصفات، فاستوى بنفسه
لنفسه، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان.

قلت: أي: إذ لا حدثان ولا أكوان؛ لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت، وما بقي إلا
نعت القدم.

ثم قال: خصَّ السماوات والأرض بتجلي الصفات، وخصَّ العرش بتجلي الذات.
قلت: لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها، وهي أسرار الذات
لم تتردَّ برداء الكبرياء، وهو حجاب الحس الظاهر، بخلاف المعاني القائمة
بالأواني، وهي أنوار الصفات، تجلت مرتدية بحجاب القهرية، فقيل لها: تجلي
الصفات.

ثم قال: السماوات والأرض جسد العالم، والعرش قلب العالم، والكرسي دماغ
العالم، خص الجميع بالأفعال والصفات، وخص العرش بظهور الذات؛ لأنه قلب
الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيت في المكاشفة أنوارًا شعشعانيًا، بلا

جسم ولا مكان ولا صورة، يتلأأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشًا. انتهى.

قلت: وأقرب من هذا كله: أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم، حتى صارت في وسطه كلا شيء، ومعاني أسرار الربوبية، وهي العظمة الأصلية - قد استولت عليه، وأحاطت به، ومحت وجوده، فعبر الحق - جل جلاله - عن استيلاء هذه العظمة - التي هي أسرار الربوبية - على العرش بالاستواء. وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله: "يا من استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيبًا في رحمانيته، كما صارت العوالم غيبًا في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الآثار - وهي العرش وما احتوى عليه - بمحيطات أفلاك الأنوار" وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار - من العرش إلى الفرش، فعبر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية؛ لأن الرحمانية صفة الذات، والصفة لا تفارق الموصوف، فافهم.

قلت: ومن كحل عينه بإئتمد توحيد الذات لا يستعبد أن يكون الحق - جل جلاله - يتجلى بتجل خاص من أسرار ذاته وأنوار صفاته، يستوي بتلك العظمة على العرش، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، إذ تجلياته لا تنحصر، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة وإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته. وهذا القدر كاف لمن شتم شيئًا من أسرار التوحيد، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء، وأطال فيهما، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر، وقد تقرر في محله.

وقوله تعالى: { إن رحمة الله قريب من المحسنين } : هو تقييد لقوله: { يختص برحمته من يشاء }؛ فالمختص بالرحمة هم المحسنون. انظر لفظ الحكم. والله تعالى أعلم.

@ { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقَّتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } * { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ }

قلت: (نُشْرًا): حال من الرياح، وهو جمع نشور، بمعنى ناشر، ومن قرأ بسكون الشين، فهو تخفيف منه، ومن قرأ بفتح النون، فمصدر في موضع الحال، بمعنى: ناشرات، أو مفعول مطلق؛ فإن الإرسال والنشر متقاربان، ومن قرأه بالباء وسكون الشين فهو جمع بشير، مخفف، و(أقَلَّتْ): مشتق من القلة؛ لأن الحامل للشيء يستقله، و(ثقالاً): جمع؛ لأن السحاب جمع بمعنى السحاب.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي يرسل الرياح } أو الريح (نُشْرًا) أي: تنشر السحاب، وتفرقه إلى الأرض التي أراد الله أن تمطر، أو بشارة بالمطر، { بين يدي رحمته } أي: قبل نزول المطر، فهي قدامه؛ فإن الصبا تثير السحاب، والشمال تجمعها، والجنوب تذرّه، والدبور تُفرقه. قاله البيضاوي.

{ حتى إذا أقَلَّتْ } أي: حملت { سحابًا ثقالاً } بالماء؛ لأنها تحمل الماء فتثقل به، { سُقَّتْهُ } أي: السحاب بما اشتمل عليه من الماء، { لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ } أي: لإحيائه أو

لَسَقِيهِ بَعْدَ بَيْسِهِ، كَأَنَّهُ مَيِّتٌ، { فَأَنْزَلْنَا بِهِ } { أَي: بِالْبَلَدِ، أَوْ بِالسَّحَابِ، أَوْ بِالسُّوقِ، أَوْ بِالرِّيحِ، { الْمَاءِ } الَّذِي فِي السَّحَابِ، { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } { أَي: الْمَاءِ، } { مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } { مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، } { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } { مِنْ الْقُبُورِ، أَي: كَمَا نُحْيِي الْبَلَدَ بِأَحْدَاثِ الْقُوَّةِ النَّامِيَةِ فِيهِ وَتَطَرُّبِهَا بِأَنْوَاعِ النَّبَاتِ وَالثَّمَرَاتِ } { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } { مِنَ الْأَحْدَاثِ وَنَحْيِيهَا بِبَرْدِ النُّفُوسِ إِلَى مَوَادِّ أَيْدَانِهَا بَعْدَ جَمْعِهَا وَتَطَرُّبِهَا بِالْقُوَّةِ الْحَسِيَّةِ. قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ.

وقال ابن جزري: هو تمثيل لإخراج الموتى من القبور بإخراج الزرع من الأرض، وقد وقع ذلك في القرآن في مواضع منها:

{ كَذَلِكَ النَّشُورُ } {

{ قَاطِر: 9 }، و

{ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } {

{ ق: 11 }، هـ. { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }؛ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على إحياء الموتى، إذ لا فرق.

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ } { أَي: الْأَرْضُ الْكَرِيمَةُ وَالتَّرَابُ الْجَيِّدُ } { يَخْرُجُ نَبَاتُهُ } { بِسَهُولَةٍ، حَسَنًا قَوِيًّا نَضْرًا، } { بِإِذْنِ رَبِّهِ } { أَي: بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، } { وَالَّذِي خَبَثَ } { مِنْ الْأَرْضِ؛ كَالْحَرَّةِ وَالسَّبِيخَةِ، } { لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا }؛ قَلِيلًا عَدِيمَ النِّفْعِ، أَوْ عَسِيرًا بِمَشَقَّةٍ، { كَذَلِكَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ }؛ تُكْرِمُهَا وَتُرَدِّدُهَا { لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } { نِعْمَةَ اللَّهِ، فَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَيَعْتَبِرُونَ بِهَا.

قال البيضاوي: والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها، ومثله في البخاري في حديث طويل. وقال ابن عباس وغيره: هو ضرب مثل للمؤمن والكافر. وقال ابن جزري: يحتمل أن يكون المراد ما يقتضيه ظاهر اللفظ، فتكون متممة للمعنى الذي قبلها في المطر، وأن تكون تمثيلاً للقلوب؛ فالطيب: قلب المؤمن، والخبيث: قلب الكافر، وقيل: هما للفهم والبليد. هـ.

الإشارة: وهو الذي يرسل رياح الهداية، تنشر سحب الواردات الإلهية والنفحات الربانية، بين يدي معرفته، أو تُبَشِّرُ بِهَا قَبْلَ وَصُولِهَا، حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالًا بِالْعُلُومِ الدُّنْيَا، سَقَنَاهُ لِقَلْبِ مَيِّتٍ بِالْجَهْلِ وَالْهَوَى، فَأَنْزَلْنَا مِمَّا فِيهِ مِنْ مَاءِ ذَلِكَ الْأَمْطَارِ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ الْعُلُومِ وَأَزْهَارِ الْحِكْمِ وَنَوَارِ الْيَقِينِ. وَفِي الْحِكْمِ: " لَا تَزْكِيَنَّ وَارِدًا لَمْ تَعْلَمْ ثَمَرَتَهُ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنَ السَّحَابَةِ الْأَمْطَارِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ وَجُودُ الْأَثْمَارِ ". { كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى } { أَي: نَحْيِي الْقُلُوبَ الْمَوْتَى بِالْجَهْلِ، } { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ، وَهُوَ الْقَلْبُ الطَّيِّبُ، إِذَا هَبَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوَارِدَاتِ، وَنَزَلَتْ فِيهِ أَمْطَارُ النِّفْحَاتِ، يُخْرِجُ نَبَاتَهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبَثَ مِنَ الْقُلُوبِ لَا يَخْرُجُ مَا فِيهِ إِلَّا نَكِدًا - أَي: ضَعِيفًا؛ لِعَدَمِ تَأْتُرِهِ بِالْوَارِدَاتِ وَالْمَوَاعِظِ.

وقال الورتجي: ذكر - سبحانه - القلب الذي هو بلد الله الذي مُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ بَحْرِ امْتِنَانِهِ، وَيَخْرُجُ نَبَاتُ أَلْوَانِ الْحَالَاتِ وَالْمَقَامَاتِ. ثُمَّ قَالَ: وَكُلُّ قَلْبٍ بَذَرَهُ الْهَوَى فَنَبَاتُهُ الشَّهَوَاتِ. هـ.

@ { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } * { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَتْرَاكَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ } * { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } *
{ أَلْبَلَّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } * { أَوْ
عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلِمَا رَجُلٌ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
} * { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ }

قلت: { أَوْ عَجِبْتُمْ } : الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف،
أي: أكذبتهم وعجبتم، و { في الفلك } : يتعلق بأنجيناه، أو بمن معه، أو حال من
الموصول.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه } ، وهو نوح بن لمك بن
متوشلخ بن أدريس، نبيء بعده، بعث ابن خمسين سنة أو أربعين، وعاش ألفًا
وثلاثمائة سنة، { فقال يا قوم اعبدوا الله } وحده { ما لكم من إله غيره }
يستحق أن يُعبد، { إنني أخاف عليكم } ، إن لم تُؤمنوا وتُوحدوا الله { عذاب
يوم عظيم } وهو يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

{ قال الملأ } أي: الأشراف { من قومه } ؛ لأنهم يملأون العيون عند رؤيتهم،
قالوا له: { إننا لترآك في ضلالٍ مبينٍ } أي: في خطأ بين عن الحق، { قال يا
قوم ليس بي ضلالٌ } أي: ليس بي شيء من الضلال، بالغ لهم في النفي كما
بالغوا له في الإثبات، وعرض لهم به، وتلطف لهم في القول، { ولكني رسولٌ
من ربِّ العالمين } أي: لست في ضلال كما اعتقدتم، ولكني في غاية من
الهدى؛ لأنني رسول من رب العالمين، { أبلغكم رسالاتِ ربي } كما أمرني،
{ وأنصح لكم } جُهدِي، { وأعلم من الله ما لا تعلمون } من صفاته الجلالية
والجمالية ومن رحمته وعذابه، أو من قدرته وشدة بطشه، أو أعلم من جهة
وحية أشياء لا علم لكم بها، وجمع الرسالات؛ لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها،
كعلم العقائد والمواعظ والأحكام.

ثم قال لهم: { أَوْ عَجِبْتُمْ } أي: أكذبتهم وعجبتم من { أن جاءكم ذِكْرٌ } أي: تذكير
ووعظ { من ربكم } { على } لسان { رجل منكم } أي: من جملتكم، أو من
جنسكم؛ كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون:
{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ }
[المؤمنون:24]، قال القشيري: عجبوا من كون شخص رسولاً، ولم يعجبوا من
كون الصنم شريكاً لله، هذا قرطُ الجهالة وغاية الغواية. هـ. وحكمة إرساله؛ كونه
جاءكم { لينذركم } عاقبة الكفر والمعاصي، { ولتتقوا } الله بسبب تلك الإنذار،
{ ولعلكم ترحمون } بتلك التقوى، وفائدة حرف الترجي؛ التنبيه على أن التقوى
غير مُوجب للترحم بذاته، وإنما هو - أي: الترحم - فضل من الله، وأن المتقي
ينبغي ألا يعتمد على تقواه، ولا يأمن من عذاب الله.

{ فكذبوه فأنجيناه والذين معه } هو ومن آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين
امراً، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، حملناهم { في الفلك } أي: السفينة، { وأغرقتنا
الذين كذبوا بآياتنا } بالطوفان؛ { إنهم كانوا قوماً عمين } أي: عُمي القلوب، غير
مستبصرين، وأصله: عمين، مخفف. قاله البيضاوي.

الإشارة: الشريعة المحمدية: سفينة نوح عليه السلام، فمن ركب بحر الحقائق وحاد عنها؛ حال بينه وبينها الموج فكان من المغرقين في بحر الزندقة والكفر، ومن تمسك بها في ذلك كان من الناجحين الفائزين.

@ { وَاللَّا عَادِ أَخَاهُمْ هُوِيًّا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } * { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } * { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } * { أَلْبَلَّغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } * { أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } * { قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّعِبَ اللَّهَ وَنَحْدَهُ وَنَذُرَ مَا كَانَ يَكُونُ لَنَا مَا تَدْعُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } * { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَيْتُمْ أَوْحَائِي فَمَا اسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَّا تَزَلُ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَاتَّظَرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ } * { فَانجَبْتَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ }

قلت: { أخاهم } : عطف على نوح، و { هودًا } : عطف بيان أو بدل، وكذلك { أخاهم صالحًا } وما بعده؛ حيث وقع.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { و } { أرسلنا } { إلى } { قبيلة } { عادٍ أخاهم } { أي: واحد من قبيلتهم، كقولهم: يا أخا العرب، فإنه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: هو هود بن شاح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، فهو ابن عم أبي عاد، وإنما أرسل إليهم منهم لأنهم أفهم لقوله، وأعرف بحاله، وأرغب في أتباعه، ثم وعظهم فقال: { يا قوم اعبدوا الله } وحده؛ { ما لكم من إله غيره أفلا تتقون } عذاب الله، { قال الملأ الذين كفروا من قومه } ، كان قومه أحسن من قوم نوح، إذ كان من أشرافهم من آمن به؛ كمرثد بن سعد، ولذلك قيد الملأ بمن كفر، بخلاف قوم نوح؛ لم يكن أحد منهم آمن به، فأطلق الملأ، قالوا لهود عليه السلام: { إنا لنراك في سفاهة } { أي: متمكناً في خفة العقل، راسخاً فيها، حيث فارقت دين قومك، } { وإنا لنظنك من الكاذبين } في ادعاء الرسالة.

{ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين } ، يحتمل أن يريد أمانته على الوحي، أو أنهم كانوا قد عرفوه بالأمانة والصدق قبل الرسالة. ثم قال: { أَوْ عَجِبْتُمْ } من { أن جاءكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم لينذركم } ، تقدم تفسيرها.

قال البيضاوي: وفي ذكر إجابة الأنبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا به والإعراض عن مقاتلتهم: كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: { وأنا لكم ناصح أمين } : تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. هـ.

ثم قال لهم: { واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح } في مساكنهم، أو خلفاء في الأرض من بعدهم بأن جعلكم ملوكًا، فإن شداد بن عاد ممن ملك

معمورة الأرض، من رمل عالج إلى بحر عمان، خوفهم أولاً من عقاب الله، ثم ذكرهم بإنعامه؛ { وزادكم في الخلق بسطة } أي: قامة وقوة، فكانوا عظام الأجساد، فكان أصغرهم: ستين ذراعاً، وأطولهم: مائة ذراع. { فاذكروا آلاء الله } أي: نعمه، تعميم بعد تخصيص، { لعلكم تفلحون } أي: لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح، ومن شكرها: الإيمان برسولهم.

{ قالوا أجتئنا لنعبد الله وحده ونَدَّر ما كان يعبد آباؤنا } من الأصنام، استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما وجدوا عليه آباءهم؛ انهماكاً في التقليد، وحباً لما ألفوه مع اعترافهم بالربوبية، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: { قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب } ، بعد أن قالوا: { فأتنا بما تعدنا } من العذاب { إن كنت من الصادقين } فيه.
قال قد وقع { أي: وجب } عليكم من ربكم رجس { عذاب } وغضب { إرادة الانتقام، { أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم } أي: أتجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف. وأراد بقوله: { سميتموها أنتم وآباؤكم } أي: جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل، وهو معنى قوله: { ما نزل الله بها من سلطان } أي: حجة تدل على استحقاقها للعبادة، فالمجادلة يحتمل أن تكون في عبادتها، أو في تسميتها آلهة، والمراد بالاسم - على الأول - المسمى، وعلى الثاني: التسمية. قاله ابن جزى: { فانتظروا } نزول العذاب، الذي طلبتم حين أصررتم على العناد، { إنني معكم من المنتظرين } نزوله.

قال تعالى: { فأنجيناه والذين معه برحمة منا } عليهم. قال القشيري: لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا درجة أعلي من درجة الرسالة، وقد أخبر سبحانه: أنه نجى هوداً برحمته، وكذا نجى الذين آمنوا معه برحمته، ليُعلم أن النجاة لا تكون باستحقاق العمل، وإنما تكون ابتداءً فضلٍ من الله ورحمة، فما تَجَا مَن تَجَا إِلَّا بفضل الله سبحانه وتعالى. هـ.

{ وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا } أي: استأصلناهم، { وما كانوا مؤمنين } ، تعريض بمن آمن منهم، وتنبية على أن الفارق بين من تَجَا وبين من هلك: هو الإيمان.

رُوي أنهم كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وزادوا عتوا، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذٍ مسلمهم ومشركهم، إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه " قيل بن عنز " ، ومرثد بن سعد، في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة؛ أولاد عمليق بن لاود بن سام، وسيدهم: معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه، وهو بظاهر مكة، أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصحابه، فليثوا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنى عليهم الجرادتان - قَيْتَان له - فلما رأى ذهولهم عما بعثوا له أهمه ذلك، واستحيا أن يكلمهم فيه؛ مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم، فعلم المغنيتين بيتين من الشعر، وأمرهما أن تغنيا به وهما:

لَعَلَّ الله يسقينا العَمَامَا أَلَا قَيْلٌ وَيَحَكَّ، فُم، فَهَيْمِ
قَدَّ امسُوا لَا يُبِينُونَ الكَلَامَا فيسقي أرض عادٍ، إِنَّ عَادًا

فلما غيبتا به أزعجهم ذلك، فقال مرثد: والله لا يُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وتبتم إلى الله، سقبتم، فقالوا لمعاوية: أحبسنا عنا، لا يقدم معنا مكة؛ فإنه قد أتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال قيل: اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا؛ بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قيل؛ اختر لنفسك ولقومك. فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهن ماءً، فخرجت إلعاد من وادي المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم، فيها ريح عقيم، فأهلكتهم، رُوي أنها لما قربت من ديارهم حملت أنعامهم في الهواء، كأنها جراد، فاستمرت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام، شدخت رؤوسهم إلى الحجارة حتى هلكوا جميعًا، ونجا هو والمؤمنون معه، فاتوا مكة وعبدوا الله حتى هلكوا. قاله البيضاوي وغيره.

وها هنا بحث؛ وهو أن البيت إنما بناه إبراهيم عليه السلام حسبا في الصحيح، ولم تعمر مكة إلا بعد إنزال إسماعيل فيها، وهود كان قبل إبراهيم، والبيت حينئذٍ خرب، كان خربه الطوفان، فكيف يتوجهون إليه وهو لم يكن؟.

ويمكن الجواب: بأنهم كانوا يلتجئون إلى رسومه وخبرته التي بقيت بعد الطوفان؛ لأن أول من بناه آدم عليه السلام فلما خربه الطوفان بقي أثره، فكانوا يتبركون به، وفي بعض التواريخ: أن العماليق بنوه قبل إبراهيم، فكانوا يطوفون به ويتبركون، ثم هُدم، وبناه بعدهم خليل الله إبراهيم. وبهذا - إن صح - يزول الإشكال. والله تعالى أعلم. وأما من قال: إن هودًا تعدد، فغير سديد.

الإشارة: قد تضمنت موعظة هود عليه السلام لقومه خصلتين، بهما النجاة من كل هول وشر، والفوز بكل خير، وهما: التوحيد والتقوى، وهي الطاعة لله ولرسوله فيما جاء به من أمر ونهي. فالتوحيد تطهير الباطن من الشرك الجلي والخفي، والتقوى: حفظ الجوارح من المخالفة في السر والعلانية، وهاتان الخصلتان هما أساس الطريق ونهايته. والله تعالى أعلم.

@ { وَإِنَّا تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ عَظِيمٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيهَا أَرْضَ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسِوَاءِ قِيَاخِذِكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } * { وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلُقَاءً مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } * { قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ إِنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } * { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالذِّبَا آمَنُتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } * { فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } * { فَأَحَدْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } * { قَتَلْنَا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ }

قلت: { آية } : حال، والعامل فيها: الإشارة، و { بيوتًا } : حال من الجبال.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { و } { أرسلنا } { إلى تمود } : قبيلة أخرى من العرب، سُموا باسم أبيهم الأكبر: تمود بن غابر بن إرم بن سام، وقيل: سُموا به؛ لقله ما بهم من التتميد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر، بين الحجاز والشام

إلى وادي القرى، وقد دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: " لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا بآكين؛ مخافة أن يصيبكم مثل ما أصابهم ".

أرسلنا إليهم { أخاهم صالحًا } ، وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. وقال وهب بن منبه: بعث الله صالحًا حين راهق الحلم. وقال الكواشي: أنه مات ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه ينذرهم عشرين. هـ.

{ قال يا قوم اعبدوا ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم }؛ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وهي: { هذه ناقة الله لكم آية }؛ لأنها جاءت من عند الله بلا وسائط وأسباب، على ما سيأتي، { فذروها } أي: اتركوها، { تأكل في أرض الله } العشب، { ولا تمسوها بسوء } ، نهى عن المس، الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى؛ مبالغة في الأمر وإزاحة للعدر. قاله البيضاوي. { فيأخذكم } إن مستموها بسوء { عذاب أليم } ، وهو الهلاك بالصيحة.

{ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم } أي: هيا لكم القرار { في الأرض } أي: أرض الحجاز، { تتخذون من سهولها قصورًا } أي: تبنون مما انبسط منها قصورًا، فالسهل ضد الجبل، { وتحتون الجبال بيوتًا } أي: تتجرون بيوتًا من الجبال، وكانوا يسكنون القصور في الصيف والجبال في الشتاء. { فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين } بالمعاصي والكفر.

{ قال الملاء الذين استكبروا من قومه } عن الإيمان، { للذين استضعفوا } أي: للذين استضعفوه واستذلوهم - أعني لمن آمن منهم - { أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه }؟، قالوه على وجه الاستهزاء، { قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون } ، لم يقولوا في الجواب: نعم؛ تنبيهًا على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل أو يخفى على ذي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن ومن كفر؛ فلذلك قال: { قال الذين استكبروا إنا بالذي أمنتكم به كافرون }؛ على المقابلة، ووضعوا { أمنتكم به } موضع { أرسل به }؛ ردًا لما جعلوه معلومًا مسلمًا.

{ ففعلوا الناقة }؛ نحروها، أسند إلى جميعهم فعل بعضهم كما يأتي؛ لأنه كان برضاهم، { وعتوا عن أمر ربهم } أي: استكبروا عن امتثال أمره، وهو ما بلغهم صالح بقوله: { فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء } ، { وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة } أي: صيحة جبريل، { فأصبحوا في دارهم جاثمين }؛ باركين على ركبهم، ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم، وكثروا، وعمروا أعمارًا طويلاً لا تفي بها الأنبياء، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في حصب وسعة، فتعوا وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحًا من أشرفهم فأنذرهم، فسألوه آية، فقال لهم: أي آية تريدون؟ فقالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وتدعو آلهتنا، فمن استجيب له اتبع، فخرج معهم، فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم " جندع بن عمرو " إلى صخرة منفردة يقال لها: " الكاتبة " ، قال له: اخرج من هذه الصخرة ناقةً مخترجة جوفاء وبراء، فإن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح موثيقهم: لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ قالوا: نعم، فصلى، ودعا ربه،

فتمخضت الصخرة تَمَخَّصَ النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشْرَاءَ، جوفاء وبراء كما وَصَفُوا، وهم ينظرون، ثم أنتجت ولدًا مثلها في العظم، فأمن به جندع في جماعة، ومنع الناس من الإيمان: دُؤَاب بن عمرو، والحباب صاحب أصنامهم، ورباب كاهنهم.

فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وترد الماء عِيًّا، فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تنفج، فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون، وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره؛ فشق ذلك عليهم، فزينت عقرها لهم "عينة أم غنم" وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، وعاقرها: الأحمر، واسمه قدار "استعان برجل آخر، فلما شربت أختبأ لها في جانب تل، فضربها صاحبه بالسهم، وعقرها قدار بسيفه، واقتسموا لحمها، فرقى ولدها جيلًا اسمه: قارة، فرغى ثلاثًا، ودخل صخرة أمه، فقال لهم صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل، عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه حيث دخل الصخرة بعد رغائه، فقال لهم صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غدًا مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ويصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأجابه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان ضحوة اليوم الرابع: تحنطوا وتكفونوا بالأنطاع، فأنتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

{ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين } ، ظاهره: أن توليته عنهم بعد أن أبصرهم جائمين؛ ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم، كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل قليب بدر، وقال لهم: " قد وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ " أو دَكَرَ ذلك على سبيل التحسّر عليهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: كل ما قصّ علينا الحقّ - جلّ جلاله - من قصص الأمم الماضية، فالمراد به: تخويف هذه الأمة المحمدية وزيادة في يقينهم، فالواجب على من أراد السلامة في الدارين أن يتمسك بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان، ويتحرى في ذلك جهده؛ يقصد بذلك رضا الله ورسوله. { وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [آل عمران:101]، ومن سلك الطريق المستقيم وصل إلى النعيم المقيم. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ } * { إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } * { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أتاسن يتطهرون } * { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } * { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَانِظًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }

قلت: { شهوة } مفعول له، أو مصدر في موضع الحال.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } أرسلنا { لوطًا إذ قال لقومه } ،؛ واعطًا لهم: { أتأتون الفاحشة } أي: اللواط؛ تويجًا وتقريبًا على تلك الفعل المتناهية في القبح، { ما سبقكم بها من أحد من العالمين } أي: ما فعلها أحد قبلكم، وبخهم

على أمرين: إتيان الفاحشة، واختراعها أولاً، ثم قال لهم: { إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء } ، وصفهم بالشهوة البهيمية، وفيه تنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة: طلب الولد وإبقاء النوع لا قضاء الوطر، { بل أنتم قومٌ مسرفون } أي: عادتكم السرف في كل شيء، حتى تجاوزتم ما أحل الله لكم من النساء إلى ما حرم عليكم من إتيان الذكور، وهو إضراب عن الإنكار إلى الإخبار بحالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها؛ وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم لم على جميع معاييهم، أو عن محذوف، مثل: لا عذر لكم فيه، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف. قاله البيضاوي.

{ وما كان جواب قومه } له حين وعظهم، { إلا أن قالوا أخرجوهم } أي: لوط ومن آمن به، { من قريبتكم } أي: ما أجابوه بشيء يصلح للجواب، لكن قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه من قريبتهم، والاستهزاء بهم، حيث قالوا: { إنهم أناس يتطهرون } من الفواحش.

قال تعالى: { فأنجيناها وأهلها } أي: من آمن معه، { إلا امرأته } فإنها كانت تسر الكفر؛ { كانت من الغابرين } أي: الباقين في ديارهم فهلكوا وهلكت معهم.

{ وأمطرنا عليهم مطراً } أي: نوعاً عجيباً من المطر، بيّنه بقوله:
{ وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل }
[الجر:74] { فانظر كيف كان عاقبة المجرمين }.

رُوي أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر عمه إبراهيم إلى الشام، ونزل بالأردن، وكان هاجر هو معه، أرسله الله تعالى إلى أهل سدوم، ليدعوهم إلى الله، وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها، فقلع جيريل مدينتهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر الحجارة على ما قربهم من القرى، وسياتي في سورة هود بقية قصتهم، إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما أهلك الله قوم لوط حيث آثروا شهوة نفوسهم على عبودية ربهم، وغلبهم الطبع البهيمي على مقتضى العقل الصافي، وقد تقدم الغزالي: إن الشره إلى الوقاع من جملة المهلكات. فعلى المرید أن يصفى قصده، ولا ينزل إلى أرض الحظوظ إلا بالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، ولا ينزل بالشهوة والمتعة. وقد قال عليه السلام: " المؤمن يأكل بشهوة أهله " فلا يأتي ما أحلَّ الله له من متعة النساء إلا قياماً بحقِّ الغير وطلباً للنسل. وبالله التوفيق.

@ { وَإِلَّا مَدِينَ أَحَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَأْقُومُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قَاؤُفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } * { وَلَا تَفْعَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } * { وَإِنْ كَانِ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَسْبًا بِحُكْمِ اللَّهِ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } * { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ

{ * } قَدْ افْتَرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّاتَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهُ رَبَّنَا وَسِعَ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَيَّ اللَّهُ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } * { وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنَّ اللَّهُ لِيَنَّا شُعْبًا إِنَّا كَانُوا إِتِّعَمُوا } * { فَأَخَذْتَهُمُ الْخَسْفَ فَاصْبِرُوا فِي دَارِهِمْ جَانِمِينَ } * { الَّذِينَ كَذَبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ } * { فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ كَيْفَ آسَأَ عَلَيَّا قَوْمٍ كَافِرِينَ } {

يقول الحق جل جلاله: { و } أرسلنا { إلى مدين أخاهم شعبيًا } ، ومدين: قبيلة من أولاد مدين بن إبراهيم، شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل، على ما قيل. وقد تقدم في البقرة أن مدين ومدان من ولد إبراهيم عليه السلام، وشعيب هذا يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه.

{ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إليه غيره قد جاءكم بينة من ربكم } يريد المعجزة التي كانت له، وليس في القرآن بيان ما هي معجزته. وحمل الواحدي البينة على الموعظة. وقال في الكشاف: ومن معجزات شعيب: ما روي من محاربة عصا موسى التنين، حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرغ خاصة، حين وعده أن يكون له الدرغ من أولادها، ووقوع عصا آدم في يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات. هـ. وفيه نظر؛ لأن هذه وقعت بعد مقالته لقومه، وإنما كانت إرهابات لموسى عليه السلام، وفي حديث البخاري: " مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَأَنَا هُ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحِيًّا، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " وهو صريح في أنه لا يد من الآية لكل رسول، ولعل الله تعالى لم يذكر معجزة شعيب وهود في القرآن مع وجودها؛ لظاهر الحديث.

ثم قال لهم: { فأوفوا الكيلَ والميزانَ } ، وكانوا مطغفين، أي: فأوفوا المكيال الذي هو آلة الكيل، أي: كبروها؛ بدليل قوله: { والميزان } الذي هو الآلة، ويحتمل أن يريد بهما المصدر، أي الكيل والوزن.

{ ولا تبخسوا الناس أشياءهم } أي: لا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال: { أشياءهم } ، للتعميم تنبيهًا على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير، والقليل والكثير، وقيل: كانوا مكاسين لا يدعون شيئًا إلا مكسوه. { ولا تُفسدوا في الأرض } بالكفر والظلم، { بعد إصلاحها } بإقامة الشرائع وظهور العدل، { ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين } أي: ذلك الذي أمرتكم به ونهيتكم عنه هو خير لكم من إبقائكم على ما أنتم عليه، ومعنى الخيرية: الزيادة مطلقًا؛ إذ لا خير فيما هم فيه، أو: في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال. قاله البيضاوي.

{ ولا تقعدوا بكل صراطٍ } أي: طريق { تُوعِدُونَ } من أراد الإيمان بالعقوبة، وكانوا يجلسون على الطرقات والمراصد، يقولون لمن يريد شعبيًا: إنه كذاب فلا يفتنك عن دينك؛ ويوعدون من آمن، وقيل: كانوا يقطعون الطريق.

{ وتصدُّون عن سبيل الله } أي: تصدون الناس عن طريق الله، وهو الإيمان به وبرسوله، وهو الذي قعدوا لأجله في كل طريق، وقوله: { من آمن به } ؛ من

أراد الإيمان به، أو من آمن حقيقة؛ كانوا يصدونه عن العمل، { وتبغونها عِوَجًا } أي: وتطلبون لطريق الله عِوَجًا بإلقاء الشبه فيها، أو بوصفها للناس بأنها مُعَوَّجَةٌ. واذكروا إذ كنتم قليلاً { عَدَّهْم وَعُدَّدَكُمْ } فكثرتكم { بالبركة في النسل والمال، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين { من الأمم قبلكم، فاعتبروا بهم.

{ وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا } أي: تربصوا { حتى يحكم الله بيننا } أي: بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعد للكافرين، { وهو خير الحاكمين }؛ إذ لا معقب لحكمه، ولا حيف فيه.

{ قال الملأ الذين استكبروا من قومه } في جوابه عن وعظه: { لئُخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لنعودنَّ في ملتنا } أي: ليكون أحد الأمرين؛ إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه السلام لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكنهم غلبوا الجماعة على الواحد؛ فحُوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله: { قال أو لو كنا كارهين }. قاله البيضاوي. وقال ابن عطية: وعاد: قد يكون بمعنى صار، فلا يقتضي تقدم ذلك المحال، قلت: وبؤيده ما في حديث الجهنميين: " قد عادوا حمماً " أي: صاروا.

ثم قال شعيب عليه السلام: { قد افترينا على الله كذبًا إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها } أي: إن رجعنا إلى مثلكم بعد الخلاص منها، فقد اختلقنا على الله الكذب، وهذا كله في حق قومه كما تقدم. { وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربُّنا } خذلاننا وارتدادنا، وفيه تسليم للإدارة المغيبة، والعلم المحيط، فإن القلوب بيد الله يقبلها كيف يشاء. فإن قلت: هو معصوم فلا يصح فيه العود؟ قاله أدبًا مع الربوبية، واستسلامًا لقهر الألوهية، كقول نبينا صلى الله عليه وسلم " يا مُقَلَّبَ القُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ " { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } أي: أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم، { على الله توكلنا } في أن يثبتنا على الإيمان، ويخلصنا من الإشراك. { ربنا افتح بيننا } أي: احكم بيننا { وبين قومنا بالحق } بالعدل، بتميز المحق من المبطل، { وأنت خير الفاتحين } أي: الفاصلين.

{ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا } وتركتم دينكم { إنكم إداً } أي: إذا اتبعتموه { لخاسرون }؛ لاستبدالكم ضلالتة بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم من البخس والتطفيف. { فأخذتهم الرجفة } أي: الزلزلة. وفي سورة الحجر.

{ الصيحة } ، ولعلها كانت من مبادئها، { فأصبحوا في دارهم } أي: في مدينتهم { جاثمين } باركين ميتين.

{ الذين كذَّبوا شعيبًا كأن لم يَعتُوا فيها } أي: استؤصلوا كأنهم لم يقيموا فيها ساعة. { الذين كذَّبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين } دينًا ودُنْيَا، بخلاف الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا؛ فإنهم الراجحون، ولأجل التنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول، واستأنف الجملتين وأتى بهما اسميتين.

فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم { ، قاله بعد هلاكهم، تأسفًا عليهم، ثم أنكر على نفسه فقال: { فكيف آسى على قومٍ كافرين { ليسوا أهلًا للحنن عليهم، لاستحقاقهم ما نزل بهم.

الإشارة: يؤخذ من قوله: { ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها { أن إقامة الشرائع، وظهور الدين من علامة إصلاح الأرض وبهبتها، وخصبها وعافيتها، وترك الشرائع وظهور المعاصي من علامة فساد الأرض وخرابها. ويؤخذ من قوله: { ولا تقعدوا بكل صراط... { الآية، أن حض الناس على الإيمان ودلاتهم على الله من أفضل القربات عند الله، وأعظم الوسائل إلى الله.

ويؤخذ من قوله: { وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله { أن الإنسان لا يقف مع ظاهر الوعد والوعيد، ولعل الله تعالى علق ذلك الوعد أو الوعيد بشروط وأسباب أخفاها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطرابه، ولا يكون مع غير الله قراره. وفي بعض الآثار القدسية: " يا عبدي لا تأمن مكري وإن أمنتك، فعلمي لا يحيط به محيط " والله تعالى أعلم.

@ { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيِّ إِلَّا إِحْدَاثًا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَآءِ لَعَلَّهُمْ يَصَّرَعُونَ } * { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتَنَا الصَّرَآءُ وَالسَّرَآءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } * { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } * { أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ } * { أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا صُحَّىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ } * { أَقَامِنَا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وما أرسلنا في قرية من نبي { أي: رسول { إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء { أي: بالبؤس والضر، كالقحط والأمراض، { لعلمهم يصترعون { أي: يتضرعون ويتذللون، { ثم بدلنا مكان { الحالة { السيئة { الحالة { الحسنة { أي: أعطيناهم، بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة، السلامة والسيعة، { حتى عَفَوْا { كثروا عَدَدًا وَعُدَدًا، يقال: عفا النبات: إذا كثر، ومنه: " اعفوا للحي " { وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء {؛ كَفَرًا لنعمة الله عليهم، ونسيانًا لذكره، واعتقادًا بأنه من عادة الدهر يتعاقب في الناس بين السراء والضراء، فقد مس آباءنا منه شيء مثل ما مسنا، { فأخذناهم بَغْتَةً { فجأة { وهم لا يشعرون { بنزول العذاب.

{ ولو أن أهل القرى { المتقدمة في قوله: { وما أرسلنا في قرية من نبي { وقيل: مكة وما حولها. وقيل: مطلقًا، { آمنوا واتقوا { مكان كفرهم وعصيانهم، { لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض {؛ لَوْسَعْنَا عَلَيْهِمُ الْخَيْرَ، ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد: المطر والنبات. { ولكن كذبوا { بالرسول، وكفروا النعم، { فأخذناهم بما كانوا يكسبون { من الكفر والمعاصي.

{ أقامِنَ أهل القرى { أي: أبعد ذلك أمن أهل القرى { أن يأتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ }؟ أي: ليلاً، في حال نومهم. { أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا } أيضًا { صُحَّىٰ }؛ ضحوة النهار { وهم يلعبون { من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم، { أَقَامِنَا مَكَرَ اللَّهِ } وهو أن يستدرجهم بالنعم حتى يأخذهم بغتة؟

{ فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون } الذين خسروا أنفسهم، بترك النظر والاعتبار، حتى هلكوا، فلم ينفعهم حينئذٍ الندم.

الإشارة: إظهار المِحْنِ والمِثْنِ وتعاقبهما على الإنسان، حكمتها: الرجوع إلى الله، وتضرع العبد إلى مولاه، فمن فعل ذلك كان معتمداً عليه في الحالتين، مغترفاً من بحر المنة بكلتا اليدين، ومن نزلت به المحن ثم أعقبته لطائف المنن، فلم يرجع إلى مولاه، ولا شكره على ما خوله من نعماه، بل قال: هذه عادة الزمان؛ يتعاقب بالسراء والضراء على الإنسان، فهذا عيد منكم في غفلته، قد اتسعت دائرة حسه، وانطمست بصيرة قدسه، يصدق عليه قوله تعالى:
{ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }
[الأعراف:179].

وقال القشيري في قوله تعالى: { ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا... } الآية: أي: لو آمنوا بالله واتقوا الشرك { لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض } بأسباب العطاء، فإن سَبَقَ بخلافه القضاء فابواب الرضا، والرضا أتم من العطاء. ويقال: ليس العبرة بالنعمة؛ العبرة بالبركة في النعمة. هـ.

قوله تعالى: { ولكن كذبوا } أي: شكوا في هذا الوعد فلم يتقوا بالإيمان والتقوى حتى يتركوا الأسباب، والشاك في الصادق المصدوق مكذب. وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: للناس أسباب، وسببنا الإيمان والتقوى، ثم تلا هذه الآية: { ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا... } الآية، وقد تقدم عند قوله: { الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } [الأنعام:82]. ما يتعلق بالأمن من مكر الله.

@ { أَوْلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَتَطْبَعُ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ قَهْمٌ لَا يَسْمَعُونَ } * { تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَيْنَا قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } * { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ }

قلت: { أن لو نشاء } " أن " مخففة، وهي وما بعدها: فاعل { يهد } أي: أو لم يتبين لهم قدرتنا على إهلاكهم لو نشاء ذلك؟ وإنما عدى " يهدي " باللام؛ لأنه بمعنى يتبين، و { تطبع } استئناف، أي: ونحن نطبع على قلوبهم.

يقول الحق جل جلاله: { أو لم يهد } أي: يتبين { للذين يرثون الأرض من بعد أهلها } أي: يخلفون من قبلهم ويرثون ديارهم وأموالهم، { أن لو نشاء أصبأهم } أي: أهلكتناهم { بذنوبهم } بسبب ذنوبهم، كم أهلكتنا من قبلهم، لكن أمهلناهم ولم نهملهم، { و } نحن { تطبع على قلوبهم } بالغفلة والانهماك في العصيان، { فهم لا يسمعون } سماع تدبر واعتبار.

{ تلك القرى } ، التي قصصنا عليك آنفاً، { نقص عليك من أنبائها } من أخبارها، أي: بعض أخبارها، ولها أبناء غيرها لا نقصها عليك { ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات } { بالمعجزات، } { فما كانوا ليؤمنوا } عند مجيئهم، بها { بما كذبوا من قبل } {

مجيئها، يعني: أن ظهور المعجزات لم ينفعهم، بل الشئ الذي كذبوا به قبل
مجيئها، وهو التوحيد وتصديق الرسل؛ استمروا عليه بعد مجيئها.

أو: { فما كانوا ليؤمنوا } مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً، حيث جاءتهم الرسل،
فلم تؤثر فيهم دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة. { كذلك يطبع الله على قلوب
الكافرين } فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

{ وما وجدنا لأكثرهم } أي: لأكثر أهل القرى { من عهدٍ } ، بل جُلُّهم نقصوا ما
عُهدناهم عليه من الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، { وإن وجدنا
أكثرهم } أي: علمناهم { لفاسقين } ، و " إن " مخففة، واللام: فارقة.

الإشارة: ينبغي لمن فتح الله بصيرته أن ينظر بعين الاعتبار فيمن سلف قبله،
كيف تركوا الدنيا ورحلوا عنها، ولم يأخذوا منها إلا ما قدموا أمامهم؟ قدّموا على
ما قدّموا، وندموا على ما خلفوا، ولم ينفعهم الندم وقد زلت بهم القدم، فالدهر
خطيب يُسمع الفاصي والقريب، وهو ينادي بلسان فصيح، عادلاً عن الكتابة إلى
التصريح، قائلاً: أمّا حصلَ لكم الإنذار؟ أمّا كفاكم ما تشاهدون في الاعتبار؟ أين
من سلف قبلكم؟. أو ما كانوا أشد منكم أو مثلكم؟ قد نما ذكرهم وعلا قدرهم،
وخسف بعد الكمال بدرهم، فكأنهم ما كانوا، وعن قريب مضوا وبانوا، أفضوا إلى
ما قدموا، وانقادوا قهراً إلى القضاء وسلموا، فيا أيها الغافلون، أنتم بمن مضى
لاحقون، ويا أيها الباقون؛ أنتم إليهم تساقون، قضاءً مبرم، وحُكم ملزم، ليس
عند محيد لأحد من العبيد.

@ { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَيَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ كَيْفَ قَانِظُرُ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ثم بعثنا } من بعد الرسل المتقدمين { موسى } بن
عمران { بآياتنا } : بمعجزاتنا الدالة على صدقه، { إلى فرعون وملائه فظلموا بها
{ أي: طغوا بسببها، وزادوا عتواً على عتوهم، { فانظر كيف كان عاقبة المفسدين
{ كيف غرقوا عن آخرهم، وأكلهم البحر.

الإشارة: إذا أراد الله - تعالى - أن يهلك قومًا بعث إليهم من يُذكرهم، فإذا زادوا
في العتو والطغيان عاجلهم بالعقوبة. ذكر الشعراني: أن مدينة بالمشرق صنعوا
وليمة يتنزهون فيها، فخرجوا إلى بستان، فلما صنعوا الطعام دخل عليهم فقير،
فقال: أعطوني، فأعطوه، ثم قال: أعطوني فزادوه، ثم قال أعطوني، فجروه حتى
أخرجوه، فأرسل عليهم من أخرجهم من تلك المدينة وخربها، فهي خربة إلى
اليوم. سبحان المدير الحكيم الواحد القهار!

@ { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } * { حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا
أَقُولَ عَلَيَّ اللَّهُ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }

قلت: من قرأ: (عليّ)؛ بشد الياء، فحقيق: مبتدأ، و (عليّ): متعلق به، و (ألاّ
أقول): خبره، أي: حقيق عليّ قول الحق. ومن قرأ: { عَلَيَّ }؛ بالتخفيف، فحقيق:
صفة لرسول، و (على): حرف جر، و (ألاّ أقول): مجرور، أي: إني رسول حقيق

على قول الحق، وعدّاه بعلی؛ لتضمنه معنى حريص، أو تكون (على) بمعنى الباء أي: حقيق بقول الحق، وقد يبقى على أصله لأمن الالتباس؛ والمعنى: حقيق على قول الحق أنا أكون أنا قائله، لا يرضى إلا مثله ناطقًا به. انظر البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقال موسى يا فرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمين حَقِيقٌ } واجب { علي أن لا أقول على الله إلا الحقَّ }؛ لأنني معصوم من النطق بغيره، فإن كذبتني فقد { جئتكم ببينة من ربكم } أي: بمعجزة واضحة، تدل على صدقي، وهي العصا: { فأرسل معي بني إسرائيل } أي: فخل سبيلهم، حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة: التي هي وطنُ آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال الشاقة؛ وذلك أنه لما تُوفي يوسف عليه السلام غلب عليهم فرعونُ واستعبدهم حتى أنقذهم الله على يد موسى، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى رسولاً إلى فرعون: أربعمئة عام.

@ { قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } * { فَالْقَا عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ } * { وَتَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ } * { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لِسَاحِرٌ غَلِيمٌ } * { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } * { قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ } * { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ غَلِيمٍ } *

قلت: يقال: أرجأ، بالهمز، يرجىء بمعنى آخر؛ فمن قرأ بالهمزة فعلى الأصل، ومن قرأه بغير الهمزة فيحتمل أن يكون بمعنى المهموز، وسهلت الهمزة، أو يكون بمعنى الرجاء، أي: أطعمه، وأما ضم الهاء وكسرهما فلغتان، وأما إسكانها فلغة؛ أجرى فيها الوصل مجرى الوقف. وقد تتبع البيضاوي توجيه القراءات، فانظره إن شئت.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قال } فرعون لموسى عليه السلام: { إن كنت جئت بآية } من عند من أرسلك، كما ذكرت، { فأت بها } وأحضرها ليثبت بها صدقك { إن كنت من الصادقين } في دعواك، { فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين } أي: ظاهر أمره، لا يشك في أنه ثعبان، وهي الحية العظيمة.

رُوي أنه لما ألقاها صار ثعبانًا أشعر، فأعترأ فاه، بين لحييه ثمانون ذراعًا، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون، فهرب منه وأحدت، وانهزم الناس مُزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، وصاح فرعون: يا موسى، أنشدك الذي أرسلك هذه، وأنا أومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصا. قاله البيضاوي.

ثم أظهر له معجزة أخرى: { وتَرََعَ يَدَهُ } من جيبه، أو من تحت إبطه، { فإذا هي بيضاءٌ للناظرين } أي: بيضاءً بياضًا خارجًا عن العادة، يجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار، لا أنها كانت بيضاء في خلقها، بل كانت شديدة الأدمة كلون صاحبها. رُوي أنه كان شديد الأدمة فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه، ثم نزعها، فإذا هي بيضاء نورانية، غلب شعاعها شعاع الشمس.

{ قال الملاء من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم } ، قيل: هو وأشراف قومهم، على سبيل المشاورة في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء، وعنهم هنا، أو قاله هو ووافقوه عليه، كعادة جلساء الملوك مع أتباعهم. { يريد أن يُخرجكم من أرضكم } بالحيل، أو بالقتال، أو بإخراج بني إسرائيل، وكانوا خدامًا لهم، فتخرب البلد من بعدهم، لأنهم خدامها وعمارها. قال فرعون: { فماذا تأمرون } أي: تُشيرون عليّ أن أفعل؟ { قالوا أرحه } أي: أخره { وأخاه } أي: أخرهما حتى تنظر في أمرهما، وقيل: أمره بسجنهما، { وأرسل في المدائن } أي: مدائن عمالتك { حاشرين } يحشرون لك السحرة، { يأتوك بكل ساحر عليم }.

@ { وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } * { قَالَ تَعْمَ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } * { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْقِيَ وَإِنَّا أَن نَكُونُ نَحْنُ الْمُغْلِبِينَ } * { قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ } * { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } * { فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } * { فَعَلَبُوا هَتَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } *

قلت: من قرأ: (إن) بهمزتين، فهو اسم استفهام، ومن قرأ بهمزة واحدة، فيحتمل أن يكون خبرًا، كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، أو استفهامًا حُذفت منه الهمزة، والتنكير للتعظيم، واستأنف الجملة، كأنها جواب عن سائل قال: فماذا قالوا إذ جاؤوا؟ قالوا: إن لنا لأجرًا... الخ، و(إنكم): عطف على ما سد مسده نعم، من تمام الجواب، كأنه قال: نعم نعطيكم الأجر ونقربكم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وجاء السحرة فرعون } بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم، { قالوا } لما وصلوا إليه: { إن } { أن } { لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين } لموسى؟ { قال نعم } { إن لكم أجرًا } { وإنكم لمن المقربين } إليّ. فأنعم لهم بالأجر، وزادهم التقريب منه والجاه عنده؛ تحريصًا لهم. واختلف في عدد السحرة اختلافًا متباينًا، من سبعين رجلًا إلى سبعين ألفًا، وكل ذلك لا أصل له في صحة النقل.

ولمّا خرجوا إلى الصحراء لمقابلته { قالوا يا موسى إما أن تُلقني وإما أن نكون نحن الملقين }؛ خيروا موسى مراعاةً للأدب، وإظهارًا للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلقوا قبله، ولذلك عبّروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقاءهم بالجملة الاسمية، وفيه إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. ولذلك أسعفهم، { قال ألقوا } أسعفهم كرمًا ومسامحة وازدراءً بهم، { فلما ألقوا سحروا أعين الناس } ، بأن خيلوا إليها خلاف ما في حقيقة الأمر، { واسترهبوهم } أي: خوفوهم بما أظهرها لهم من أعمال السحر، { وجاؤوا بسحر عظيم } في قته. روي أنهم ألقوا حبالًا غلاظًا، وخشبًا طويلاً، كأنها حيات، ملأت الوادي، وركب بعضها بعضًا.

{ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك } ، فألقاها، فصارت ثعبانًا عظيمًا، على قدر الجبل، وقيل: إنه طال حتى جاوز النيل، { فإذا هي تَلْقَفُ } أي: تتلعق { ما يَأْفِكُونَ } ما يَزْوُزُونَهُ من إفكهم وكذبهم، روي أنها لما ابتلعت حبالهم وعصيهم، وكانت ملأت الوادي، فابتلعتها بأسرها، أقبلت على الحاضرين، فهربوا وازدحموا

حتى هلك منهم جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصًا كما كانت، فقال السحرة: لو كان هذا سحرًا لبقيت حبالنا وعصينا.

{ فوقَ الحقُّ } أي: ثبت بظهور أمره، { وَبَطَلَ ما كانوا يعملون فَعُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين } أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو انقلبوا إلى المدينة مَقهورين.

@ { وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } * { قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } * { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } * { قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلِهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } * { لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } * { قَالُوا إِنَّا إِلَها رَبَّنَا مُنْقَلِبُونَ } * { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا رَبَّنَا أَفَرغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وألقى السحرة } على وجوههم { ساجدين } لما عرفوا الحق وتحققوا به، فأمنوا؛ لأن الحق بهرهم، واضطرهم إلى السجود بحيث لم يتمالكوا، أو ألهمهم الله ذلك وحملهم عليه، حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسف موسى، وينقلب الأمر عليه.

{ قالوا آمنا برَّبِّ العالمين ربِّ موسى وهارون } أبدلوا الثاني من الأول؛ لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون. { قال فرعونُ آمَنْتُمْ بِهِ } أي: بالله أو بموسى، { قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكْرٌ مكْرْتُمْوه } أي: إن هذه لحيلة صنعتموها أنتم وموسى { في المدينة }؛ في مصر، ودبرتموها قبل أن تخرجوا للميعاد؛ { لِخُرُوجِها مِنْها أَهْلِها } أي: القبط، وتخلص لكم ولبنِي إسرائيل، { فسوف تعلمون } عاقبة ما صنعتم.

ثم فصل ما هددهم به، فقال: { لأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ } من كل شق عضو، كَيْدٍ ورجل من كل واحد { ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } تفضيخًا لكم وتنكيلًا لأمثالكم، وليس في القرآن أنه أنفذ ذلك، ولكن رُوي عن ابن عباس وغيره أنه فعله. قيل: إنه أول من سنَّ ذلك - أي: القطع من خلاف - فشرعه الله للقطاع تعظيمًا لجرمهم، فلذلك سماه الله محاربة لله ورسوله.

{ قالوا } أي: السحرة لما خوفهم: { إِنَّا إِلَها رَبَّنَا مُنْقَلِبُونَ } بالموت، فيكرّم مئونًا، فلا تُبالي بوعيدك، كأنهم اشتاقوا إلى اللقاء، فهان عليهم وعيده، أو إنا وأنت إلى ربنا منقلبون، فيحكم بيننا وبينك، { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } أي: وما تعيب علينا { إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا }، وهو لا يعاب عند العقلاء، لأنه خير الأعمال، وأصل المناقب ومحاسن الخلال، ثم فرغوا إلى الله فقالوا: { رَبَّنَا أَفَرغَ عَلَيْنَا صَبْرًا } أي: اصعب علينا صبرًا يغمرنا، كما يُفرغ الماء على الشيء فيغمره، { وتوفنا مسلمين } ثابتين على الإسلام. قال البيضاوي: قيل إنه فعل بهم ذلك، وقيل: إنه لم يقدر عليه، لقوله:

{ أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْمُ الْعَالِبُونَ }

[القَصَص: 35]. هـ. وقد تقدم قول ابن عباس وغيره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: انظر من سبقت له العناية، هؤلاء السحرة جاؤوا يُجادون الله فأمسوا أولياء الله، فكم من خصوص تخرج من اللصوص، وانظر أيضًا صبرهم وثباتهم على دينهم، وعدم مبالاتهم بعدوهم، هكذا ينبغي أن يكون من مراده مولاه، لا

يلتفت إلى شيء سواه، وعند هذه التصرفات يفتضح المُدَّعُونَ ويثبت الصادقون، عند الامتحان يعز المرء أو يُهان.

@ { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَدَرَكَ وَإِلَيْكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } * { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } * { قَالُوا أَوِذْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقال الملأ من قوم فرعون أتدّر موسى وقومه { أي: تتركهم يخالفون دينك { لُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } أي: يخربوا ملكك بتغيير دينك ودعوتهم إلى مخالفتك، { وَبَدَرَكَ وَإِلَيْكَ } أي: يترك موسى دينك ومعبوداتك التي تعبد، قيل: كان يعبد الكواكب، وقيل: صنع لقومه أصنامًا وأمرهم أن يعبدوها تقريبًا إليه. ولذلك قال: { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى }

{ النَّازِعَات: 24}. قال فرعون في جوابهم: { سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ } أي: ذكورهم { ونستحي نساءهم } أي: بناتهم، كما كنا نفعل من قبل، لُيَعْلَمُ أَنَّا عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ، وَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ الْمَوْلُودُ الَّذِي حَكَمَ الْمُنْجَمُونَ وَالْكَهَنَةُ بِذَهَابِ مَلِكِنَا عَلَى يَدَيْهِ. { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } غالبون، وهم مقهورون تحت أيدينا.

{ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا } ، قاله تسكينًا لهم حين سمعوا قول فرعون وما هددهم به، ثم قال لهم: { إن الأرض لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } وسيورثها لكم إن صبرتم وأمنتم. { والعاقبة للمتقين } ، فتكون العاقبة لكم إن اتقيتم، وهو وعدٌ لهم بالنصر والعز، وتذكير بما وعدم من إهلاك القبط وتوريتهم ديارهم وملكهم.

{ قالوا } أي: بنوا إسرائيل: { أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا } بقتل الأبناء، { ومن بعد ما جئتنا } بإعادته، فلم يرتفع عنا الذل بمجئك، { قال عسي ربكم أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ } ، تصريحًا بما كُتِبَ عَنْهُ أَوَّلًا، لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بحرف الطمع، أي: الترجي؛ لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم، أو أولادهم، وقد رُوِيَ أَنَّ مِصْرَ إِنَّمَا فَتِحَ لَهُمْ فِي زَمَنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ الْبَيْضاوِي. { فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } أي: فإذا استخلفكم يرى ما تعملون من شكر أو كفران، أو طاعة أو عصيان، فيجازيكم على حسب ما يُوجَدُ مِنْكُمْ مِنْ كَفَرٍ أَوْ إِحْسَانٍ.

الإشارة: ما وقع للأنبياء مع قومهم وقع مثله لأشياخ هذه الأمة وفقرائها مع أهل زمانهم، ولما كثرت الأحوال من الفقر أو خرق العوائد، وظهروا بتخريب ظواهرهم، وقعت بهم الشكاية إلى السلطان، وقالوا له: هؤلاء يخربون ملكك، فال على نفسه إن مكنه الله منهم لا يترك منهم أحدًا، فكفى الله بأسه، فاستعانوا بالله وصبروا، واشتغلوا بذكر الله، وغابوا عن سواه، فكانت العاقبة للمتقين.

@ { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } * { فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: عبّر في جانب الحسنة بإزاء المفيدة للتحقيق، وعبّر في الحسنة؛ لكثرة وقوعها، وعبّر في جانب السيئة بأن المفيدة للشك، ونكر السيئة لندورها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين { أي: بالجذب واليَقْطُ لقلة الأمطار والمياه، { ونقص من الثمرات { بكثرة العاهات، { لعلمهم يذكرون } أي: لكي ينتبهوا أن ذلك من شؤم كفرهم ومعاصيهم، ويتعظوا، وترق قلوبهم بالشدائد، فيفزعوا إلى الله، ويرغبوا فيما عنده.

{ فإذا جاءتهم الحسنة } ، من الخصب والسعة والرخاء، { قالوا لنا هذه { أي: قالوا: هذه لنا وللسعودنا، ونحن مستحقون له. { وإن تُصِيبهم سيئة { جذب وبلاء { يطَّيَّرُوا بموسى ومن معه { أي: يتشاءموا بهم، ويقولون: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة؛ فإن الشدائد تُرَقِّق القلوب، وتُذلل العرائك أي: الطبايع، وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهي لم تؤثر فيهم، بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي.

قال تعالى: { ألا إنما طائرهم عند الله { أي: سبب طائرهم وشهرهم عنده، وهو حكمه ومشيتته، أو سبب شؤمهم عند الله، وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقط إليهم ما يسؤوهم. قال ابن جزي: أي: حظهم ونصيبتهم الذي قدر لهم من الخير والنشر عند الله، وهو ماخوذ من زجر الطير، ثم سمي به ما يُصِيب الإنسان، ومقصود الآية: الرد عليهم فيما نسبوا إلى موسى من الشؤم. هـ، { ولكي أكثرهم لا يعلمون { أن ما يصيبهم من الله تعالى بلا واسطة، أو من شؤم أعمالهم.

الإشارة: هذه الخصلة جارية أيضاً في هذه الأمة، أعني التطاير، ترى العوام إذا نزل بهم بلاء أو شدة قالوا: بظهور هؤلاء وقع بنا ما وقع، ولقد سمعنا ممن حكى لي هذه المقالة عن العامة وقت ابتداء ظهور الفقراء، وذلك أنهم آذوهم أذى شديداً، فأرسل الله عليهم كثرة الأمطار كادت أن تكون طوفاناً، فقالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذه المرقعات التي ظهرت، ولم يدروا أن ذلك منهم لإذابتهم أهل الله. والله تعالى أعلم.

@ { وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِيَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْبَحَنَا بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ يَوْمَيْنِ } * { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالصَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا مُّجْرِمِينَ } * { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجُّ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجَّ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلْتُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } * { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَّ إِنَّا لِنَا أَجَلَ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَتَكَبَّرُونَ } * { فَإِن تَقَمَّنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } * { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْبَىٰ عَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ }

{ ولَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ } يعني: العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله عليهم بعد ذلك، { قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك } أي: بعهدك، وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. والمعنى: ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك من النبوة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، { لئن كشفت عنا الرجز } العذاب { لنؤمنن لك } أي: أقسمنا بعهد الله لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك { ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل } كما طلبت، قال تعالى: { فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه } إلى حد من الزمان هم بالغوه ثم يهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت، وقيل: إلى أجل عينوه لإيمانهم، { إذا هم ينكتون }؛ جواب " لَمَّا " أي: فلما كشفنا عنهم جاؤوا بالنكت من غير تأمل ولا توقف، { فانتقمنا منهم } أي: فأردنا الانتقام منهم، { فأغرقناهم في اليم } أي: البحر الذي لا يدرك قعره أو لجته، { بأنهم } أي: بسبب أنهم { كذَّبوا بآياتنا } التي أرسلناها عليهم. { وكانوا عنها غافلين } أي: أغرقناهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها.

{ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون } بالاستعباد وذبح الأبناء { مشارق الأرض ومغاربها } يعني: أرض الشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكنوا من نواحيها { التي باركنا فيها } بالخصب وسعة العيش، وهي أرض الشام. وزاد ابن جزي: ومصر.

{ وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: نفذت ومضت واستقرت، والكلمة هنا: ما قضى في الأزل من إنقاذهم من عدوهم، وقيل: قوله: { وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ } [القصص:5] وكانت حسنى؛ لما فيها من النصر والعز، { بما صبروا } أي: بسبب صبرهم على الشدائد { ودمرنا } أي: خربنا { ما كان يصنع فرعون وقومه } من القصور والعمارات، { وما كانوا يعرشون } من البنيان المرتفع كصرح هامان، أو ما كانوا يرفعون من الكروم في البساتين على العرشان، فالأول من العرش والثاني من العريش.

الإشارة: قد جرت عادة الله في خلقه أن يظهر الخواص من عباده، فيُنكَرُوا أو يستضعفوا، حتى إذا طهروا من البقايا وتمكنوا من شهود الحق، منَّ الله عليهم بالعز والنصر والتمكين، فمنهم من يمكن من التصرف في الحس والمعنى، ويقره الوجود بأسره، ومنهم من يمكن من التصرف في الكون بهمته، ولكنه تحت أستار الخمول، لا يعرفه إلا من اصطفاه لحضرته، وهذا من شهداء الملكوت، صنَّ به الحق تعالى فلم يظهره لخلق. والله تعالى أعلم وأحكم.

@ { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَيْنَا فَمَنْعُومَ يَعْكُفُونَ عَلَيْنَا أَصْنَامَ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا آلِهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } * { إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } * { قَالَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } * { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوتُكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }

يقول الحق جلَّ جلاله: { وجاوزنا بني إسرائيل البحر } قطعنا بهم { البحر } ، روي أنهم عبروه يوم عاشوراء، بعد مهلك فرعون، فصاموه شكراً، { فأتوا على قوم } أي: مروا على قوم من العمالقة، وقيل: من لخم، { يعكفون على أصنام

لهم { أي: يقيمون على عبادتها، قيل: كانت تماثيل البقر، وذلك أول شأن عبادة العجل، وهؤلاء القوم، قيل: هم الجبازون الذين أمر موسى بقتالهم بعد وصوله إلى الشام، ولما رآهم بنو إسرائيل { قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا } أي: مثلاً نعبد { كما لهم آلهة } يعبدونها، { قال } لهم موسى عليه السلام: { إنكم قوم تجهلون } ، وَصَفَهُم بِالْجَهْلِ الْمَطْلُوقِ، وَأَكَدَهُ بِإِنْ؛ لُبَّعْدَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ، بَعْدَ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى.

قال البيضاوي: ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله تعالى عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام، تسليّةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرى منهم ويلقى من التشغيب، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. هـ. وذكر في " القوت " أن يهوديًا قال لعلي رضي الله عنه: كيف اختلفتم وضررتم وجوه بعضكم بالسيف، وبنيتكم قريب عهد بكم؟ فقال: أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم: { اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة } . هـ.

ثم قال لهم موسى رضي الله عنه: { إن هؤلاء مُتَّبِرٌ } : مدمر هالك { ما هم فيه } يعني: أن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم فيه، ويحطم أصنامهم ويجعلها رصاصًا. { وباطلٌ } مضمحل { ما كانوا يعملون } من عبادتها، وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا. { قال أغير الله أبغيتكم } أطلب لكم { إلهًا } أي: معبودًا { وهو فضلكم على العالمين } أي: والحال أنه قد خصكم بنعم لم يُعطيها غيركم، وفيه تنبيه على سوء مقابلتهم حيث قابلوا تخصيص الله لهم بما استحقوه تفضلاً، بأن قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته وأبلده، وهو البقر.

{ وإذ أنجيناكم من آل فرعون } أي: واذكروا صنعه معكم في هذا الوقت حيث نجاكم من فرعون ورهطه { يسوموتكم } أي: يذيقونكم { سوء العذاب } ، ثم بيّنه بقوله: { يقتلون أبناءكم } ذكورهم { ويستحيون نساءكم } أي: بناتكم، { وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم } أي: وفي ذلك القتل امتحان عظيم، أو في ذلك الإنجاء نعمة عظيمة وامتتان عظيم.

الإشارة: من جاوز بحر التوحيد وحاد عنه، ولم يغرق فيه، لا يخلو من طلب شرك جلي أو خفي؛ لأن النفس ما دامت لم تغرق في بحر الوحدة، ولم تسبها جمال المعاني، قطعاً تميل إلى شيء من جمال الحس، لأن الروح في أصلها عشاق، إن لم تعشق جمال الحضرة تعشق جمال الحس، ومن ركن إلى شيء مما سوى الله فهو شرك عند الموحدين من المحققين، ويؤخذ من الآية أن شكر النعم هو تلخيص التوحيد، وانفراد الوجهة إلى الله تعالى؛ لأن بني إسرائيل لما أنعم الله عليهم بالإنجاء وقلق البحر قابلوا ذلك بطلب الشرك، فسقطوا من عين الله واستمر ذلهم إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

@ { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأُثْمَمَهَا يَعْشِرُ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وواعدنا موسى }؛ لإنزال الكتاب { ثلاثين ليلة } من ذي القعدة، { وأتمناها بعشر } من ذي الحجة، { فتمَّ ميقاتُ ربه } بالغا { أربعين ليلة }، رُوي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل، بمصر، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليه عشرا، ثم أنزل عليه التوراة.

{ وقال موسى لأخيه هارون }، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة: { أخلفني في قومي } أي: كن خليفتي فيهم { وأصلح } ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحا، { ولا تتبع سبيلَ المفسدين } أي: لا تتبع سبيل من يسلك الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

الإشارة: كل من انقطع إلى الله تعالى بكلية واعتزل عن الخلق، وأخلى قلبه عما سوى الحق، حصلت له المناجاة والمكالمة، كما وقعت للكليم عليه السلام، وكل ما منحه الله للأنبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة، والله تعالى أعلم. وفي الحديث: " مَنْ أَخْلَصَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَتَابِعُ الْحِكْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ "

قال بعض الحكماء: والسر في ذلك أن الله تعالى أمر بطينة آدم فخمرت في الماء أربعين يومًا، فترى فيها أربعون حجابًا، فلولا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض، فمن أيده الله على زوالها تشبه بالملأ الأعلى، وخرقت له العوائد، وأشرق النور من قلبه. ولهذا المعنى بقي داود عليه السلام ساجدًا أربعين يومًا، فقبلت توبته، ومكث إبراهيم عليه السلام في نار النمرود أربعين يومًا، فاتخذة الله خليلًا، وكان بعد ذلك يقول: ما رأيت أحلى من تلك الأيام، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيًا. قال تعالى: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } [آل عمران: 79]. انظر الشطبي.

ويؤخذ من الآية أن الشيخ إذ أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية، إذ لا خير في قوم ليس فيهم من يعظمهم في الله. وبالله التوفيق.

@ { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرُ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَٰكِنِ نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { ولما جاء موسى لميقاتنا } الذي وقتنا له { وكلمه ربه } من غير واسطة كما يكلم الملائكة. وفيما رُوي: أنه كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وفيه تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. قاله البيضاوي. وقال الورتجي: أي أسمع عجائب كلامه كليمه ليعرفه بكلامه؛ لأن

كلامه مفاتيح كنوز الصفات والذات. هـ. وقال ابن جزي: لما سمع موسى كلام الله طمع في رؤيته، فسألها، كما قال الشاعر:

وأبرخ ما يَكُونُ الشَّوْقُ يَوْمًا
{ قال ربّ أرني أنظر إليك } أي: أرني نفسك أنظر إليك، بأن تكشف الحجب عني، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة، كما أسمعني كلامك من غير واسطة. قال البيضاوي: وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة؛ لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصًا ما يقتضي الجهل بالله، ولذلك رده بقوله تعالى: { لن تراني } دون لن أرى ولن أريك، ولن تنظر إليّ، تنبيهًا على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على حال في الرائي، لم توجد فيه بعد، وجعل السؤال لتبكيث قومه الذين قالوا:

{ أرتا الله جَهْرَةً }
[النساء:153] خطأ، إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبههم، كما فعل بهم حين قالوا:

{ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا }
[الأعراف:138]، والاستدلال بالواجب على استحالتها أشد خطأ، إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته أيّاه على أنه لا يراه أبدًا، وألا يراه غيره أصلًا، فضلًا عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة فيه مكابرة وجهالة بحقيقة الرؤية. هـ.

وهو تعريض بالزمخشري وردُّ عليه، فإنه أطلق لسانه في أهل السنة - عفا الله عنه -، والتحقيق: أن رؤيته تعالى برداء الكبرياء - وهي أنوار الصفات - جائزة واقعة -، وأما رؤية أسرار الذات - وهي المعاني الأزلية، التي هي كنه الربوبية - فغير جائزة؛ إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلّت، ولعل هذا المعنى هو الذي طلب سيدنا موسى عليه السلام، فلذلك قال له: { لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه } عند تجلي هذه الأسرار له، { فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل } أي: أظهر له شيئًا من أنوار الربوبية التي هي أسرار المعاني الأزلية، { جعله دكًا } أي: مذكوكًا مفتتًا، والدك والدق واحد، وقرأ حمزة: " دكاء " بالمد، أي: أرضًا مستوية، ومنه: ناقة دكاء لا سمن لها. { وخرّ موسى صعقًا } مغشيًا عليه من هول ما رأى، { فلما أفاق قال } تعظيمًا لما رأى: { سبحانك ثبت إليك } من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن، وقال بعضهم: ثبت إليك من عدم الاكتفاء بقوله: { لن تراني } حتى نظر إلى الجبل، { وأنا أول المؤمنين } أنك لا تُرى بلا واسطة نور الصفات، أو أول أهل زماني إيمانًا.

الإشارة: رؤية الحق جائزة واقعة عند الصوفية في الدارين، ولكن لا ينالها في هذه الدار إلا خواص الخواص، ويُعبّرون عنها بالشهود والعيان، ولا يكون ذلك إلا بعد الفناء، وفناء الفناء بعد موت النفس وقتلها، ثم الغيبة عن حسها ورسمها، تكون بعد التهذيب والتدريب والتربية على يد شيخ كامل، لا يزال يسير به ويقطع به في المقامات، ويغيبه عن نفسه ورؤية وجوده، حتى يقول له: ها أنت وربك، وذلك أن الحق جل جلاله تجلّى لعباده بأسرار المعاني خلف رداء الأواني، وهو حس الأكوان، فأسرار المعاني لا يمكن ظهورها إلا بواسطة الأواني، أو تقول: أسرار الذات لا تظهر إلا في أنوار الصفات، فلو ظهرت أسرار الذات بلا واسطة لاضمحلّت الأشياء واحترقت، كما في الحديث: " جَابُؤُ النَّوْرِ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ".

فالمراد بالنور نور الصفات، وهو الأواني الحاملة للمعاني، لو كشف ذلك النور حتى تظهر أسرار الذات لأحرق كل شيء أدركه بصره. والواسطة عند المحققين هي عين عين الموسوط، فلا يزال المرید يفنى عن عين الواسطة في شهود الموسوط حتى يغيب عن الواسطة بالكلية، أو تقول: لا يزال يغيب عن الأواني بشهود المعاني حتى تشرق شمس العرفان، فتغيب الأواني في ظهور المعاني، فيقع العيان على فقد الأعيان، " كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان " ، " ما حجبك عن الحق وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه " .

والحاصل: أن الحق تعالى تكون رؤيته أولاً بالبصيرة دون البصر، لأن البصيرة تدرك المعاني، والبصر يدرك الحسيات، فإذا انفتحت البصيرة استولى نورها على نور البصر، فلا يرى البصر حينئذٍ إلا ما تراه البصيرة. قال بعض العارفين: هذه المزية العظمى - وهي رؤية الحق تعالى - في الدنيا على هذا الوجه: خاص بخواص الأمة المحمدية - دون سائر الأمم - وراثه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم، فإنه خص بالرؤية دون غيره من الأنبياء. وإلى ذلك أشار ابن الفارض في تائيته، مترجماً بلسان الحقيقة المحمدية، حيث قال:

ودوتك بحرًا خُصنُهُ، وقَف الألي
ولا تقرُّبوا مالَ اليتيمِ إشارةً
لساجله، صوتًا لموضعِ حُرمتي
لكفَّ يدِ صُدَّت له، إذ تصدَّت
وما نالَ شيئًا منه غيري سوى فتى
على قَدَمي في القبض والبسطِ ما
فتى

قال شارحه القاشاني: أراد بهذا البحر: الرؤية التي مُنع منها موسى عليه السلام، وخص بها محمد - عليه الصلاة والسلام - وأفراد من أتباعه. ثم قال: ورد في الخبر: أنه لما أفاق موسى عليه السلام من صعقته قيل له: ليس ذلك لك، ذلك ليتيم يأتي من بعدك، ثم قال: سبحانك تبث إليك عما تعديت لما ليس لي، وأنا أول المؤمنين بتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بهذا المقام. وقيل في قوله: { فلما تجلى ربه للجبل } أي: جبل العقل، بحيث طمس نوره بنور شمس العرفان، وخر موسى صعقًا، أي: ذهب وجوده في وجود محبوبه، وحصل له الزوال في مكان الفناء والسكر، فلما أفاق ورجع إلى البقاء تمسك بمقام العبودية والأدب مع الربوبية فقال: { سبحانك تبث إليك } من رؤية جبل الحس قبل شهود نور المعنى، وأنا أول المؤمنين بأن نور المعاني خلف رداء الأواني، لا يدرك إلا بعد الصعقة، والله تعالى أعلم.

@ { قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } * { وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْقَاسِمِينَ } * { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً مِنْ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِيبِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } * { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قلت: الرُّشد والرَّشد: لغتان، قُرئ بهما.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قال يا موسى إني اصطفيتك { اخترتك { على الناس { الموجودين في زمانك، وهارون، وإن كان نبيًا، كان مأمورًا باتباعه، ولم يكن كليما ولا صاحب شرع. فقد اصطفيتك على أهل زمانك { برسالتي { لك إليهم، ومن قرأ بالجمع فالمراد: أوقات التبليغ بأنواع الأحكام أو أسفار التوراة، { و { خصصتك { بكلامي { ، وقد شاركه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع زيادة الرؤية، { فخذ ما آتيتك { أي: أعطيتك من الرسالة والتكليم، وأقنع بهما ولا تطلب غير ذلك، { وكن من الشاكرين { على هذه النعمة، وفيه نوع تأديب له. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وأعطاه التوراة يوم النحر.

قال تعالى: { وكتبنا له في الألواح من كل شيء { يحتاجون إليه { موعظةً { أي: تذكيرًا { وتفصيلاً لكل شيء { يتوقفون عليه في الأحكام والوعظ. واختلف في الألواح: هل كانت سبعة أو عشرة أو اثنين، وهل كانت من زمرد أو زبرجد أو ياقوت أحمر، أو خشب، أو صخرة صماء، شقها الله تعالى لموسى عليه السلام فقطعها بيده، وكان فيها التوراة.

قال تعالى لموسى عليه السلام: { فخذها { أي: الألواح أو الرسالة { بقوة { أي: بجد واجتهاد، { وأمر قومك يأخذوا بأحسنها { بأحسن ما فيها، فإن فيها ما هو حسن وأحسن منه؛ كالقصاص مع العفو، أو بواجباتها، فإن الواجب أفضل من

المندوب، وهذا كقولم في كتابنا: { وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ { [الرَّمَر: 55]، ويجوز أن يراد بالأحسن: البالغ في الحسن مطلقًا، لا بالإضافة إلى غيره، كقولهم: الصيف أحر من الشتاء، فيكون الأمر بأخذ كل ما فيها لأنه بالغ الحسن، ثم بشرهم بخراب ملك عدوهم، فقال: { سأريكم دار الفاسقين { أي: دار فرعون وقومه خاوية على عروشها، أي: أريكم كيف أقفرت منهم لما هلكوا، وقيل: منازل عاد وثمود ومن هلك من الأمم، لتعتبروا بها، وقيل: جهنم.

وقرأ ابن عباس: " سأورثكم " بالثاء المثلثة، كقوله: { وَأُورَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ { [الشعراء: 59].

{ ستأصرف عن آياتي { المنصوبة في الآفاق والأنفس الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا من عجائب المصنوعات فلا يتفكرون فيها، أو القرآن وغيره من الكتب، أصرف عنها { الذين يتكبرون في الأرض { بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون، ولا يؤمنون بها، عقوبة لهم على تكبرهم، وقيل: الصرف: منعهم من إبطالها وإطفاء نورها، وإن اجتهدوا، كما فعل فرعون وغيره، فعاد عليهم بإعلائها وإظهار نورها، وذلك التكبر صدر منهم { بغير الحق { أي: تكبروا بما ليس بحق، وهو دينهم الباطل.

{ وإن يروا كل آية { مُنزلةً أو معجزة { لا يُؤمنوا بها { لعنادهم، واختلال نظرهم، بسبب انهماكهم في الهوى وحب الجاه، { وإن يروا سبيل الرُّشد { أي: طريق الصواب والحق { لا يتخذوه سبيلًا { لاستيلاء الشيطان عليهم، { وإن يروا سبيل الغي { أي: الضلال { يتخذوه سبيلًا { أي: يسلكونه ويتبعونه، لأن سجيتهم الضلال، { ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين { أي: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم الآيات.

والذين كَذَّبُوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة { أي: وبلقائهم الدار الآخرة، أو: ما وعد الله في الآخرة، { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } لا ينتفعون بها، { هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي: لا يجزون إلا مقدار أعمالهم { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف:49].

الإشارة: كل من أقامه الله في مقام من المقامات، أو حال من الأحوال، كيفما كان، يقال له: خذ ما آتيتك، وأفنع بما أوليتك، وكن من الشاكرين عليه، وإلا سليناك ما أعطيناك، فالرضا بالقسمة واجب، وطلب باب الفضل والكرم لازب، والأمر مُبهم، والعواقب مُغيبية، ومنتهى المقام على التعيين لا يعلم إلا بعد الموت. وقوله تعالى: { فخذها بقوة } أي: بجد واجتهاد. قال في الإحياء: الأخذ بالجد أن يكون القارئ متجردًا لله عند قراءته، منصرف الهمة إليه عن غيره، وهو يشير للحضور.

وقول تعالى: { يأخذوا بأحسنها } قال الورتجبي: يأخذون بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية، ويأخذون بمتشابهها التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها، لأن علومها وحقائقها لا تكشف إلا للربانيين. قال تعالى:

{ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ... } [آل عمران:7] الآية. هـ. وقوله تعالى: { سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض }. قال القشيري: سأحرّم المتكبرين بركة الاتباع، حتى لا يتلقوا الآيات التي يُكاشِفُونَ بها بالقبول، ولا يسمعوا ما يُخَاطَبُونَ به بسمع الإيمان. هـ.

@ { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ } * { وَلَمَّا سَقَطَ فِيهَا أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } قلت: { عِجْلًا } مفعول أول لاتخذ، و { جسدًا } بدل منه، وحذف الثاني - أي: " إلهًا " - لدلالة أوله، و { له خوار } نعت له.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { واتخذ قوم موسى من بعده { أي: من بعد ذهابه للميقات، { من خُلَيْهِمْ } التي كانوا استعاروها من القبط، حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم؛ لأنها كانت تحت أيديهم، فصنع لهم منها السامري { عِجْلًا جسدًا } بلا روح، فالقى في جوفه من تراب أثر فرس جبريل، فصار { له خوار } ، فقال لهم: { هذا إلهكم وإله موسى } ، فعكفوا على عبادته، واتخذوه إلهًا.

قال تعالى: { ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً } أي: ألم يروا، حين اتخذوه إلهًا، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل، كأحاد البشر، حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر، وهذا تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر. قال تعالى: { اتخذوه } إلهًا { وكانوا ظالمين } في اتخاذهم، وضعوا الأشياء في غير محلها، أي: كانت عاداتهم الظلم، فلم يكن اتخاذ العجل بدعًا منهم.

{ ولما سُقِطَ في أيديهم }؛ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعرض يده غمًا، فتصير يده مسقوطةً فيها. أو يسقط رأسه، أي: يطأطؤها لبعض يده. وقال الدميامي: العرب تضرب الأمثال بالأعضاء، ولا تريد أعيانها، تقول للنادم: يُسقط في يده، وفي الدليل: رغم أنفه. هـ. أي: ولَمَّا ندموا على ما فعلوا، { ورأوا } { أي: علموا } أنهم قد ضلوا { باتخاذ العجل، { قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا { بالتجاوز عن خطيئتنا، { لنكوننَّ من الخاسرين { دنياً وأخرى.

الإشارة: كلٌّ مَن ركن إلى شيء وعكف على محبته من دون الله فهو في حقه عجل يعبد من دون الله، " ما أحببت شيئاً إلا وكنت عبداً له، وهو لا يحب أن تكون عبداً لغيره ". عافانا الله من ذلك.

@ { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَيْتُمُ الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَفْقُلُونِي فَلَا تَشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } * { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } * { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذُلٌّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ } * { وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا إِنَّ رَبَّكَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ }

الإشارة: { بئسما }؛ " ما " نكرة موصوفة: تمييز، تفسير للضمير المستكن في (بئس)، والمخصوص: محذوف، أي: بئس شيئاً خلفتموني خلافتكم هذه، و { ابن أم } { منادى مضاف، منصوب بفتحة مقدرة قبل ياء المتكلم، وأصله: ابن أمي، فحذفت الياء، وفتحت الميم تخفيفاً.

يقول الحقُّ جلُّ جلاله: { ولما رجع موسى { من ميقاته { إلى قومه غضبان { على قومه، { أسيفاً { أي: حزينا عليهم حيث ضلوا، { قال { لهم، أو لأخيه ومن معه من المؤمنين: { بئسما خلفتموني من بعدي { أي: من بعد انطلاقي إلى المناجاة، { أعجلتُم أمر ربكم { أي: أسابقتم قضاء ربكم ووعده، واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر فيه، أو أعجلتم عقوبة ربكم وإهلاكه لكم حيث عبدتم غيره.

{ وألقى الألواح }؛ طرحها من شدة الغضب حمية للدين، رُوي أن التوراة كانت سبعة أسفار في سبعة ألواح، فلما ألقاها انكسرت، فرفع ستة أسباعتها، وكان فيها تفصيل كل شيء، وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام، { وأخذ برأس أخيه }؛ بشعر رأسه { يجرُّه إليه }؛ توهماً في أنه قصّر في زجرهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين، وكان حمولاً لئباً، ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيل، ولما رأى هارون ما يفعل به أخروه { قال ابن أم }؛ ذكر الأم ليرققه، وكان شقيقاً له، { إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني } حين أنكرت عليهم، فقد بذلتُ جهدي في كفهم، وقهروني حتى قاربوا قتلي، فلم أقصّر، { فلا تُشمت بي الأعداء }؛ فلا تفعل بي ما يشمتون بي، أي: يستشفون بي لأجله، { ولا تجعلني مع القوم الظالمين } معدوداً في عدادهم بالمؤاخذه، أو نسبة التقصير.

{ قال { موسى: { رَبِّ اغْفِرْ لِي { ما صنعتُ بأخي، { ولأخي {؛ إن فَرَّطَ في كَفِّهِمْ، { وأدخلنا في رحمتك { بمزيد الإِنعام علينا، { وأنت أرحمُ الرَّاحمين { فأنت أرحم منا على أنفسنا.

قال تعالى: { إن الذين اتخذوا العجلَ سينالهم غضبٌ من ربهم {؛ وهو ما أمرهم من قتل أنفسهم، أو الطاعون الذي سلب عليهم، { وذلك في الحياة الدنيا { وهي ضرب الجزية والهوان إلى يوم القيامة، { وكذلك نجزي المفترين { على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم، حيث { قالوا هذا إلهكم وإله موسى {، ولعله لم يفتر أحدٌ مثلها قبلهم ولا بعدهم، حيث جعلوا البقر إلههم وإله الرسول، نسأل الله الحفظ.

ثم ذكر توبتهم، فقال: { والذين عملوا السيئات { من الكفر والمعاصي، { ثم تابوا من بعدها {؛ من بعد السيئات { وأمنوا { واشتغلوا بما يقتضيه الإيمان من الأعمال الصالحات، { إنَّ ربك من بعدها { من بعد التوبة { لغفورٌ رحيم { وإن عَظُم الذنب؛ كجرمة عبدة العجل - وكثُر؛ كجرائم بني إسرائيل.

الإشارة: الغضب لله وباللله، والأسف على دين الله، من أمانة الغيرة على دين الله، لكنَّ صاحب هذا المقام مالك نفسه، يظهر الغلظة ويبطن الرحمة، قيامًا بشهود الحكمة والقدرة، وأما ما صدر من سيدنا موسى - عليه السلام - فتشريع لأهل التشريع، لئلا يقع التساهل في تغيير المناكر. وساق الإمام الهروي هذه الآية في منازل السائرين في باب المراد، وهو المخصوص من ربه بما لم يُرده هو ولا خطر بباله، والإشارة بذلك إلى الصَّائِن الذين وَرَدَ فيهم الخبر: "إِنَّ لِلَّهِ صَتَاتَيْنِ مِنْ خَلْقِهِ، أَلَبَسَهُمُ الثُّورَ السَّاطِعَ، وَغَذَاهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَقَعَلَ بِهِمْ وَقَعَلَ... "أورده الإمام أو نعيم في الحلية.

وحاصله: أن المُرادين هم قوم مخصوصون، ملطوف بهم، محمول عنهم، ومنه: { وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ { [القَصَص:86] فقد حُص - عليه الصلاة والسلام - بما لم يخطر على باله قبل النبوة.

قال الهروي: والمراد: ثلاث درجات: الدرجة الأولى: أن يُعصم العبد وهو مستشرف للجفا؛ اضطرارًا بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ، وسد مسالك المعاطب عليه، إكرامًا، والدرجة الثانية: أن توضع عن العبد عوارض النقص، ويعافيه من سمة اللائمة، ويملكه عواقب الهفوات، كما فعل لسليمان عليه السلام في قتل الخيل؛ حمله على الريح الرُّخاء، فأغناه عن الخيل، وكما فعل لموسى عليه السلام؛ حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه لم يعتب عليه كما عتب على آدم ونوح وداود ويونس - عليهم السلام - ه.

قال شارحه الإمام عبد المعطي السكندري: وهذه الدرجة أتم في الحمل على الأعمال وركوب الأهوال، والتلطف في تعليم الإقبال مما قبلها، فإن ما قبلها منع من الشهوات وصيانة عن الآفات؛ جبرًا وقهرًا وحفظًا، وهذا حفظ عنها؛ بإظهار صفح برفق وإكرام ولطف، فتقوى المحبة في القلب، فيحمل ذلك على سرعة الموافقة، ومتى عرف العبد تقصيره في حق مولاه، ورأى مع ذلك تجاوزه عنه، وإحسانه إليه، فضلًا عن ترك مؤاخذته بما جناه، انغرس في قلبه محبته، وقوى

بذلك نشاطه، وخفت عليه الأعمال، وقويت منه الأحوال، فكلاهما محفوظ مُعَان، إلا أن الأول قهر مع تعلقه، وهذا إكرام ولطف بعد جريان هفوته، ثم ذكر الدرجة الثالثة، فانظره. هـ. بنقل المحشي.

@ { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لما سكت { أي: سكن { عن موسى الغضب {؛ لَمَّا كان الغضب هو الحامل له على ما فعل صار كأنه كان يأمره به ويغريه عليه، حتى عبّر عن سكونه بالسكوت، أي: لما سكن غضبه { أَخَذَ الْأَلْوَاخَ { التي ألقاها، { وفي نُسُخَتِهَا { أي: وفيما نسخ فيها، أي: كُتِبَ { هُدًى وَرَحْمَةٌ { أي: بيان للحق وإرشاد إلى الصلاح والخير، { للذين هم لربهم يرهبون { أي: للذين يخافون ربهم وبهابونه؛ هم المنتفعون بها، ودخلت اللام في المفعول؛ لضعف العامل بتأخره.

الإشارة: الغضب لأجل النفس يُفسد الإيمان، كالحنظل مع العسل، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - للذي قال له: أوصني، قال: " لا تَغْضَبْ "، ثم كرر عليه: أوصني، قال: " لا تَغْضَبْ "، ثلاثاً، لأن الغضب المفرط يغطي نور العقل، فيصدر من صاحبه أمور منكرة، قد يخرج بها عن الإيمان بالكلية، وقد يؤدي إلى قتل نفسه والعياذ بالله، والغضب معيار الصوفية؛ قال بعضهم: إذا أردت أن تعرف الرجل فغضبه وانظر ما يخرج منه، إلى غير ذلك مما ورد فيه، فإن كان غضبه لله أو بالله فلا كلام عليه، وهو حال الأنبياء وأكابر الأولياء - رضي الله عنهم -.

@ { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا يَمَّا فَعَلَ الشُّفُهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } * { وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايَا أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ } * { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } * { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاي أَتُهْلِكُنَا يَمَّا فَعَلَ الشُّفُهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ... } يقول الحقّ جلّ جلاله: { واختار موسى قومه { من قومه { سبعين رجلاً { يعتذرون عن قومهم في عبادة العجل، { لميقاتنا { الذي وقتنا لهم ياتون إليه، وقيل: إن الله تعالى أمره به بأن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستة، فزاد على السبعين اثنان، فقال: يتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لمن قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع، وذهب معه الباقون، فلما دنوا من

الجبل غشبية غمام، فدخل موسى بهم الغمام وخروا سُجَّدًا، فسمعوه يكلم موسى، يأمره وبنهاه، ثم انكشف الغمام، فأقبلوا إليه، وقالوا:
{ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً }
[البقرة:55]، { فأخذتهم الرجفة } أي: الصعقة، أو رجفة الجبل، عقابًا لهم على قولهم، فصعقوا منها، يحتمل أن تكن رجفة موت أو إغماء. والأول أظهر؛ لقوله:
{ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ }
[البقرة:56].

{ فلما أخذتهم الرجفة قال { موسى: { رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ إِيَّايَ } ، تمنى هلاكهم وهلاكه قبل ذلك الوقت، لأنه خاف من تشغيب بني إسرائيل عليه، إن رجع إليهم دون هؤلاء السبعين، ربما قالوا: عرّضهم للهلاك، أو يكون قال ذلك على وجه الاستسلام والانقياد للقضاء، أي: لو شئت أن تهلكنا من قبل ذلك لفعلت، فإننا عبيدك وتحت قهرك تفعل بنا ما تشاء، أو يكون قاله على وجه التضرع والرغبة، أي: لو نشئت أن تهلكنا قبل اليوم لفعلت، لكنك عافيتنا وأنقذتنا وأغرقت عدونا، فافعل بنا الآن كما عودتنا، وأحيي هؤلاء الذي أمتهم، إذ ليس ببعيد من عميم إحسانك، { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا } من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، أو بما فعل السفهاء من عبادة العجل.

{ إن هي إلا فتنتك } أي: ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك، حتى طمعوا في الرؤية، أو فتنتك لهم بأن أجريت الصوت من العجل حتى افتتنوا به، وهذا اعتراف بالقدر، ورجوع إلى قوله:
{ قَاتَا قَدْ قَاتَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ... }
[طه:85] الآية، ولذلك قيل: إنه قال له تعالى: نعم هي فتنتي يا حكيم الحكماء. هـ. أي: ما هذه الأمور كلها التي صدرت من بني إسرائيل إلا فتنتك { تُضَلُّ بِهَا مِنْ تَشَاءَ } ضلالتهم، باتباع المخايل، { وتهدى من تشاء } هدايتهم، فيقوي بها إيمانهم، وهو اعتذار عن فعل السفهاء فإنه كان بقضاء الله ومشيتهم.

{ أنت وليُّنا } القائم بأمرنا، أو ناصرنا من الوقوع في أسباب المهالك، { فاغفر لنا } ما قارفنا من الذنوب، { وارحمنا } أي: اعصمنا من الوقوع في مثله، { وأنت خير الغافرين }؛ تغفر السيئة وتبديلها بالحسنة، { واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة } أي: حالة حسنة من حسن معيشة وتوفيق طاعة، { وفي الآخرة } حسنة؛ نعيم الجنة، { إنا هُذِنَا إِلَيْكَ } أي: تبنا إليك، من هادٍ يهود: إذا رجع، أي: رجعنا إليك بالتوبة مما سلف منا.
الإشارة: السلامة من العطب هو في مقام الهيبة والأدب، ولذلك قيل: قف باليساط، وإياك والانسباط. وأما مقام الإدلال فلا يصح إلا من أكابر الأنبياء، والأولياء المحققين بمقام المحبوبة، المتخفين بغاية الخصوصية، ومنه قول سيدنا موسى عليه السلام: { أتهلكنا بما فعل السفهاء منا } ، كما قال في الإحياء. والإدلال: هو انبساط يثور من مقام الأنس والتحقق بالمحبة الخاصة، ولا يتفق إلا من محبوب مأخوذ عنه، ليس عليه بغية من نفسه، ولا شعور بوجوده وأنانيته، وإلا ردّ في وجهه وكان سبب عطبه. ومن الإدلال: ما وقع لأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حربه الكبير، من قوله: وليس من الكرم إلا تحسن إلا لمن أحسن إليك... الخ. وقد وقع لغيره من المحبوبين، والله تعالى أعلم.

ثم أجاب الحق - سبحانه وتعالى - سؤال موسى عليه السلام في قوله: { واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة } فقال:

{...قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجَلَّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُجَزِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَابْتَغُوا التَّوْرَ الَّتِي نَزَّلْنَا مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

يقول الحق جل جلاله: في جواب سيدنا موسى عليه السلام: { قال عذابي أصيب به من أشاء } ممن أخذته الرجفة وغيرهم، { ورحمتي وسعت كل شيء } في الدنيا للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مخصوصة بالمؤمنين، { فسأكتبها } كتابة خاصة لا تليق بكم يا بني إسرائيل، إنما تليق بالأمة المحمدية الموسومة بالآداب المرضية، الذين { يتقون } الكفر والمعاصي، وإن وقعت هفوة بادروا إلى التوبة، { ويؤتون الزكاة }، خصصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم. { والذين هم بآياتنا يؤمنون } فلا يكفرون بشيء منها، بل يؤمنون بجميع الكتب والأنبياء، وليس ذلك لغيرهم. ولذلك خصهم الله بهذه الرحمة؛ قنصرهم على جميع الأمم، وأعلى دينهم على جميع الأديان، ومكّن لهم ما لم يمكن لغيرهم.

{ الذين يتبعون الرسول } صلى الله عليه وسلم { النبي الأمي } وهو نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وكونه أمياً شرف له، إذ الكتابة وسيلة للعلوم، وقد أعطي منها ما لم يُعط أحد من العالمين، من غير تعب تعلمها، ولا ارتفاع الارتياح في نبوته صلى الله عليه وسلم، فهي من جملة معجزاته؛ قال تعالى:

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ... {

[العنكبوت:48] الآية. قال بعضهم: لما قال الله تعالى: { ورحمتي وسعت كل شيء } طمع فيها كل أحد، حتى إبليس، فلما قال: { فسأكتبها للذين يتقون } ينس إبليس، وبقيت اليهود والنصارى، فلما قال: { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي } ينس اليهود والنصارى. هـ.

{ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل } اسماً وصفة، ونص ما في التوراة على ما في صحيح البخاري، عن عبد الله بن سلام: " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجرراً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكلاً، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يجازي بالسبيبة السبيبة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عمياً، وأذانا صماً، وقلوباً غلماً ".

ومما في التوراة أيضاً، وهو مما أجمع عليه أهل الكتاب، وهو باق في أيديهم إلى الآن؛ أن الملك قد نزل على إبراهيم، فقال له: في هذا العام يولد لك غلام اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: يا رب ليت إسماعيل يعيش يخدمك، فقال الله لإبراهيم: ذلك لك، قد استجيب لك في إسماعيل، وأنا أباركه، وأمنيه، وأكثره، وأعظمه بما زماذ، وتفسيره: محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك مما في التوراة أيضًا: أن الرب - تعالى - جاء من طور سيناء، وطلع على " ساغين " ، وظهر من جبل فاران، ويعني طور سيناء: موضع مناجاة موسى، وساغين موضع عيسى، وفاران هي مكة، موضع مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي التوراة أيضًا: أن هاجر أم إسماعيل لما غضبت عليها سارة، تراءى لها ملك، فقال لها: يا هاجر، أين تريدان، ومن أين أقيمت؟ فقالت: أهرب من سيدتي سارة، فقال لها: يا هاجر، ارجعي إلى سارة، وستحملين وتلدان ولدًا اسمه إسماعيل، وهو يكون عين الناس، وتكون يده فوق الجميع، وتكون يد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع. هـ.

وهذا الذي وعدنا الملك إنما ظهر بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وظهور دينه وعلو مكانه، ولم يكن ذلك لإسماعيل ولا لغيره من أولاده، لكن الأصل يشرف بشرف فرعه، وفي التوراة أيضًا: أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: قد أجبت دعائك في إسماعيل، وباركت عليه، وسيلد اثني عشر عظيمًا، وأجعله لامة عظيمة. وفي بعض كتبهم: لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود، وامتلأت الأرض من حمده، لأنه ظهر بخلص أمته. هـ. ونص ما في الإنجيل: أن المسيح قال للحواريين: إني ذاهب عنكم، وسيأتيكم الفارقليط، الذي لا يتكلم من قبل نفسه، إنما يقول كما يقال له. هـ. والفارقليط بالعبرانية: اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل معناه: الشافع المشفع.

وعن شهر بن حوشب - في قصة إسلام كعب الأحمري، وهو من اليمن من حمير-: أن كعبًا أخبره بأمره، وكيف كان ذلك، وكان أبوه من مؤمني أهل التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل ظهوره، قال كعب: وكان أبي من أعلم الناس بالتوراة وكتب الأنبياء، ولم يكن يدخر عني شيئًا مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة دعاني فقال: يا بني، قد علمت أنني لم أكن أدخر عنك شيئًا مما كنت أعلم، إلا أنني حبستُ عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يُبعث، وقد أطل زمانه، فكرهت أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين فقتبعه، وقد قطعتهما من كتابي، وجعلتهما في هذه الكوة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تتعرض لهما حتى يخرج هذا النبي، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما، فإن الله تعالى يزيدك بهذا خيرًا، فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إليّ من أن ينقضي المآثم حتى أنظر ما في الورقتين، فإذا فيهما: " محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ومهاجره طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة، وبغفو ويغفر ويصفح، أمته الحمّادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتُذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويتأزرون على أوساطهم، وأتأجيلهم في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأم والأب، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الأمم، وهم السابقون المقربون، والشافعون المشفع فيهم " ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في بقية أوصاف نبينا - عليه الصلاة والسلام -: { يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات } مما حرم على اليهود؛ كالشحوم وغيرها، { ويحرم عليهم الخبائث } كالدّم والحّم الخنزير وسائر الخبائث، أو كالربا والرشوة وغيرهما من المحرمات. قال ابن جزّي: مذهب مالك أن الطيبات هي الحلال، وأن الخبائث هي الحرام. ومذهب الشافعي: أن الطيبات هي

المستلذات، إلا ما حرمه الشرع منها، كالخمر والخنزير، وأن الخبائث هي المستقذرات كالخنافس والعقارب. هـ.

{ ويضع عنهم إصرهم } أي: الثقل الذي عليهم، وهو مثال لما كُلفوا به - أي: بنو إسرائيل - في شرعهم من المشقات؛ كقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وتعيين القصاص في العمد والخطأ. { والأغلال التي كانت عليهم }؛ عبارة عما منعت منه شريعتهم، كتحريم الشحوم، وتحريم العمل يوم السبت وشبه ذلك. { فالذين آمنوا به وعزروه } أي: منعه وحفظوه من عدوه، حتى لا يقوى عليه، أو عظموه بالتقوية حتى انتصر، وأصله: المنع، ومنه التعزيز، { ونصروه } حتى أظهروا دينه في حياته وبعد مماته، { واتبعوا النور الذي أنزل معه } وهو القرآن، وإنما سماه نورًا؛ لأنه بإعجازه ظاهر أمره ومظهر غيره، أو لأنه كاشف للحقائق مظهر لها.

أولئك هم المفلحون { الفائزون بالرحمة الأبدية، وهذا آخر جواب سيدنا موسى عليه السلام.

الإشارة: قوله تعالى { ورحمتي وسعت كل شيء } ، قال القشيري: لم يُعَلَّقها بالمشيئة - يعني: كما قال في العذاب - لأنها نفس المشيئة، ولأنها قديمة، والإرادة لا تتعلق بالقديم، فلما كان العذاب من صفات الفعل علقه بالمشيئة، يعكس الرحمة لأنها من صفات الذات. ويقال في قوله تعالى: { وسعت كل شيء } : { مجالٌ لآمال العُصاة؛ لأنهم، وإن لم يكونوا من جملة المطيعين العابدين والعارفين، فيهم " شيء " . هـ.

قلت: وبهذا العموم تشبث إبليس في قضية له مع سهل، وذلك أنه لما تراءى له، ضحك، فقال له: كيف تضحك وقد أبلست من رحمة الله؟ فقال له: قال تعالى: { ورحمتي وسعت كل شيء } وأنا شيء فسكت سهل، ثم تذكر تما الآية، فقال: قال تعالى: { فسأكتبها للذين يتقون } ، فهي مُقيدة لا مطلقة، فقال له: التقوى فعل العبد، والرحمة صفة الرب، ولا يتغير وصف الحق بفعل العبد، فعجز سهل.

قلت: والجواب: أن إبليس جاء من جهة الفرق، ولو نظر للجمع لوجد الرحمة وصفه، والتقوى فعله، وفعله يغير وصفه، والكل منه وإليه. والله تعالى أعلم.

وقال الورتجبي: جميع الخلائق مستغرقون في بحر الرحمة، لأن إيجاد الحق إياهم، على أي: وصف كانوا، عين رحمته، حيث دخلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته، ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة فالجمادات مستغرقة في نور فعله، وهي الرحمة الفعلية، والحيوانات مستغرقة في نور صفاته، وهي الرحمة الصفاتية، والعقلاء من الجن والإنس والملائكة مستغرقون في نور ذاته، وهي الرحمة القديمة الذاتية من جهة تعريفهم ربوبيته ووجدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها، في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجري عليها، في الرحمة الخاصة، وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا وطاشوا، ومن خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم، وفنى عن الرحمة، فصار رحمة للعالمين، وهذا وصف

نبينا - عليه الصلاة والسلام -، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله:
{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }
[الأنبياء:107]، ثم خص رحمته الخاصة الصفاتية، بعد أن عم الكل برحمته العامة للمنفردين بالله عن غير الله، القانتين بعظمته في عظمة الذين بذلوا وجوههم لحق ربوبيته عليهم بقوله: { فسأكتبها للذين يتقون... } هـ.

قال في الحاشية: واعتبر قوله: { فسأكتبها }، فإنه يقتضي كون الرحمة السابقة مطلقة، والتغيير طارئ، والطارىء لا ينافي الذات.
قلت: فتكون على هذا الرحمة التي وسعت كل شيء رحمة عامة، إذ لا يخلو مخلوق من رحمته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فالخلق كلهم مرحومون إيجابًا وإمدادًا، وأما في الآخرة فما من عذاب إلا والله أشد منه في قدرته، والرحمة التي كتبت للمتقين رحمة خاصة، وبدل على هذا ما في القوت على قوله: { فسأكتبها للذين يتقون }، قال: معناه خصوص الرحمة وصفوها لا كلها، إذ لا نهاية للرحمة، لأنها صفة الراحم الذي لا حد له، ولأنه لم يخرج من رحمته شيء، كما لم يخرج من حكمته وقدرته شيء هـ.

وقال السيوطي: فسأكتبها في الآخرة، ووجه تخصيصها في الآخرة بالمؤمنين: تمحضها هنالك من غير شوب بصد، ولا كذلك في الدنيا، وإن كانت غالبية، والكافر عمدته في الدنيا عمومًا ظاهرًا، وسلب منها في الآخرة بحسب الظاهر، وإن لم يخل عنها في الجملة، لأن غضبه تعالى لا حد له لولا رحمته.

وحاصله: أنه لم تفي جهنم بغضبه، لأنه لا يفي المتناهي بغير المتناهي ورحمته عمدت الكافر في الدنيا لإمهاله وبسط نعمه عليه، وفي الإمهال فسحة في الحال وأمل الإقلاع في المال، وقد يتفق كثيرًا، أي: الإقلاع، فلا يتعين أن يكون الإمهال استدراجًا، على أنه إنما يتجلى تجليًا أوليًا ذاتيًا برحمة مطلقة من غير تفصيل، إذ لا تعدد في الذات، وإنما يظهر التفصيل بالصفات، وإن كان يسري إليها من الذات، ولكن الرحمة تظهر أولاً من الذات، مع قطع النظر عن الصفات؛ لظهورها، ولا تظهر النعمة إلا من الصفات، وهي خفية في تجلي الذات المطلق، ولذلك قال: { ورحمتي وسعت كل شيء }، وعلق العذاب على المشيئة، فخص به دونها هـ. من الحاشية مع زيادة بيان.

@ { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { قل } يا محمد: { يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا }؛ الأحمر والأسود، والعرب والعجم، والإنس والجن، خص بهذه الدعوة العامة، وإنما بعثت الرسل إلى قومها خاصة. فادع الناس أيها الرسول إلى الله تعالى، { الذي له ملك السماوات والأرض } يتصرف فيهما كيفما شاء، { لا إله إلا هو }؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير، { يحيي ويميت }؛ لعموم قدرته ونفوذ أمره، { فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته } أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووجهه. وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كتبه ووجهه.

وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة، أي: لم يقل: فأمنوا بالله وآمنوا؛ لإجراء هذه الصفات عليه، الداعية إلى الإيمان به وأتباعه، ولذلك قال: { واتبعوه لعلكم تهتدون } إلى طريق الحق والرشد، جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين؛ تنبيهًا على أن من صدقه، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا غنى للمريد عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو بلغ ما بلغ، لقوله تعالى: { واتبعوه لعلكم تهتدون }، وغاية الاهتداء غير متناهية، لأن أدب العبودية مقرونٌ مع عظمة الربوبية، فكما أن الترقى في مشاهدة الربوبية لا نهاية له، كذلك أدب العبودية لا نهاية له، ولا تُعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام، فواسطة النبي صلى الله عليه وسلم لا تفارق العبد، ولو عرف ما عرف، وبلغ ما بلغ. والله تعالى أعلم.

@ { وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

يقول الحقُّ جلّ جلاله: { ومن قوم موسى }، يعني بني إسرائيل، { أمةٌ } طائفة { يهدون } الناس بكلمة الحق، أو متلبسين { بالحق }؛ وهم الذين ثبتوا حين افتتن الناس بعباده العجل، والأخبار الذين تمسكوا بالتوراة من غير تحريف، أو الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، { وبه } أي: بالحق { يعدلون } في أحكامهم وقضاياهم. قال البيضاوي: أتبع ذكرهم ذكر أصدادهم على ما هو عادة القرآن؛ تنبيهًا على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. هـ.

الإشارة: في كل أمة، وفي كل عصر، أمة سالحة، يُبَصِّرُونَ الناس بالحق، ويدعون إلى الله، فمنهم من يهدي إلى تزيين الظواهر بالشرائع، وهم العلماء الأتقياء، ومنهم من يهدي إلى تنوير السرائر بالحقائق، وهم الصوفية الأولياء، المحققون بمعرفة الله. وبالله التوفيق.

@ { وَقَطَّعْنَاهُمْ أَثْنَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

قلت: { أسباطًا } بدل لا تمييز؛ لأن تمييز العدد يكون مفردًا، والتمييز محذوف، أي: فرقة أسباطًا. وقال الزمخشري: يصح تمييزًا؛ لأن كل قبيلة أسباط لا سبط. هـ. فكانه قال: وقطعناهم اثنتي عشر سبطًا سبطًا. والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و { أممًا } بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثاني بدل من أسباط.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: { وقطعناهم } أي: بني إسرائيل: فرقناهم { اثنتي عشر أسباطًا }؛ اثني عشر سبطًا، { أممًا } متميزة، كل سبط أمة مستقلة، { وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه } في التيه، { أن اضرب بعصاك الحجر فانجست }؛ انفجرت، إلا أن الانجاس أخف من الانفجار، أي: فاضرب فانجست،

وحذفه للإيماء إلى أن موسى لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل ذاته، بل سبب عادي وحكمة جارية، والفعل إنما هو القدرة الإلهية، أي: نبعث { منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كلُّ أناس }؛ كل سبط { مشربهم وظللنا عليهم الغمام } لتقيهم من حرِّ الشمس، { وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى }، وقلنا لهم: { كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون } سبق في سورة البقرة، وكذلك الإشارة.

@ { وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } * { قَبِدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { و } { اذكروا } { إذ قيلَ } { لبي إسرائيل: } { اسكنوا هذه القرية }؛ بيت المقدس، { واكلوا منها حيث شئتم وقولوا }؛ أمرنا { حطةً } وادخلوا الباب سُجَّدًا { سجوداً } { نغفر لكم خطيئاتكم } التي سلفت، { سنزيد المحسنين }؛ وعد بالغفران والزيادة عليه، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف، يعني: سنزيد، ولم يقل: وسنزيد؛ للدلالة على أنه تفضل محض، ليس في مقابلة ما أمروا به، { فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم }؛ قالوا: حبة في شعرة، مكان حطة، لأنهم حملوا الحطة؛ على الحنطة. { فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون } قد مر تفسيره، وإشارته، في سورة البقرة.

تنبيه: وقع اختلاف كثير في اللفظ بين هذا الموضع من هذه السورة وبين سورة البقرة، في { انفجرت } و { انبجست }، وقوله: { وإذ قلنا ادخلوا } و { إذا قيل لهم اسكنوا }، وقوله هنا: { واكلوا }، وهناك { فاكلوا }. فقال الزمخشري: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض. ووجه بعضهم الفرق بأن ما في هذه السورة سيق في محل الغضب والعقاب على عبادة العجل، وما في سورة البقرة سيق في محل الامتنان، فلذلك عبّر هنا بانبجست؛ لأنه أقل من انفجرت، وعبّر هنا بقيل؛ مبنياً للمجهول؛ تحقيراً لهم أن يذكر نفسه لهم، وعبّر هنا بالسكنى؛ لأنه أشق من الدخول ويستلزمه، وعبّر هنا بالواو؛ لأن السكنى تجماع الأكل، بخلاف الدخول، فإن الأكل مسبب عنه، فعبّر بالفاء، وزاد في البقرة الواو في: { سنزيد }، كأنه نعمة أخرى، بخلاف هذا، وزاد هنا { منهم }؛ لتقدم ذكرهم في قوله: { وإذ قيل لهم }، وعبّر هنا بالظلم؛ لأنه أعم من الفسق وغيره. والله تعالى أعلم.

@ { وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } * { وَإِذَا قَالَتْ أُمَّهُ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِنَّا رَبَّكُمْ وَأَعْلَمُ بِتَقْوَى } * { فَلَمَّا تَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِي سَامِ كَانُوا يَفْسُقُونَ } * { فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ }

قلت: { إذ يَعْدُونَ } : بدل من { القرية } ، بدل اشتمال، أو منصوب بكانت، أو بحاضرة و { إذ تَأْتِيهِمْ } : منصوب ببيعدون، و { سبتهم } : مصدر مضاف للفاعل، يقال: سبت اليهود سبتًا: إذا عظم يوم السبت وقطع شغله فيه، و { شُرَّعًا } : حال، ومعناه: ظاهرة قريبة منهم، يقال: شرع منه فلان إذا دنا منه.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { واسألهم عن القرية } أي: اليهود، سؤال تقرير وتوبيخ على تقديم عصيانهم وعمما هو من معلومهم، الذي لا يعلم إلا بتعليم أو وحي، وقد تحققوا أنك أُمِّي، فيكون ذلك معجزة وحجة عليهم، { عن القرية } أي: عن خبرها وما وقع لها، { التي كانت حاضرة البحر } قريبة منه، وهي " إيلة " ، قرية بين مدين والطور، على شاطئ البحر، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، { إذ يَعْدُونَ في السَّبْتِ } : يتجاوزون حدود الله بالأصطياد في يوم السبت، وكان حرامًا عليهم لاشتغالهم عنه بالعبادة، { إذ تَأْتِيهِمْ حِينَتُهُمْ يوم سبتهم شُرَّعًا } : ظاهرة على وجه الماء، دانية منهم، { ويوم لا يَسِيئُونَ لا تَأْتِيهِمْ } بل تغوص كلها في البحر، { كذلك } أي: مثل هذا البلاء الشديد { تَبْلُوهُمْ بما كانوا يفسقون } أي: بسبب فسقهم. وقيل " كذلك " : متصل بما قبله، أي: لا تأتِيهِمْ مثل ذلك الإتيان الذي تأتِيهِ يوم السبت.

ثم افتقرت بنو إسرائيل ثلاث فرق: فرقة عصت بالصيد يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلت القوم، وفرقة سكتت واعتزلت فلم تنه ولم تعص. { وإذ قالت أُمَّهُ مِنْهُمْ } ، وهي التي لم تنه ولم تعص. لَمَّا رأت مهاجرة الناهية وطغيان العاصية: { لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ } بالموت بصاعقة، { أو معذبهم عذابًا شديدًا } في الآخرة؟ { قالوا } : نهينا لهم { معذرة إلى ربكم } أي: عذرًا إلى الله تعالى، حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر، { ولعلمهم يتقون } فينزعون عن العصيان، إذ اليأس منهم لا يحصل إلا بالهلاك.

{ فلما تَسَّوْا ما دُكِّرُوا به } أي: تركوا ما وُعدوا به ترك الناسي، { أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا } ؛ بالاعتقاد ومخالفة أمر الله، { بعذاب بيئس } : شديد، من بؤس يبؤس بؤسًا، وقرىء (بِئْسَ) على وزن ضيغم، و " بئس " بالكسر والسكون، كحذر، وبئس بتخفيف الهمزة، ومعناها واحد، أي: بما عاقبناهم بالمسخ، { بما كانوا يفسقون } أي: بسبب فسقهم.

قال ابن عباس: لا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ وقال عكرمة: لم تهلك؛ لأنها كرهت ما فعلوه. ورجع إليه ابن عباس وأعجبه، لأن كراهيتها تغيير المنكر في الجملة، مع قيام الفرقة الناهية به؛ لأنه فرص كفاية. قال تعالى: { فلما عتوا عما نُهِوا عنه } ؛ تكبرًا عن ترك ما نُهِوا عنه، { قلنا لهم كونوا قردة خاسئين } أذلاء صاغرين.

قال البيضاوي: { قلنا لهم كونوا } ، وهو كقوله: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [النحل:40]، والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك، فمسخهم قردة وخنازير، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرًا وتفصيلًا للأولى.

رُوي أن الناهين لما أيسوا عن اتعاط المعتدين، كرهوا مساكنتهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يومًا ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين، فقالوا: إن لهم شأنًا، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة، فلم يعرفوا أنسابهم، ولكن

القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسبائهم وتشم ثيابهم، وتدور باكية حولهم، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. هـ.

الإشارة: المسخ على ثلاثة أقسام: مسخ الأشباح، ومسخ القلوب، ومسخ الأرواح، فمسخ الأشباح هو الذي وقع لبني إسرائيل، قيل: إنه مرفوع عن هذه الأمة، والصحيح: أنه يقع في آخر الزمان، ومسخ القلوب يكون بالانهماك في الذنوب، والإصرار على المعاصي، وعلامته: الفرح بتيسير العصيان، وعدم التأسف على ما فاته من الطاعة والإحسان، ومسخ الأرواح: الانهماك في الشهوات، والوقوف مع ظواهر الحسيات، أو تكثيف الحجاب، والوقوف مع العوائد والأسباب، دون مشاهدة رب الأرباب. والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ آلَآ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قلت: { تأذن } أعلم، وهي تفعل، وهي من الإيدان بمعنى الإعلام، كتوعد وأوعد، أو عزم، لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله، وأجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله، ولذلك أوجب باللام القسمية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكروا { إذ تأذن ربك } أي: أعلم وأظهر ذلك في عالم الشهادة، { ليعثن } على بني إسرائيل، أيك لیسلمن { عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب }؛ كالإذلال وضرب الجزية، وقد بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر، فخرّب ديارهم، وقتل مقاتلتهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس، حتى بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ففعل بهم ما فعل، في بني قريظة والنضير وخيبر، ثم ضرب الله عليهم الجزية إلى آخر الدهر، { إن ربك لسريع العقاب } فعاقبهم في الدنيا، { وإنه لغفور رحيم } لمن تاب وأمن، وإنما أكد هنا الخبر باللام دون ما في آخر الأنعام، لأن ما هنا في اليهود، وما في آخر الأنعام في المؤمنين، فأكد ما هنا باللام، فقال: { لسريع العقاب }؛ زيادة في توبيخهم ونكالهم.

الإشارة: مواطن الذل والهوان هو الانهماك في المخالفة والعدوان، وقد ينسحب ذلك في الذرية إلى آخر الزمان، فإن الله تعالى يقول: أنا الملك الودود، أعاقب الأحفاد بمعاصي الجدود، ومواطن العز والحرمة والأمان: هو الطاعة والتعظيم والإحسان، ينسحب ذلك على الأحفاد، إلى منتهى الزمان، فإن الله تعالى يحفظ الأولاد ببركة الأجداد. وقد تذاكر بعض التابعين ما يكون في آخر الزمان من الفتن والفساد، فقال بعضهم: يا ليتني كنت عقيماً أو لم أتزوج، فقال له من هو أكبر منه: ألا أدلك على ما يحفظ الله عقبك؟ قال: نعم، دلني، قال: قوله تعالى: { وَلِيَحْسَبَنَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا... } [النساء:9] الآية. وبالله التوفيق.

@ { وَقَطَعْنَا لَهُم فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّبِيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } * { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ

يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ
وَإِلَّا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ }

قلت: { أُمَّمًا } : مفعول ثانٍ لقطعنا، أو حال، وجملة { منهم الصالحون } : صفة،
وجملة { يأخذون } : حال من فاعل ورثوا، و { يقولون } عطف على { يأخذون }
{ ، أو حال، والفعل من { سيغفر } : مسند إلى الجار والمجرور، أو إلى مصدر
{ يأخذون } ، و { أن لا يقولوا } : عطف بيان من { ميثاق الكتاب } ، أو تفسير
له، أو متعلق به، أي: لأن لا يقولوا، و { درسوا } : عطف على { ألم يؤخذ }
من حيث المعنى، أي: ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ولم يدرسوا ما فيه، أو
حال، أي: وقد درسوا، و { الذين يُمَسِّكُونَ } : مبتدأ، وجملة: { إنا لا نضيع أجر
المصلحين } : خبر، والرابط: ما في المصلحين من العموم، فوضع موضع الضمير؛
تنبيهًا على أن الإصلاح كالمانع من التضييع، أو حذف العائد، أي: منهم، ويحتمل
أن يكون عطفاً على { الذين يتقون } أي: خير للمتقين والذين يتمسكون بالكتاب.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقطعناهم } أي: فرقناهم { في الأرض أُمَّمًا } : فرقا،
ففي كل بلد من البلدان فرقة منهم، فليس لهم إقليم يملكونه، تنمةً لإذلالهم،
حتى لا تكون لهم شوكة قط، { منهم الصالحون } وهو من تمسك بدين التوراة،
ولم يحرف، ولم يفرق، أو من آمن منهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في زمانه
وبعده، { ومنهم دون ذلك } أي: ومنهم ناس دون ذلك، أي: منحطون عن الإصلاح،
وهم كفرتهم وفسقتهم، { وبلوناهم } أي: اخترناهم { بالحسنات والسيئات } أي:
بالنعم والنقم، { لعلهم يرجعون } : ينتهون فينزعون عمَّا هم عليه.

{ فخلّف من بعدهم خلفٌ } أي: فخلّف، من بعد الأولين، خلف، أي: بدل سوء،
وهو مصدر نعت به، فالخلف، بالسكون، شائع في الشر، يقال: جعل الله منك
خلقا صالحًا. والمراد بالخلف في الآية: اليهود الذين أدركوا النبي صلى الله عليه
وسلم، { ورثوا الكتاب } : التوراة، من أسلافهم، يقرؤونها ويقفون على ما فيها،
{ يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى } : حطام هذا الشيء الحقيق، من الدنو، أو من
الدناءة، وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في الأحكام، وعلى تحريف الكلام،
{ ويقولون سيغفر لنا } : لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، اغترارًا وحمقًا.

{ وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأذوه } أي: يرجون المغفرة، والحال أنهم مصرون على
الذنب، عائدون إلى مثله، غير تائبين منه، { ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب } أي:
في الكتاب، وهو التوراة، { أن لا يقولوا على الله إلا الحق } ، وهو تكذيب لهم
في قولهم: { سيغفر لنا } ، والمراد: توبيخهم على القطع بالمغفرة مع عدم
التوبة، والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب، { ودرسوا ما
فيه } أي: وقد درسوا ما فيه، وعلموا ما أخذ عليهم فيه من المواثيق، ثم تجرأوا
على الله، { والدارُ الآخرة خير للذين يتقون } مما يأخذ هؤلاء من العرض
الفاني.

أفلا يعقلون { فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقيق المؤدي إلى العقاب
بالنعيم الكبير المخلد في دار الثواب، ومن قرأ بالخطاب فهو لهم، من باب
التلوين في الكلام.

{ والذين يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ } أي: يتمسكون بالتوراة، { وأقاموا الصلاة } المفروضة عليهم، { إنا لا نضيع أجر المصلحين } منهم. وهذا فيمن مات قبل ظهور الإسلام، أو: والذين يتمسكون بالقرآن، { وأقاموا الصلاة } مع المسلمين، { إن لا نضيع أجر المصلحين }.

الإشارة: تفريق النسب في البلدان، إن كان في الذل والهوان، فهو من شؤم المخالفة والعصيان، وإن كان مع العز وحفظ الحرمة، فقد يكون لقصد الخير والبركة، أراد الله أن يُنمي تلك البلاد، بنقل ذلك إليها، كأولاد الصالحين والعلماء وأهل البيت، ويؤخذ من قوله: { وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون }، أن العبد مأمور بالرجوع إلى الله في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالتسليم والصبر.

ويؤخذ من مفهوم قوله: { وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه }، أن من عقد التوبة وحل عقدة الإصرار غفر له ما مضى من الأوزار. وفي قوله: { ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب... } الآية، تحذير لعلماء السوء. وقوله: { والذين يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ... } الآية، أي: والذين يتمسكون بظاهر الكتاب وأقاموا صلاة الجوارح، { إنا لا نضيع أجر المصلحين } مع عامة أهل اليمن، والذين يتمسكون بباطن الكتاب وأقاموا صلاة القلوب - التي هي العكوف في الحضرة - حضرة الغيوب - إنا لا نضيع أجر المصلحين لقلوبهم، وهو شهود رب العالمين مع المقربين، في حضرة الأنبياء والمرسلين، جعلنا الله منهم وفي حزبهم، أمين.

@ { وَإِذْ تَبَقَّى الْجَبَلُ فَأَوْفَهُمْ كَاتِئَةٌ ظِلُّةٌ وَطَنُوا اللَّهَ وَاقِعُ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

قلت: جملة { خُذُوا } محكية، أي: وقولنا لهم: خذوا.

يقول الحق جلّ جلاله: { و } { اذْكُرُوا } { إِذْ تَبَقَّى } أي: قلعنا ورفعنا { الْجَبَلَ } فوق بني إسرائيل، { كأنه ظلّة } أي: سقيفة، والظلّة: كل ما أظلك، { وَطَنُوا } أي: تيقنوا { أنه واقع بهم } أي: ساقط عليهم بسبب عصيانهم؛ لأنّ الجبل لا يثبت في الجو؛ لأنهم كانوا يوعدون به، وإنما عبّر بالظن؛ لأنه لم يقع بالفعل حين الظن، وسبب تنق الجبل أنهم امتنعوا من أحكام التوراة، فلم يقبلوها؛ لثقلها، فرفع الله الطور فوقهم، وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم، فقلنا لهم حين الرفع: { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ } من الأحكام { بقوة } واذكروا ما فيه { بالعمل به، ولا تتركوه كالمنسى، { لعلكم تتقون } قبائح الأعمال وذنابل الأخلاق.

الإشارة: من لم ينقد إلى الله بملاطفة الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان، عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل.

@ { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَيَا أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا إِنَّا كُنَّا عَنِ هَٰذَا غَافِلِينَ } * { أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } * { وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }

قلت: { من ظهورهم } بدل من { بني آدم } ، أي: من ظهور بني آدم، و { ذريتهم } مفعول به، و { بلى } حرف جواب، يُجاب بها عن الهمزة إذا دخلت على منفي، فخرجت عن الاستفهام إلى التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفي، نحو: { أَلَمْ تَنْشُرْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشّرح:1]، فيجاب ببلى، أي: شرحت، وكذا نظائرها، ومنه: { إلسن بربكم... } الآية.

وقد يجاب بها الاستفهام المجرد عن النفي، كما في الحديث: " أترصّون أنّ تكوّنوا رُبّع أهل الجنّة؟ قالوا: بلى " ولكنه قليل، فلا يُقاس عليه، بل يوقف على ما سمع، والكثير: أنها جواب للنفي، ومعناها: إثبات ما نفي، ورفع النفي، لا إثباته وتقريره، بخلاف " نعم "؛ فإنها تقرر ما قبلها من إثبات أو نفي، ولذا قال ابن عباس: (ولو قالوا: نعم، لكفروا)، وقد تقدم الفرق بينهما في سورة البقرة، ثم الكثير: مراعاة صورة النفي، فيجاب ببلى، وقد ينظر للمعنى وما يفيد الاستفهام الإنكاري من نفيه للنفي، فيصير الكلام إيجاباً، فيصح الجواب بنعم في الجملة، لكن لما كان محتملاً امتنع في الآية: انظر المعنى. وقوله: { أن تقولوا } مفعول من أجله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكروا { إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم }؛ من ظهور بني آدم { ذريتهم }؛ وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم، وأهبطه إلى الأرض، أخرج من صلبه نسيم بنيه، بعضهم من صلب بعض، على نحو ما يتوالدون، قرناً بعد قرن كالذر، وكان آدم بتعمان، وهو جبل يواجه عرفة، وقال لهم حين أخرجهم: { ألسن بربكم }؟ فأقروا كلهم، و { قالوا بلى } أنت ربنا، { شهدنا } بذلك على أنفسنا، لأن الأرواح حينئذ كانت كلها على الفطرة، علامة دَرَإِكة، فلما ركبت في هذا القالب نسيت الشهادة، فبعث الله الأنبياء والرسل يُذكرون الناس ذلك العهد، فمن أقرب به نجا، ومن أنكره هلك، ويحتمل أن يكون ذلك من باب التمثيل، وأن أخذ الذرية من الظهر عبارة عن أيجادهم في الدنيا، وأما إشهدهم فمعناه: أن الله نصب لبني آدم الأدلة على ربوبيته، وشهدت بها عقولهم، فكانه أشهدهم على أنفسهم، وقال: { ألسن بربكم }؟ وكانهم قالوا بلسان الحال: أنت ربنا.

والأول هو الصحيح؛ لتواتر الأخبار به، فقوله: { شهدنا }؛ هو من تمام الجواب، فهو تحقيق لربوبيته وأداء لشهادتهم بذلك، فينبغي أن يوقف عليه، وقيل: إن { شهدنا }؛ من قول الله أو الملائكة، فيوقف على { بلى }، لكنه ضعيف.

ثم ذكر حكمة هذا الأخذ، فقال: { إن تقولوا } أي: فعلنا ذلك كراهة أن تقولوا { يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين }، أو كراهية أن تقولوا: { إنما أشرك أبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم } فافتدنا بهم، { أفئهلكنما بما فعل المبطلون }، يعني: آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك، ولا بد من حذف كلام هنا لتتم الحجة، والتقدير: أخذنا ذلك العهد في عالم الأرواح، وبعثنا الرسل يجددونه في عالم الأشباح، كراهة أن تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، ويدل على هذا قوله تعالى:

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا... { [الإسراء:15] الآية. وقوله:

{ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ }
[النساء:165]، ولا يكفي مجرد الإشهاد الروحاني في قيام الحجّة؛ لأن ذلك العهد نسيت الأرواح حين دخلت في عالم الأشباح، فلا تهدي إليه إلا بدليل يُذكرها ذلك.

قال البيضاوي: والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا: إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام، بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعهم من التقليد، وحملهم على النظر والاستدلال، كما قال تعالى: { وكذلك نفصل الآيات } الدالة على وحدانيتنا سمعاً وعقلاً، { ولعلمهم يرجعون } عن التقليد واتباع الباطل.

الإشارة: أَحَدَ الْحَقِّ جَلِّ جلاله العهد على الأرواح أن تعرفه وتُوحده مرتين، أحدهما: قبل ظهور الكائنات، والثاني: بعد ظهورها. والأول أخذه عليها في معرفة الربوبية، والثاني تجديداً له مع القيام بأداب العبودية. قال بعضهم: أخذ الأول على الأرواح يوم المقادير، وذلك قبل السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم أخذ الثاني على النفوس بعد ظهورها في عالم الأشباح، كما نبهت عليه الآية والأحاديث.

وقال ابن الفارض في تائيته:

وَسَاقِ عَهْدٍ لَمْ يَحُلْ مُذْ عَهْدُهُ
وَلَا حِقِّ عَقْدٍ جَلَّ عَنْ حَلِّ فِئْرِهِ
قال القاشاني: أراد بالعهد السابق: ما أخذه الله على الأرواح والإنسانية المستخرجة من صلب الروح الأعظم، الذي هو آدم الكبير، في صور المثل، قبل تعلقها بالأشباح، وهو عقد المحبة بين الرب والمربوب، في قوله سبحانه: { وإذ أخذ ربك... } الآية. وبالعهد اللاحق: ما أخذه عليهم بواسطة الأنبياء، من عقد الإسلام بعد التعلق بالأبدان، وهو توكيد للعهد الأول، وتوثيقه بالتزام أحكام الربوبية والتزامها. هـ. وقال في الحاشية: كلام ابن الفارض ينظر إلى العهد الأول، الروحاني، وكلام غيره ينظر إلى الثاني النفساني، وهو ظاهر الآية. هـ. قلت: وفيه نظر، فإن كلام ابن الفارض مشتمل على الهدين معاً، الروحاني في الشطر الأولى، والنفساني في الشطر الثاني.

والحاصل مما تقدم: أن العهد أخذ على الأرواح ثلاث مرات، أحدها: حين استخرجت من صلب الروح الأعظم الذي هو آدم الكبير، وهو معنى القبضة النورانية، التي أخذت من عالم الجبروت. والثاني: حين استخرجت من صلب آدم الأصغر، كالذر، والثالث: حيث دخلت في عالم الأشباح، على السنة الرسل، ومن ناب عنهم، فالمذكور في الآية هو الثاني، وهو أحسن من حمل القاشاني الآية على الأول.

فالحاصل: أن الأخذ الأول كان على الأرواح مجردة عن مادة التطوير والتمثيل، بإقرارها إقرار النفوس، لا إقرار الألسنة، والأخذ الثاني كان على الأرواح بعد خروجها من الوجود العلمي إلى الوجود العيني، فتطورت الأرواح بصفات الذاتية، من سمع وبصر ولسان وغيرها، في عالم المثال، بصور مقالية؛ لتُبصر بها ظهور الرب، وتسمع خطابه، وتجب سؤاله، بإقرارها حينئذٍ إقرار الألسنة، وهو الذي

يقتضيه ظاهر الآية. وأما العهد الذي أخذه عليها، فلا بد من انضمامه إلى الأوّلين في قيام الحجة، كما تقدم.

فالموجدات ثلاث: علمي، ثم خيالي مثالي، ثم نوعي حسي. فأخذ على كل واحد عهد؛ من الأوّلين بلا واسطة، والثالث بواسطة الرسل. والله تعالى أعلم.

@ { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ. } * { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَآكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } * { سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ } * { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَآئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }

قلت: أتبعه الشيطان: أدركه، يقال: أتبع القوم: لحقهم، ومنه: { فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ } [يونس:90]، أي: لحق بني إسرائيل. قاله في الأساس.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { واتلّ عليهم }؛ على اليهود { نبأ } أي: خبر { الذي آتيناه آياتنا }؛ علمًا بكتابتنا، { فانسلخ منها }؛ بأن كفر بها، وأعرض، { فاتبعه الشيطان } فأدركه { فكان من العاوين }. قال عبد الله بن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدين، داعيًا إلى الله، فرشاه الملك، وأعطاه الملك على أن يترك دين موسى، ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضل الناس على ذلك.

وقال ابن عباس: هو رجل من الكنعانيين، اسمه: " بلعم "، كان عنده الاسم الأعظم، فلما أراد موسى قتل الكنعانيين، وهم الجبارون، سألوه أن يدعو على موسى باسم الله الأعظم، فأبى، فألحوا عليه حتى دعا ألا يدخل المدينة، ودعا موسى عليه. فالآيات التي أعطيتها، على هذا: اسم الله الأعظم، وعلى قول ابن مسعود: هو ما علمه موسى من الشريعة. قيل: كان عنده من صحف إبراهيم. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان قد أوتي علمًا وحكمة، وأراد أن يُسلم قبل غزوة بدر، ثم رجع عن ذلك ومات كافرًا، وكان قد قرأ الكتب، وخالط الرهبان، وسمع منهم أن الله تعالى مرسلٌ رسولاً في ذلك الزمان، فَرَجَا أن يكون هو، فلما بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم حسده، وقال: ما كنت لأؤمن لرسول من ثقيف.

قال تعالى: { ولو شئنا لرفعناه } إلى منازل الأبرار { بها } أي: بسبب تلك الآيات وملازمتها، { ولكنه أخلد إلى الأرض } أي: مال إلى الدنيا وحطامها، أي: أخلد إلى أرض الشهوات، { واتبع هواه } في إثارة الدنيا واسترضاء قومه، أو صيانة رئاسته وجاهه. قال البيضاوي: وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها، فأوقع موقعه: { أخلد إلى الأرض واتبع هواه } مبالغةً وتنبهًا على ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. هـ. { فمثله } أي: فصفته التي هي مثلٌ في الخسة، { كمثل الكلب } أي: كصفته في أخس أحواله، وهو { إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث } أي: يلهث دائمًا، سواء حمل عليه بالزجر والطرده، أو ترك ولم

يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات؛ لضعف فؤاده، واللهث: إدلاع اللسان من التنفس الشدد، والمراد: لازم اللهث، وهو نفي الرفع ووضع المنزلة.

قال ابن جزي: اللهث: هو تنفس بسرعة، وتحريك أعضاء الفم، وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات عند الحر والتعب، وهي حالة دائمة للكلب، ومعنى "إن تحمل عليه": أن تفعل معه ما يشق عليه، من طرد أو غيره، أو تتركه دون أن تحمل عليه، فهو يلهث على كل حال. ووجه تشبيه ذلك الرجل به أنه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، فضلالته على كل حال. هـ. وقال الواحدي: وذلك أنه زجر في المنام عن الدعاء على موسى، فلم ينزجر، وترك عن الزجر، فلم يهتد. هـ. وقيل. هـ. أن ذلك الرجل خرج لسانه على صدره، فصار مثل الكلب، وصورته ولهته حقيقة. هـ. وفعل به ذلك حين دعا على موسى عليه السلام. وفي ابن عطية: ذكر "المعتمد" أن موسى قتله.

قال تعالى: { ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا }؛ صفتهم كصفة الكلب في لهته وخسته، أو كصفة الرجل المشبه به، لأنهم إن أنذروا لم يهتدوا، وإن تركوا لم يهتدوا. أو شبههم بالرجل في أنهم رأوا الآيات فلم تنفعهم، كما أن الرجل لم ينفعه ما عنده من الآيات. وقال الواحدي: يعني: أهل مكة كانوا متمنين هادياً يهديهم، فلما جاءهم من لا يشكون في صدقه كذبوه، فلم يهتدوا لَمَّا تُرِكُوا، ولم يهتدوا أيضاً لما دعوا بالرسول، فكانوا ضالين عن الرسول في الحالتين. هـ.

{ فاقصص القصصَ } المذكور على اليهود، فإنها نحو قصصهم، { لعلمهم يتفكرون } تفكراً يُؤدِّي إلى الانعاط، فيؤمنوا به، فإنَّ هذه القصص لا توجد عند من لم يقرأ إلا بوحى، فيتيقنوا نبوتك. { ساءَ } أي: قبح { مثلاً } مثل { القوم الذين كذبوا بآياتنا }؛ حيث شَبَّهوا بالكلاب اللاهثة، { وأنفسهم كانوا يظلمون } بتعريضها للهلاك. قال البيضاوي: إما أن يكون داخلياً في الصلة، معطوفاً على { الذين كذبوا }، بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها، بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، فإن وباله لا يتخطاها ولذلك قدّم المفعول. هـ.

{ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }، هو تصريح بأن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأنَّ هداية الله يخص بها بعضاً دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتمام، والإفراد في الأول والجمع في الثاني؛ لاعتبار اللفظ والمعنى، تنبيهاً على أن المهتدين كواحد؛ لاتحاد طريقهم، بخلاف الضالين. والافتقار في الإخبار عن هداية الله بالمهتدي: تعظيمٌ لشأن الاهتمام، وتنبيه على أنه، في نفسه، كمال جسيم، ونفع عظيم، لو لم يحصل له غيره لكفاه، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الحديث: " أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْقَعُهُ عِلْمُهُ " والعلم النافع هو الذي تصحبه الخشية والمراقبة والتعظيم والإجلال، ويوجب لصاحبه الزهد والسخاء والتواضع والأنكسار، وهو علم التوحيد الخاص، الذي هو مشاهدة الحق. وقال الورتجي في قوله: { آتِنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلْخْ مِنْهَا }؛ ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجاً

بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه وعداوة كليمة بقوله: { فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين } ، ولو ذاق طعم حبه لم يلتفت إلى غيره، مُكِرَّ به في الأزل، فكان مكربه مستدامًا إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة عارضه للامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر العرض الطارئ.

وقال في الإحياء: إن بلعم أوتي كتاب الله تعالى فأخذ إلى الشهوات، فشبهه بالكلب، أي: سواء أوتي الحكمة أو لم يؤتها فهو يلهث إلى الشهوات. هـ. وفي ذكر قصته تحذير لعلماء هذه الأمة وصلحائها. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من أخذت نفسه إلى أرض الشهوات، وغلبته عن النهوض إلى الطاعات، فدواؤه في حرفين، أحدهما: أن يذكر منة الله عليه بنعمة الإيمان والإسلام، ويقيد هذه النعمة بالشكر، لئلا تفلت من يده، والثاني: أن يتوجه إلى الله بالتضرع والاضطرار، أثناء الليل والنهار، وفي رمضان راجيًا للإجابة، قائلًا: اللهم سلم سلم. فإن أهمل هاتين الخصلتين فالشقاوة لازمة له. هـ. بالمعنى لطول العهد به. وبالله التوفيق.

@ { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَصْلًا أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { ولقد ذرأنا }؛ خلقنا { لجهنم كثيرًا من الجن والإنس }؛ كتبنا عليهم الشقاء في سابق الأزل، فهم من قبضة أهل النار، كما قال: " هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي " .

ثم ذكر علامتهم فقال: { لهم قلوبٌ لا يفقهون بها } المواعظ والتذكير؛ للأكنة التي جعلت عليها، { ولهم أعين لا يبصرون بها } دلائل وحدانيتنا وكمال قدرتنا، فلا ينظرون بها نظر اعتبار، { ولهم آذان لا يسمعون بها } الآيات والمواعظ، سماع تأمل وتدبير، { أولئك كالأنعام } في عدم التفقه والاستبصار، أو في أن همهم ومشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش، مقصورة عليها، فهمهم في بطونهم وفروجهم، { بل هم أضلُّ } من الأنعام، لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة، وأيضًا: الأنعام رُفِع عنها التكليف فلا تعذب، بخلاف الكافر، وأيضًا: البهائم تقبل الرياضة والتأديب لِمَا يراد بها، والكافر عاص على الدوام، { أولئك هم الغافلون } الكاملون في الغفلة المنهمكون فيها.

الإشارة: النار على قسمين: حسية ومعنوية، كما أن الجنة كذلك، فالنار الحسية لتعذيب الأشباح، والنار المعنوية لتعذيب الأرواح، والجنة الحسية لنعيم الأشباح، والمعنوية لنعيم الأرواح. النار الحسية معلومة، والنار المعنوية هي نار القطيعة وغم الحجاب، وأهلها هم أهل الغفلة، وهم كثير من الجن والإنس، ليس لهم قلوب تجول في معاني التوحيد، وليس لهم أعين تنظر بعين الاعتبار، وليس لهم آذان تسمع المواعظ والتذكير، إن هم إلا كالأنعام، غير أن الله تعالى تفضل عليهم برسم الإسلام. والجنة الحسية هي جنة الزخارف، والجنة المعنوية هي جنة المعارف، وأعدّها الله لقلوب تجول في الأنوار والأسرار، ولأعين تنظر بعين الاعتبار والاستبصار، حتى تشاهد أنوار الواحد القهار، ولآذان تسمع المواعظ والتذكير، وتعني ما تسمع من الحكم والأسرار، وبالله التوفيق.

@ { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيهَا أَسْمَاءَهُ سَيُجْرَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولله الأسماء الحسنى } تسعة وتسعين، { فادعوه بها } أي: سموه بها. قال ابن جزي: أي: سموه بأسمائه، وهذا إباحة لإطلاق الأسماء على الله سبحانه، فأما ما ورد منها في القرآن والحديث فيجوز إطلاقه على الله إجماعاً، وأما ما لم يرد، وفيه مدح ولا تتعلق به شبهة، فأجاز أبو بكر بن الطيب إطلاقه على الله، ومنع ذلك أبو الحسن الأشعري وغيره، ورأوا أن أسماء الله تعالى موقوفة على ما ورد في القرآن والحديث. وقد ورد في حديث الترمذي عدتها، أعني: تعيين التسعة والتسعين.

واختلفت أهل الحديث: هل هي مرفوعة أو موقوفة على أبي هريرة؟ والذي في الصحيح: " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ " وهل الإحصاء بالحفظ أو بالعلم أو بالتخلق أو بالتعلق أو بالتحقق؟ أقوال. قلت: كونها موقوفة بعيد جدًّا؛ إذ ليس هذا مما يقال بالرأي.

وسبب نزول الآية: إن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ، فيذكر الله مرة، والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإله واحد، وها هو يعبد آلهة كثيرة، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمى واحد، { الحسنى } مصدر وُصف به، أو تأنيث أحسن، وحسن أسماء الله هي أنها صفة مدح وتعظيم وتحميد، وقيل: الدعاء بها: التوسل بكل واحد منها.

قال تعالى: { وَذَرُّوا } أي: اتركوا { الذين يُلْحِدُونَ } أي: يميلون { في أسمائه } عن الكمال؛ إما بتعطيلها، أو إنكار شيء منها، وإما بزيادة فيها، مما يوهم نقصًا أو فسادًا.

قال القشيري: الإلحاد: هو الميل عن القصد، وذلك على وجهين: بالزيادة والنقصان؛ فأهل التمثيل زادوا فألحدوا، وأهل التعطيل نقصوا فألحدوا. هـ. قال البيضاوي: أي: اتركوا تسمية الزائغين فيها، الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنىً فاسدًا، كقولهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه، كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو: وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام، واشتقاقها منه؛ كالكلمات من الله، والعزى من العزيز، فلا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم ولا تحاوروهم. هـ.

قال ابن جزي: قيل: معنى { ذروا } اتركوهم فلا تجادلوهم ولا تتعرضوا لهم، فالآية، على هذا، منسوخة بالقتال، وقيل: معنى { ذروا } للوعيد والتهديد، كقوله: { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ } [المزمل: 11]، وهو الأظهر. هـ. قلت: وهو أليق بقوله بعده: { سَيُجْرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } من الإلحاد وغيره.

الإشارة: قال القشيري بعد كلام: ويقال إن الله سبحانه وقف الخلق بأسمائه، فهم يذكرونها قاله، وتعزَّرَ بذاته، والعقول - وإن صَفَّتْ - لا تهجم على حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بواده الحقائق متفنة

بنقاب الحيرة عن التعرض للإدراك، وطلبه في أحوال الرؤية. والحق سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي مُتَّفَرِّد. هـ.

قلت: وأسماء الله الحسنی كلها تتجلى في مظاهر الإنسان، وتتوارد عليه انفرادًا واجتماعًا، وقد تجتمع في واحد إذا كان عارقًا، كلها بحيث يتخلق بها، غير أن تجلياتها تختلف عليه، تارة ملكًا قدوسًا، وتارة رحمانًا رحيمًا، وهكذا. وقد تقدم بيان كيفية التعلق والتخلق والتحقق بها، في شرحنا: الفاتحة الكبير، والله تعالى أعلم.

@ { وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وممن خلقنا } أي: ومن جملة ما خلقنا: { أمة } طائفة { يهدون } الناس { بالحق } ويحملونهم عليه، { وبه يعدلون } في حكوماتهم وقضاياهم. رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى ".

قال البيضاوي: ذكر ذلك بعدما ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين، ملحدين عن الحق، للدلالة على أنه خلق أيضًا للجنة أمة، هادين بالحق، عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع، لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال من أممي طائفة على الحق، إلى أن يأتي أمر الله " إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة، فإنه معلوم. هـ.

الإشارة: هذه الأمة التي خلقها الله لهداية خلقه، وهي اطائفة التي لا تزال على الحق، وهي مؤلفة من العلماء الأتقياء على اختلاف أصنافهم وعلومهم، ومن الأولياء العارفين، بالعلماء يهدون إلى التمسك بالشرائع وإتقانها، والأولياء العارفون يهدون إلى التحقق بالحقائق وأذواقها، فالعلماء داعون إلى أحكام الله، والعارفون داعون إلى معرفة ذات الله، العلماء لإصلاح الظواهر، والأولياء لإصلاح البواطن، ولا يقوم هذا إلا بهذا، فالظاهر من غير باطن فسق، والباطن من غير ظاهر إحداد، وسيأتي عند قوله:

{ فَلَوْلَا تَقَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... }

[التوبة: 122] الآية، تمثيل منزلتهم عند الله، والله تعالى أعلم.

@ { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } * { وَأُمَلِي لَهُمْ إِنْ كَبِدِي مَتِينٌ }

قلت: أصل الاستدراج: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومعناه: نسوقهم إلى الهلاك شيئًا فشيئًا.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { والذين كذبوا بآياتنا } ، وألحدوا في أسمائنا، { سنستدرجهم } أي: ندرجهم إلى الهلاك شيئًا فشيئًا، { من حيث لا يعلمون } ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر النعم عليهم، فيظنوا أنها لطفٌ من الله بهم، فيزدادوا بطرًا وانهماكًا في الغي، حتى تحق عليه كلمة العذاب. { وأملي لهم } أي:

وأهلهم، أي: وأمدهم بالأموال والبنين والعدة والعدد، حتى نأخذهم بغتة، { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } أي: أخذي شديد، وإنما سماه كيدًا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

الإشارة: قال الشيخ زروق رضي الله عنه: الاستدراج: هو كُمون المحنة في عين المنة، وهو من درج الصبي؛ إذا أخذ في المشي شيئًا بعد شيء، ومنه: الدرج الذي يرتقي عليه إلى العلو، كذلك المستدرج هو الذي تُؤخذ منه النعمة شيئًا بعد شيء وهو لا يشعر. قال تعالى: { سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } هـ. فالاستدراج ليس خاصًا بالكفار، بل يكون في المؤمنين؛ خواصهم وعوامهم.

قال في الحكم: " خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجًا لك؛ { سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } ". وقال سهل بن عبدالله رضي الله عنه: نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم: أخذوا.

وقال ابن عطاء رضي الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة. وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: الخوف من الاستدراج بالنعم من صفة المؤمنين، وعدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفة الكافرين. يقال: من أمارات الاستدراج: ركوب السيئة والاعتزاز بزمن المهلة، وحمل تأخير العقوبة على استحقاق الوصلة، وهذا من المكر الخفي. قال تعالى: { سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ } أي: لا يشعرون بذلك، وهو أن يلقي في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك، يستدرجهم في ذلك شيئًا فشيئًا، حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: { فلما نسوا ما ذُكروا به }؛ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم، بعدما رأوا من الشدة، { فتحننا عليهم أبواب كل شيء } أي: فتحنا عليهم أسباب العوافي وأبواب الرفاهية، { حتى إذا فرحوا بما أوتوا } من الحظوظ الدنيوية، ولم يشكروا عليها برجوعهم منها إلينا، { أخذناهم بغتة } أي: فجأة، { قَادًا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام:44]؛ أيسون قانطون من الرحمة. هـ.

@ { أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } * { أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَا أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ قِيَايَ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } * { مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }

قلت: { وما خلق } عطف على { ملكوت } ، و { أن عسى } : مخففة، و { أن يكون } : مصدرية، أو عطف على { ملكوت } أيضًا.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { أو لم يتفكروا } في أمر محمد صلى الله عليه وسلم؛ حتى يتحققوا أنه { ما بصاحبهم من جنة }؛ يعني: نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم. روي أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بالإنذار صعد الصفا، فدعاهم، فخذًا فخذًا، يُحذرهم بأس الله تعالى، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، بات يَصوت إلى الصباح، فنزلت.

{ إن هو إلا نذير مبين } أي: بين الإنذار واضح أمره، لا يخفى على ناظر. { أو لم ينظروا } نظر استدلال { في ملكوت السماوات والأرض } أي: في عظمتها وما اشتملتا عليه من العجائب، { وما خلق الله من شيء } أي: وينظروا فيما خلق الله من شيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، لتدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها، وعظم شأن مالكتها ومتولي أمرها، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه.

{ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم } أي: أو لم ينظروا أيضًا في اقتراب أجلهم وتوقع حلول الموت بهم، فيسارعوا إلى طلب الحق، والتوجه إلى ما ينجيهم من عذابه، قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب. { فبأي حديث بعده } أي: بعد القرآن، { يؤمنون } إن لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان؟ كأنه إخبار عنهم بالطبع على القلوب والتصميم على الكفر، بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر، وقيل: هو متعلق بقوله: { وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم }؛ كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يُبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه؟ وإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به؟!.. قاله البيضاوي.

ثم بين أن أمرهم بيده، فقال: { من يضل الله فلا هادي له } أصلًا، ولا يقدر أحد عليه، { ونذرهم في طغيانهم يعمهون } : يتحIRON. ومن قرأ بالياء فمناسب لقوله: { من يضل } ، ومن جزمه فعطف على محل: { فلا هادي له }؛ لأنه جواب الشرط.

الإشارة: قد أرشد الحق - تعالى - عباده إلى التفكير والاعتبار، وقد تقدم الكلام عليه في " آل عمران " ، وقد علم هنا أهل الاستدلال كيفيته؛ وهو أن ينظر الإنسان في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وما ظهر على يديه من المعجزات وخوارق العادات، وأعظمها القرآن العظيم، ثم ما أتى به من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وما نطق به من الحكم العجيبة، وما أخبر به من قصص الأمم الدارسة والشرائع المتقدمة، مع كونه أميًا لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجالس أحدًا ممن له خبرة بذلك، فتطلع عليه شمس المعرفة به حتى لا يخالطه وهمٌ، ولا يخطر بساحته خاطر سوء، ثم يتفكر في عجائب ملكوت السماوات والأرض، وما اشتملتا عليه من ضروب المصنوعات، وعجائب المخلوقات، فيتحقق بوجود الصانع القادر على كل شيء، هذا إن لم يجد شيخًا يُخرجه من سجن الدليل، وإن وجده استغنى عن هذا بإشراق شمس العرفان، والخروج إلى فضاء الشهود والعيان.

@ { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: إنما سميت القيامة ساعة: لسرعة حسابها، أو وقوعها، لقوله: { وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } [التحل:77].

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يسألونك } أي: قريش، { عن الساعة } أي: قيام الناس من قبورهم للحساب، { أتبان مُرساها } أي: متى إرساؤها، أي: ثبوتها ووقوعها؟ { قل إنما علمها عند ربي }؛ استأثر بعلمها، لم يطلع عليها ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا { لا يُجليها لوقتها } أي: لا يُظهرها عند وقت وقوعها، { إلا هو }، والمعنى إن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها، { تُقَلَّت في السماوات والأرض }؛ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفاءها. أو تُقَلَّت على السماوات والأرض أنفسهما؛ لتبدلها وتغير حالهما، { لا تأتيكم إلا بغتة }؛ فجأة على غفلة، كما قال صلى الله عليه وسلم " إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيحُ بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَصِلُحُ حَوْصَهُ، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيَتَهُ، وَالرَّجُلُ يَقُومُ سِلْعَتَهُ فِي سُوقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَاتَهُ وَيَرْفَعُهُ " والمراد: النفخ في الصور للصعق، لأن الساعة مُرْتَبَةٌ عليه وقريبة منه.

{ يسألونك كأنك حفي عنها } أي: عالم بها، من حفى على الشيء: إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه، استحكم علمه فيه، أي: يسألونك عن وقت قيامها، كأنك بليغ في السؤال عنها فعلمتها، وليس كما يزعمون، وأما قوله:

{ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا }

[التَّارِعَات:43]: فقل: معناه: التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال، أي: في أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يُعارض ما هنا؛ لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية، وبعدها نزلت هذه، والله أعلم.

وقيل: " عنها " يتعلق بـ { يسألونك }، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي: شفيق بهم، قيل: إن قريشًا قالوا: إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا: متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى: { قبل إنما علمها عند الله }؛ لا يعلمها غيره، وكرره؛ لتكرر " يسألونك ". { ولكن أكثر الناس لا يعلمون } أن علمها عند الله لم يؤته أحدًا من خلقه.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلية حاصلة، والغائبة حاضرة، والآجلة عاجلة، فأهل اليقين الكبير قدّموا ما كان آتيًا، فحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن تُوزن عليهم، وجازوا الصراط بلسوكهم المنهاج المستقيم، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف، فالموت في حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحكيم: " لو أشرق لك نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة القنأ عليها ".

قال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: نور اليقين تتراءى به حقائق الأمور على ما هي عليه، فيحق به الحق، ويبط به الباطل، والآخرة حق، والدنيا باطل، فإذا أشرق نور اليقين في قلب العبد أبصر به الآخرة التي كانت غائبة عنه حاضرة لديه، حتى كأنها لم تزل، فكانت أقرب إليه من أن يرتحل إليها، فحق بذلك حقها عنده، وأبصر الدنيا الحاضرة لديه، قد انكسف نورها وأسرع إليها الفناء والذهاب، فغابت عن نظره بعد أن كانت حاضرة، فظهر له بطلانها، حتى كأنها لم تكن، فيوجب له هذا النظر اليقيني الزهادة في الدنيا والتجافي في زهرتها،

والإقبال على الآخرة، والتهيؤ لنزول حضرتها، ووجدان العبد لهذا هو علامة انشراح صدره بذلك النور.
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ القَلْبَ انشَرَحَ له الصَّدْرُ وانفَسَحَ " ، وَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ لَدُنكَ مِنْ عَلامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا؟ قال: " نَعَمْ. النَّجَافِي عَن دَارِ العُزُورِ، وَالإِتابَةُ إِلى دَارِ الخُلُودِ، وَالاسْتِعدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ " أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - .

وعند ذلك تموت شهواته وتذهب دواعي نفسه، فلا تأمره بسوء، ولا تطالبه بارتكاب منهى، ولا تكون لهم همة إلا المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة لاغتنام الساعات والأوقات، وذلك لاستشعاره حلول الأجل، وفوات صالح العمل، وإلى هذا الإشارة بحديثي حارثة ومعاذ - رضي الله عنهما - . روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " كَيْفَ أَصْبَحْتَ يا حارثَةُ؟ " قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: " انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة؟ " فقال: يا رسول الله عَرَفْتُ نَفْسِي عَن الدُّنْيا فَأَسْهَرْتُ لَيْلي وَأظْمَأْتُ نَهاري، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يَتَرَاوَرُونَ فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها، فقال: " أَبْصَرْتَ فَالزَّمْ، عَبْدُ نَورِ اللّهُ الإِيمانَ في قلبه.. " إلى آخر الحديث.

وروى أنس رضي الله عنه أيضاً: أن معاذ بن جبل دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فقال له: " كيف أصبحت يا معاذ؟ " فقال: أصبحت بالله مؤمناً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ لِكُلِّ قَولِ مِصدَاقًا، وَلِكُلِّ حَقِّ حَقيقَةَ، فَمَا مِصدَاقُ ما تَقولُ؟ " فقال: يا نبيَّ اللّهِ، ما أَصْبَحْتُ صابِحًا قَطٍ إِلا ظننتُ أَني لا أَمْسِي، ولا أَمْسِيْتُ قَطٍ إِلا ظننتُ إِني لا أَصْبِحُ، ولا حَطَوْتُ خَطوَةً قَطٍ إِلا ظننتُ أَني لا أَتبعُها أُخْرى، وكأني أنظرُ إِلى كُلِّ أُمَّةٍ جاثية تُدعى إِلى كِتابِها، مَعها نَبِيُّها وَأَوتائُها التي كانت تَعْبُدُ من دونِ اللّهِ، وكأني أنظرُ إِلى عُقُوبَةِ أَهلِ النَّارِ وَثِوابِ أَهلِ الجَنَّةِ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " عَرَفْتُ فَالزَّمْ " أنظر بقية كلامه رضي الله عنه.
@ { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا ولا ضَرًّا إِلا ما شاءَ اللّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ العَيبَ لاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وما مَسَّنِي السُّوءُ إِنَّ انا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {

قلت: { وما مسني السوء } : عطف على " استكثرث " ، أي: لو علمت الغيب لاستكثرث الخير واحترست من السوء، أو استئناف، فيوقف على ما قبله، ويراد حينئذ بالسوء: الجنون، والأول أحسن؛ لاتصاله بما قبله، و { لقوم } : يجوز أن يتعلق ببشير ونذير، أي: أبشر المؤمنين وأنذرهم، وخصهم بالبشارة والندارة لاتفاعهم بهما، ويجوز أن يتعلق بالبشارة وحدها، فيوقف على { نذير } ، ويكون المتعلق بنذير محذوف، أي: نذير للكافرين، والأول أحسن. قاله ابن جزي.

يقول الحق جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد: أنا { لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضَرًّا } أي: لا أجلب لها نفعًا ولا أَدفع عنها ضَرًّا، { إلا ما شاء الله } من ذلك، فيعلمني به، ويوقفني عليه، وهو إظهار للعبودية والتبيري من ادعاء العلم بالغيوب، { ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرث من الخير وما مسني السوء } أي: لو كنت أعلم ما يستقبلني من الأمور المغيبة؛ كشدائد الزمان وأهواله، لاستعددت له قبل نزوله باستكثر الخير والاحتراس من الشر، حتى لا يمسنني سوء، { إن أنا إلا

نذير وبشير { أي: ما أنا إلا عبد مرسل بالإنذار والبشارة { لقوم يؤمنون }؛ فإنهم المنتفعون بهما، أو نذير لمن خالفني بالعذاب الأليم، وبشير لمن تبغني بالنعيم المقيم.

الإشارة: العبودية محل الجهل وسائر النقائص، والربوبية محل العلم وسائر الكمالات، فمن آداب العبد أن يعرف قدره، ولا يتعدى طوره، فإن ورد عليه شيء من الكمالات فهو وارد من الله عليه، وإن ورد عليه شيء من النقائص فهو أصله ومحلّه، فلا يستوحش منه، وكان شيخنا يقول: إن علمتَ فمن ربنا، وإن جهلنا فمن أصلنا وفصلنا. أو كلام هذا معناه، فالاستشراق إلى الاطلاع على علم الغيوب من أكبر الفضول، وموجب للمقت من علم الغيوب. والله تعالى أعلم.

@ { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } * { فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { هو الذي خلقكم من نفس واحدة }؛ آدم عليه السلام، { وجعل منها زوجها } أي: خلق من ضلعها زوجها حواء، سلها منه وهو نائم، { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }؛ ليستأنس بها، ويطمئن بها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه.

{ فلما تغشاهما } أي: جامعها حين رُكبت فيه الشهوة، { حملت حملاً خفياً } أي: خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى بعضُ الحبالى من حملهن من الأذى والكرب، أو حملاً خفياً، يعني النطفة قبل تصورهما، { فمرت به } أي: ذهبت وجاءت به، مخفية، واستمرت إلى حين ميلاده، { فلما أثقلت } أي: ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبره في بطنها، { دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا } آدم وحواء، قائلين: { لئن آتينا ولدًا } صالحًا { أي: سويًا سالمًا في بدنه، تام الخلقة، { لنكونن } لك { من الشاكرين } على هذه النعمة المجددة.

{ فلما آتاهما } ولدًا { صالحًا } كما سألا، جعل أولادهما { له شركاءَ فيما آتاهما }، فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد الدار. فالآية إخبار بالغيب في أحوال بني آدم ممن كفر منهم وأشرك، ولا يصح في آدم وحواء هذا الشرك؛ لعصمة الأنبياء، وهذا هو الصحيح. وقد يُعاتبُ الملكُ الأب على ما فعل أولاده، كما إذا خرجوا عن طاعته فيقول له: أولادك فعلوا وفعلوا، على عادة الملوك.

وقيل: لما حملت حواء آتاهما إبليسُ في صورة الرجل، فقال لها: وما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب، وما يدريك من أين يخرج؟ فخافت من ذلك، ثم قال لها: إن أطعتيني، وسميته عبد الحارث، فسأخضه لك، وكان اسم إبليس في الملائكة: الحارث، وإن عطيتني قتلتها، فأخبرت بذلك آدم، فقال لها: إنه عدونا الذي أخرجنا من الجنة، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة أخرى، فقال لها إبليس مثل ذلك، فعصته، فلما ولدت مات الولد، ثم حملت مرة ثالثة، فسمياه عبد الحارث؛ طمعًا في حياته فقوله: { جعلنا له شركاءَ فيما آتاهما } أي: في التسمية لا غير، لا في عبادة غير الله.

والقول الأول أصح، لثلاثة أوجه: أحدها: أنه يقتضي براءة آدم وحواء من الشرك، قليله وكثيره، وذلك هو حال الأنبياء - عليه السلام - . والثاني: أن جمع الضمير في قوله: { فتعالى الله عما يشركون } ، يقتضي أن الشرك وقع من أولادهما، لا منهما. الثالث: أن هذه القصة تفتقر إلى نقل صحيح، وهو غير موجود. انظر: ابن جزري.

الإشارة: قال الورتجبي: في قوله { ليسكن إليها } : لم يجد آدم عليه السلام في الجنة إلا سناً تجلى الحق، فكاد أن يضمحل بنور التجلي، لتراكمه عليه، فعلم الله - سبحانه - أنه لا يتحمل أثقال التجلي، وعرف أنه يذوب في نور حسنه، وكل ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن آدم إليها، ويستوحش بها سُويغات من سطوات التجلي، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة - رضي الله عنها -: " كلميني يا حُميراء " ثم قال: وقال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلما سكن إليها غفل عن مخاطبة الحقيقة، بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة. هـ. فكل من سكن إلى غير الله تعالى كان سكونه بلاء في حقه، يخرج من جنة معارفه. والله تعالى أعلم.

@ { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ } * { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } * { وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } * { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } * { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ }

يقول الحق جلّ جلاله: { أَيُشْرِكُونَ } مع الله أصنامًا جامدة، لا يخلقون شيئًا { وهم يُخْلِقُونَ } ، فهي مخلوقة غير خالقة. والله تعالى خالق غير مخلوق، { ولا يستطيعون لهم نصرًا } أي: لا يقدر أن ينصروا من عبدهم، { ولا أنفسهم ينصرون } فيدفعون عنها ما يعتربها، فهي في غاية العجز والذلة، فكيف تكون آلهة؟.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ } أي: وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا تجيبكم، فلا تهتدي إلى ما دعيت إليه؛ لأنها جمادات، أو: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى الحق لا تجيبكم، { سواءً عليكم أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } عن دعائهم، فالدعاء في حقهم وعدمه سواء، وإنما لم يقل: أم صمتم؛ ليفيد الاستمرار على عدم إجابتهم: لأن الجملة الاسمية تقتضي الاستمرار.

ثم قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، هم { عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } من حيث أنها مسخرة مملوكة، فكيف يعبد العبد مع ربه، { فادعوهم فليستجيبوا لكم إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } في أنها تستحق أن تُعبد، والأمر للتعجيز؛ لأن الأصنام لا تقدر أن تجيب فلا تستحق أن تعبد.

ثم عاد عليهم بالنقض فقال: { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } ، ومعناه: أن الأصنام

جمادات عادمة للحس والجوارح والحياة، ومن كان كذلك لا يكون إلهًا، فإنَّ من وصف الإله الإدراك والحياة والقدرة. وإنما جاء هذا البرهان بلفظ الاستفهام؛ لأنَّ المشركين مقرون أن أصنامهم لا تمشي، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تُسمع، فلزمتهم الحجة، والهمزة في قوله: { أَلْهَم } للاستفهام مع التوبيخ، و { أم } ، في المواضع الثلاثة: تضمنت معنى الهمزة ومعنى بل، وليس عاطفة. قاله ابن جزري: { قل ادعوا شركاءكم }؛ استعينوا بهم في عداوتي، { ثم كيِّدُون فلا تُنظِرُون } أي: لا تؤخرون، فإنكم وأصنامكم لا تقدرُون على مضرتي وكيدي، ومفهوم الآية: الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة.

الإشارة: كل ما سوى الله قد عمه العجز والتقصير، فليس بيده نفع ولا ضرر، وفي الحديث: " لو اجتمعَ الإنسُ والجنُّ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كُتِبَ الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُرُّوك إلاَّ بشيءٍ قَدَّرَهُ اللهُ عليك " أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فالخلق كلهم في قبضة القهر، مصروفون بقدرة الواحد القهار، ليس لهم أرجل يمشون بها، ولا أيد يببطشون بها، ولا أعين يبصرون بها، ولا أذان يسمعون بها، وإنما هم مجبورون في قوالب المختارين، فلا تركز إليهم أيها العبد في شيء، إذ ليس بيدهم شيء، ولا تخف منهم في شيء، إذ لا يقدرُون على شيء. قال ابن جزري: وفيها - أي: في الآية - إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده، وأن غيره لا يقدر على شيء.

@ { إِنَّ وِلِيَّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: قل لهم أيضًا يا محمد: { إِنَّ وِلِيَّيَ اللّٰهُ } أي: هو ناصرِي وحافظني منكم، فلا تضرونني ولو حرصتم أنتم وأهنتكم، { الذي نَزَّلَ الْكِتَابَ } أي: القرآن، { وهو يتولى الصالحين } أي: ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلًا عن أنبيائه، فلا أخافكم بعد أن تولى حفطي منكم.

الإشارة: قال الفشيري: مَنْ قام بحقِّ الله تولى أموره على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولا يدعُ شيئًا من أحواله إلاَّ أجراه على ما يريد بحُسن إفضاله، فإن لم يفعل ما يريده جعل العبد راضيًا بما يفعله، فَرَوْحَ الرضا على الأسرار أتمَّ من راحة العطاء على القلوب. هـ.

@ { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } *
{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَا لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: في إتمام الرد على المشركين: { والذين تدعون من دونه { أي: تعبدونها من دونه، { لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون } ، فلا تُبال بهم أيها الرسول، { إن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون } ، يحتمل أن يريد الأصنام، فيكون تحقيرًا لها، وردًا على عبدها؛ فإنها جماد موات لا تسمع شيئًا، أو يريد الكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون، يعني: سمعًا ينتفعون به، لإفراط نفورهم، أو لأن الله طبع على قلوبهم، { وتراهم } أي: الأصنام، { ينظرون إليك وهم لا يُبصرون }؛ لأنهم مصورون بصورة من ينظر، فقوله: { وتراهم ينظرون إليك } : مجاز، { وهم لا يُبصرون } حقيقةً، لأن لهم صورة الأعين، وهم لا يرون بها

شيئًا، هذا إن جعلنا وصفًا للأصنام، وإن كان وصفًا للكفار فقلوه: { وتراهم ينظرون إليك } حقيقة، { وهم لا يُبصرون } مجاز، لأن الأبصار وقع منهم في الحس، لكن لَمَّا لم ينفعهم؛ لعمى قلوبهم، نفاه عنهم كأنه لم يكن.

قال المحشي: شاهدوا بأبصار رؤوسهم، لكنهم حجبوا عن الرؤية ببصائر أسرارهم وقلوبهم، فلم يعتد برؤيتهم. هـ.

الإشارة: في الآية تحوُّش للعبد إلى الاعتماد على الله واستنصاره به جميع أموره، فلا يركن إلى شيء سواه، ولا يخاف إلا من مولا، إذ لا شيء مع الله.

وقوله تعالى: { وتراهم ينظرون إليك... } الآية. قال المحشي: يقال: رُؤِية الأَكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن لما يحصل للقلوب من مكاشفة الغيوب، وذلك على مقدار الاحترام وحضور الإيمان. هـ. يعني: أن النظر إلى الأَكابر، من العارفين بالله، ليست مقصودة لرؤية أشخاصهم، وإنما هي مقصودة لفيضان أمدادهم، وذلك على قدر التعظيم والاحترام، وصدق المحبة والاحتشام، فكل واحد من الناظرين إليهم يغرف على قدر محبته وتعظيمه. رُوي أن بعض الملوك زار قبر أبي يزيد البسطامي، فقال: هل هنا أحد ممن أدرك الشيخ أبا يزيد البسطامي؟ فأتى بشيخ كبير، فقال: أنت أدركته، فقال: ما سمعته يقول؟ فقال: سمعته يقول: (من رأني لا تأكله النار). فقال الملك: هذا لم يكن للنبي - عليه الصلاة والسلام -؛ فقد رأه كثير من الكفار فدخلوا النار، فكيف يكون لغيره؟ فقال له الشيخ: يا هذا، الكفار لم يروه صلى الله عليه وسلم على أنه رسول الله، وإنما رأوه على أنه محمد بن عبد الله، فسكت. والله تعالى أعلم.

@ { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } * { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لنبه صلى الله عليه وسلم: { خُذِ الْعَفْوَ } أي: اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها، أو: خذ من الناس، في أخلاقهم وأموالهم ومعاشرتهم، ما سهل وتيسر مما لا يشق عليهم؛ لئلا ينفروا. فهو كقول الشاعر:

خُذِ الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي...

أو: خذ في الصدقات ما سهل على الناس من أموالهم وهو الوسط، ولا تأخذ كرائم أموالهم مما يشق عليهم، أو تمسك بالعفو عن ظلمك ولا تُعاقبه، وهذا أوفق لتفسير جبريل الآتي، { وأمر بالعرف } أي: المعروف، وهو أفعال الخير، أو العرف الجاري بين الناس. واحتج المالكية بذلك على الحكم بالعرف الذي يجري بين الناس. { وأعرض عن الجاهلين } أي: لا تكافئ السفهاء على قولهم أو فعلهم، واحلم عليهم. ولَمَّا تَرَلَّتْ سأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عنها، فقال: " لا أدري حتى أسأل، فخرج، ثم رَجَعَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مِنْ قَطْعِكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ". وعن جعفر الصادق: (أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فيها بمكارم الأخلاق)، وهي على هذا ثابتة الحكم، وهو الصحيح. وقيل: كانت مداراة للكفار، ثم نسخت بالقتال.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ }؛ ينخسك منه نخس، أي: وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به؛ كاعتراء غضب، ومقابلة سفيه، { فاستعذ بالله }

والتجىء إليه؛ { إنه سميعٌ عليمٌ } يسمع استعاذتك، ويعلم ما فيه صلاح أمرك، فلاستعاذة عند تحريك النفس مشروعة، وفي الحديث: أن رجلاً اشتد غضبه، فقال صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَدَهَبَ عَنْهُ مَا بِهِ؛ أَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ".

الإشارة: كل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم تُؤمر به أمته، وخصوصاً ورثته من الصوفية، فهم مطالبون بالتخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرهم، لأن غيرهم لم يبلغ درجتهم. وقال الورتجبي: { خذ العفو } أي: فاعف عنهم من قلة عرفانهم حَقِّك، { وأمر العرف } أي: تَلَطَّفْ عليهم في أمرك ونهيك لهم، فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك، { وأعرض عن الجاهلين } الذي ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإن منكر معجزات أنبيائي وكرامات أوليائي لا يبلغ إلى درجة القوم. قال بعض المشايخ - حين ذكر أهل الظاهر: دع هؤلاء الثقلاء. هـ. فوصف علماء الظاهر بالثقلاء؛ لثقل ظهورهم بعلم الرسوم، فلم ينهضوا إلى حقائق العلوم ودقائق الفهوم، وفي تائيه ابن الفارض:

وَجَزُّ مَثَقَلًا لَوْ خَفَّ طَفَّ مُوَكَّلًا بَمَنْقُولِ أَحْكَامٍ وَمَعْقُولِ حِكْمَةٍ
قال شارحه: أمره بالمجازرة عن المثقلين بأثقال العلوم الظاهرة، من الفقهاء، والمتكلمين بأحكام المنقولات، والفلاسفة الموكلين بالمعقولات والحكمة، ووصف مُثَقَلًا بأنه: لو خف طفا، أي: لأنه لو كان خفيفًا بوضع الأثقال عنه كان طفيفًا، لا يرى لنفسه قدرًا، واللازم منتف فالملزوم مثله. هـ.
@ { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } *
{ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ }

قلت: الطيف - بسكون الياء -: مصدر طاف به الخيال يطيف طيفًا، أو مخفف؛ من طَيْف؛ كهين ولين وميت. ومن قرأ { طائف } فاسم فاعل، والمراد به: لَمَّةُ الشيطان ووسوسته. وحذف مفعول { تذكروا }؛ للعموم على ما يأتي في المعنى. وقوله: { فإذا هم مبصرون }؛ أتى بإذا الفجائية؛ ليقضي سرعة تيقظهم، وبالجملة الاسميه ولم يقل: تذكروا فأبصروا؛ ليفيد أنهم كانوا على البُصرى، وإنما السَّنة طرقتهم ثم رجعوا عنها.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { إن الذين اتَّقَوْا } الشرك والمعاصي، { إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ } أي: لَمَّةٌ منه، كما في الحديث: " إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ وَلِلْمَلِكِ لَمَّةٌ... الخ، فإذا أخذتهم تلك السنة وغفلوا { تذكروا } عقابَ الله وغضبه، أو ثواب الله وإنعامه، أو مراقبته والحياء منه، أو مننه وإحسانه، أو طرده وإبعاده، أو حبه وإهماله، أو عدواة الشيطان وإغواءه، كلُّ على قدر مقامه، فلما تذكروا ذلك { فإذا هم مبصرون } بسبب ذلك التذكر، أي: فإذا هم على بصيرة من ربهم التي كانوا عليها قبل المس، أو: فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومكائد الشيطان فيحترزون منها، ولا يعودون إليها بخلاف المنهمكين في الغفلة، كما قال تعالى: { وإخوانهم يمدُّونهم في العيِّ } أي: وإخوان الشياطين، الذين لم يتقوا، يمدونهم، أي: ينصرونهم، ويكونون مددًا لهم في الضلال والغي؛ بالتزيين والحمل عليه، { ثم لا يُقصرُونَ }؛ لا يُمسكون عن إغوائهم حتى يُوردوهم النار، أو: لا يقصر الكفار عن غيهم وضلالهم حتى يهلكوا.

الإشارة: البصيرة حارسة للقلب، الذي هو بيت الرب، فإذا نامت طرقها الشيطان، فإن كان نومها خفيفاً أحست به وطردته، وهذه بصيرة المتقين، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: { إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا } ، وإذا كان نومها ثقبلاً سرق الشيطان ما فيها، ولم تفتن به، وهذه بصيرة الغافلين، الذين هم أخوان الشياطين.

قال القشيري: إنما يمس المتقين طيفُ الشيطان في ساعات غفلتهم عن ذكر الله، ولو أنهم استداموا ذكر الله بقلوبهم لما مسَّهم طائف الشيطان، فإن الشيطانَ لا يَقْرُبُ قَلْبًا في حال شهوده الله؛ لأنه يخنس عند ذلك، ولكل عازم فترة، ولكل عالم هفوة، ولكل عابد شدة، ولكل قاصد فترة، ولكل سائر وقفة، ولكل عارفٍ حبة. قال - عليه الصلاة والسلام -: " الجِدَّةُ تعترى خيار أمتي " فأخبر بأن خيار الأمة، وإن جلت رتبهم، لا يتخلصون عن حدة تعتربهم في بعض أحوالهم، فتخرجهم عن دوام الحلم. هـ. وكأنه يشير إلى أن طائف الشيطان يمس الواصلين والسائرين، وهو كذلك بدليل أول الآية في قوله: { وإما ينزغك... } الآية، ومسه للسائر أو الواصل زيادة به، وترقية له، وتحويش له إلى ربه، والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وإذا لم تأتِهِمْ { أي: الكفار، { بآية }؛ بمعجزة مما اقترحوا، أو من القرآن حين يتأخر الوحي، { قالوا لولا }؛ هلا { اجتبيتها } أي: تخيرتها وطلبتها من ربك، أو هلا اخترعتها وتقولتها من نفسك كسائر ما تقرأ؟ { قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي } فلا أطلب منه آية، { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [الكهف:29]، أو: لا اخترع القرآن من عند نفسي، بل أتبع ما يوحى إليَّ من ربي.

{ هذا } القرآن { بصائر } للقلوب { من ربكم } ، أي: من عند ربكم، بها تُبصر الحق وتُدرك الصواب، { وهُدًى ورحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }؛ وإرشاد أو طمأنينة لقلوب المؤمنين.

الإشارة: قد تقدم مرارًا ما في طلب الآيات من ضعف اليقين، وعدم الصدق بطريق المقربين، وإنما على الأولياء أن يقولوا: { هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون } بطريق المخصوصين. وبالله التوفيق.

@ { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وإذا قُرِئَ الْقُرْآنُ } ، مطلقًا، { فاستمعوا له وأنصتوا }؛ لكي تعتبروا وتتدبروا، وإنما نزل لذلك، وهل على الوجوب أو الاستحباب - وهو الراجح؟ قولان: وقيل: الاستماع المأمور به لقراءة الإمام في الصلاة، وقيل: في الخطبة، والأول الراجح، لوجهين: أحدهما: عموم اللفظ، ولا دليل على تخصيصه، والثاني: أن الآية مكّية، والخطبة إنما شرعت بالمدينة، وقوله تعالى:

{ لعلكم تُرحمون } أي: بسبب ما تكتسبه القلوب من الرقة والخشية عند استماع القرآن، قال بعضهم: الرحمة أقرب شيء إلى مستمع القرآن؛ لهذه الآية. قاله ابن جزي.

الإشارة: الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب، لا سيما لمن سمعه بلا واسطة، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم، وكل واحد ينال من لذة شهود المتكلم على قدر الحجاب عن المستمع، والله تعالى أعلم.

@ { وَادُّرُّ رَبَّكَ فِي تَفْسِيكَ تَصْرُعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } * { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَبَسَّحُوهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لنبه صلى الله عليه وسلم ولمن تبعه: { واذكر ربك في نفسك } أي: في قلبك؛ بحركة لسان القلب، أو في نفسك؛ سرًا بحركة لسان الحس، { تَصْرُعًا وَخِيفَةً } أي: متضرعًا وخائفًا، { ودون الجهر من القول } أي: متكلمًا كلاً ما فوق السر ودون الجهر، فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص، ولا حجة فيه لمن منع الذكر جهراً؛ لأن الآية مكية حين كان الكفر غالباً، فكانوا يسبون الذكر والمذكور، ولما هاجر المصطفى - عليه الصلاة والسلام - إلى المدينة، جهر الصحابة بالتكبير والذكر. فالآية منسوخة. انظر: الحاوي في الفتاوى للإمام السيوطي. فقد أجاب عن الآية بأجوبة.

فقوله: { بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } أي: في الصباح والعشي، حين تتيقظ من نومك الشبيه بالبعث، وحين تريد النوم الشبيه بالموت، وقيل: المراد صلاة العصر والصبح، وقيل: صلاة المسلمين، قبل فرض الخمس، وقيل: للاستغراق، وإنما خص الوقتين؛ لأنهما محل الاشتغال، فأولى غيرهما. { ولا تكن من الغافلين } عن ذكر الله.

{ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ }؛ يعني ملائكة الملائكة الأعلى، { لا يستكبرون عن عبادته وَيُسَبِّحُونَهُ }؛ يُنزهونه عما لا يليق به، { وله يسجدون } أي: يخصونه بالعبادة والتذلل، لا يشركون به غيره، وهو تعريض بالكفار، وتحريض للمؤمنين على التشبه بالملائكة الأعلى، ولذلك شرع السجود عند قراءتها. وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السُّجْدَةَ، فَسَجَدَ، اِعْتَرَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ، أَمَرَ هَذَا بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتَ قَلْبِي النَّارُ ".

الإشارة: اعلم أن الذكر على خمسة أقسام: ذكر اللسان فقط؛ لعوام المسلمين، وذكر اللسان مع القلب، لخواص الصالحين وأول المتوجهين، وذكر القلب فقط؛ للأقوياء من السائرين، وذكر الروح؛ لخواص أهل الفناء من الموحدين، وذكر السر؛ لأهل الشهود والعيان من المتمكنين، وفي قطع هذه المقامات يقع السير للسائرين، فيترقى من مقام، إلى مقام، حتى يبلغ إلى ذكر السر، فيكون ذكر اللسان في حقه غفلة.

وفي هذا المقام قال الواسطي رضي الله عنه: الذاكرون في حال ذكره أشد غفلة من التاركين لذكره؛ لأن ذكره سواه. وفيه أيضاً قال الغزالي: ذكر اللسان يُوجب كثرة الذنوب. وقال الشاعر:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي سَرِّي، وَقَلْبِي، وَرُوحِي، عِنْدَ ذِكْرِكَ
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَهْتِفُ بِي: إِيَّاكَ، وَبِحُكِّ، وَالتَّذْكَارِ إِيَّاكَ
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ شَوَاهِدُهُ وَوَاصِلَ الْكُلِّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْنَاكَ
وقوله تعالى: { إن الذين عند ربك }... الآية، قال القشيري: أثبت لهم عندية الكرامة، وحفظ عليهم أحكام العبودية؛ كي لا ينفك حال جمعهم عن نعت فرقه وهذه سُنَّةُ الله تعالى مع خواص عبادِهِ، يلقاهم بخصائص عين الجمع، ويحفظ عليهم حقائق عين الفِرْقِ، لئلا يُخْلُوا بأداب العبودية في أوان وجود الحقيقة. هـ

سورة الأنفال

@ { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } * { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلِمَا رَبَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ } * { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } * { أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { يسألونك عن { الأنفال } وهي الغنائم، سميت الغنيمة نفلًا لأنها عطية من الله تعالى، وزيادة فضل، كما يسمى ما يشترط الإمام للشجاع المقتحم خطرًا، نفلًا؛ لأنه عطية له زيادة على سهمه، وكما سمى يعقوب عليه السلام نافلة؛ لأنه عطية زائدة على ولد إبراهيم عليه السلام، حيث كان حفيده، ثم أجابهم الحق تعالى فقال: { قل الأنفال لله والرسول } أي: أمرها إلى الله ورسوله، يقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يأمره الله تعالى، وفي الوضع الذي يعينه له.

وسبب نزولها: اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم، هل في المهاجرين لفقرهم، أو في الأنصار لنصرهم، أو فيهما معًا. قال ابن جزي: وذلك أنهم كانوا يوم بدر ثلاث فرقة: فرقة مع النبي صلى الله عليه وسلم في العريش تحرسه وتؤنسه، وفرقة اتبعوا المشركين فقتلوهم وأسروهم، وفرقة أحاطوا بأسلاب العدو وعسكرهم لما انهزموا، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس، ورأت كل فرقة أنها بالغنيمة من غيرها، اختلفوا فيما بينهم. فنزلت الآية. هـ.

وقيل: شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان له غناء أن ينفله، فتسارع شبابهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا نفلهم، وكان المال قليلاً، فقال الشيخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداءً لكم، وفئة تتحازون إلينا، فلا تختصوا بشيء دوننا، فنزلت، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء. ولهذا قيل: لا يلزم الإمام الوفاء بما وعد، وهذا قول الشافعي رضي الله عنه.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قُتِلَ أَخِي عُمَيْرٌ، وَقَتَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَأَخَذْتُ سَيْفَهُ وَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتَوْهَبْتَهُ مِنْهُ، فَقَالَ: "لَيْسَ هَذَا لِي، وَلَكِنْ صَعَهُ فِي الْقَبْضِ". فَطَرَحْتُهُ، وَفِي قَلْبِي مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَتْلِ أَخِي وَأَخِذِ سَلْبِي، فَمَا جَاوَزْتُهَا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "سَأَلْتَنِي السَّيْفَ وَلَيْسَ لِي، وَإِنَّهُ قَدْ صَارَ لِي فَادْهَبْ فَخُذْهُ".

{ فاتقوا الله } في المشاجرة والاختلاف، { وأصلحوا ذات بينكم } أي أصلحوا الحال التي بينكم بالمواساة والمواددة وسلامة الصدور، ولمساعدة فيما رزقكم الله، وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، { وأطيعوا الله ورسوله } فيما يأمركم به { إن كنتم مؤمنين }؛ فإن الإيمان يقتضي الاستماع والاتباع، أو إن كنتم كاملين الإيمان؛ فإن كمال الإيمان يقتضي التمسك بهذه الخصال الثلاث: امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

ثم ذكر شروط كمال الإيمان، فقال: { إنما المؤمنون } الكاملون في الإيمان: { الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم }؛ خافت واقتشعرت لذكره؛ استعظاماً له وهيبة من جلاله، وقيل: هو الرجل يهيم بالمعصية فقال له اتق الله، فينزع عنها خوفاً من عقابه، { وإذا نُتِلت عليهم آياته } القرآنية { زادتهم إيماناً } أي: يقيناً وطمانينة بتظاهر الأدلة التي اشتملت عليها، أو بالعمل بموجبها. وهو دليل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، بناء على أن العمل داخل فيه، والتحقيق: أن العمل خارج عنه، لكن نوره يتقوى به وينقص بنقصانه أو بالمعصية وسيأتي في الإشارة الكلام عليه.

ومن أوصاف أهل الإيمان: التوكل على الله والاعتماد عليه، كما قال: { وعلى ربهم يتوكلون } وقد تقدم في " آل عمران " الكلام على التوكل، ثم وصفهم بإقامة الدين فقال: { الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون } في الواجب والتطوع. { أولئك هم المؤمنون حقاً }؛ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلب، من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أعمال الجوارح التي هي العيار عليها، كالصلاة والصدقة، { لهم درجات عند ربهم } أي كرامات وعلو منزلة، أو درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، { ومغفرة } لما فرط من ذنوبهم، { ورزق كريم } أعده لهم في الجنة، لا ينقطع مدده، ولا ينتهي أمده، بمحض الفضل والكرم.

الإشارة: الانفال الحقيقة هي المواهب التي ترد على القلوب، من حضرة الغيوب؛ من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، لا تزال تتوالى على القلوب، حتى تغيب عما سوى المحبوب، فيستغني غناء لا فقر معه أبداً، وهذه غنائم خصوص الخصوص، وغنائم الخصوص: هي القرب من الحبيب، ومراقبة الرقيب، بكمال الطاعة والجد والاجتهاد، وهذه غنائم العباد والزهاد، وغنائم عوام أهل اليمين: مغفرة الذنوب، والستر على العيوب، والنجاة من النار، ومرافقة الأبرار، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَنْ قَالَ عِنْدَ تَوْبِهِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأُتُوبُ إِلَيْهِ، غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَيْدِ الْبَحْرِ، وَعَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا ".

قال الشيخ زروق: وهذه هي الغنيمة الباردة، وهذه الأمور بيد الله وبواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معني قوله { قل الأنفال لله والرسول } ثم دل على موجباتها فقال: { فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم... } الآية، وقوله تعالى: { زادتهم إيماناً } : اعلم أن الإيمان على ثلاثة أقسام: إيمان لا يزيد ولا ينقص وهو إيمان الملائكة، وإيمان يزيد وينقص، وهو إيمان عامة المسلمين، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمان الأنبياء والرسل، ومن كان على قدمهم من العارفين الروحانيين الراسخين في علم اليقين، ومن تعلق بهم من المريرين السائرين، بالطاعة والمعصية؛ لتيقظهم وكمال توحيدهم، وفي الحكم: " وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول " وقال أيضاً: " معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً " والله تعالى أعلم.

@ { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارَهُوْنَ } *

{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ }

قلت: { كما أخرجك } خبر عن مبتدأ محذوف، أي: هذه الحال، وهي عزلهم عن تولية الأنفال في كراهتهم لها، كحال إخراجك في الحرب في كراهتهم لها، أو حالهم في كراهية ما رأيت من تنفيلك للغزاة، مثل حالهم في كراهية خروجك، أو صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله: { لله والرسول } أي: الأنفال تثبت لله وللرسول صلى الله عليه وسلم، مع كراهتهم، ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة؛ لأنها مسكنه أو بيته منها، وجملة: { وإن فريقاً } حال من أخرجك، أي: أخرجك في حال كراهية فريق من المؤمنين.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلى الله عليه وسلم: قد كره أصحابك قسمتك للأنفال كما كرهوا إخراجك { ربك من بيتك بالحق } لقتال العدو، والحال أن { فريقاً من المؤمنين لكارهون } خروجك لذلك، وتلك الكراهية من قبل النفس وطبع البشرية، لا من قبل الإنكار في قلوبهم لأمر الله ورسوله، فإنهم راضون مستسلمون، غير أن الطبع ينزع لحظه، والعبد مأمور بمخالفته وجهاده.

وذلك الفريق الذي كره خروجك للقتال { يجادلونك في الحق } أي: يخاصمونك في إثارة الجهاد لإظهار الحق، حيث أرادوا الرجوع للمدينة، وقالوا: إنا لم نخرج لقتال، قالوا ذلك { بعد ما تبين } لهم أنهم منصورون أينما توجهوا، بإعلام الرسول لهم، لكن الطبع البشري ينزع إلى مواطن السلامة { كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون } أي: يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت، وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلّة عددهم وعدم تأهبهم، إذ روي أنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج لقصد الجهاد، وإنما لملاقة غير قريش، لهما سمع أنها قدمت من الشام، وفيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون ركباً، فيهم أبو سفيان، وعمرو بن العاص، ومخرقة بن نوفل، وعمرو بن هشام، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعرض لها ويأخذها غنيمة، حيث أخبره جبريلُ بقدمها من الشام، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، فأعجبتهم تقيها، لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا، بلغ الخبرُ أبا سفيان، فسلك بالغير طريق الساجل، واستأجر من يذهب إلى مكة يستنفرها، فلما بلغهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعيرهم، نادى أبو جهل فوق الكعبة: يا أهل مكة، النجاء، النجاء على كل صعبٍ ودلّولٍ، عيركم وأمواكم إن أصابها محمدٌ لن تُفليحوا بعدها أبداً.

وقد رأت، قبل ذلك بثلاث ليال، عاتكة بنت المطلب، رؤيا؛ وهو أن رجلاً تمثل على جبل قبيس فنادي: يا آل لبع، اخرجوا إلى مصارعكم، ثم تمثل على الكعبة، فنادي مثل ذلك، ثم أخذ حجراً فضرب به، فلم يبق بيت في مكة إلا دخله شيء من ذلك الحجر، فحدثت بها العباس، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: أما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتبأ نساؤهم؟ لنتربص ثلاثاً، فإن لم يظهر ما تقول لنكتبن عليكم يا بني هاشم أنكم أكذب بيت في العرب، فلما مضت ثلاث ليال جاء رسول أبي سفيان ليستنفرهم.

فخرج أبو جهل بجموع أهل مكة، ومضى بهم إلى بدر، وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي دفران، فنزل عليه جبريل بالوعد بإحدى الطائفتين: إما العير وإما قریش، فاستشار فيه أصحابه، فقال بعضهم: ما خرجنا لقتال ولا تهيأنا له، وردد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أبو بكر وعمر فأحسنّا، ثم قام سعد بن عبادة فقال: انظر في أمرك، وامض، فوالله لو سيرت إلى عدن ما تحلف رجل من الأنصار، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: امض يا رسول الله لما أمرك ربك، فإننا معك حيثما أحببت، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل:

{ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ }

[المائدة: 24]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكم مقاتلون، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أشيروا علي أيها الناس"، يريد الأنصار؛ لأنهم كانوا عددهم، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم براءء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ وقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقتك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيقاً على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تحلف منا رجلاً واحداً، وما تكره أن تلقي بنا عدوتنا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسير بنا على بركة الله، فنشطه قوله، ثم قال: "يسيروا على بركة الله، وأبشروا؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بأصحابه آخر مياه من مياه بدر، فبني له هناك عريش، فجلس فيه هو وأبو بكر، فلما انتشب القتال أخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فلم تبق عين من الكفار إلا وقع فيها شيء منها، ونزلت الملائكة في العنان، أي: السماء، فقتل منهم سبعون، وأسر سبعون، وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من غزوة بدر، قيل له: عليك بالعير، فقال العباس - وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله، ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى المدينة منصوراً فرحاً مسروراً، وقد أنجزه الله ما وعده.

الإشارة: من حكمته تعالى الجارية في عبادة أن كل ما يثقل على النفوس ويشق عليها في بدايته تكون عاقبته الفتح والنصر، والهناء والسرور، فكل ما تكرهه النفوس فغايتها حضرة القدوس، وما تحقق سير السائرين إلا بمحاربة نفوسهم ومخالفة عوائدهم. وفي الحديث عنه صلوات الله عليه وسلم، قال لابن

عباس في حديث طويل: " وَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّرَ خَيْرٌ كَثِيرٌ " والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } * { لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }

قلت: { وإذ } ظرف لاذكر، محذوفة، و { أنها لكم } بدل اشتمال من { إحدى الطائفتين }؛ والشوكة: الحدة، مستعارة من واحد الشوك، وسميت الحرب شوكة لحدة سلاحها.

يقول الحق جل جلاله: { و } اذكروا { إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين }؛ قريشاً أو غيرهم، وعدكم { أنها لكم وتودون }؛ وتتمنون { أن غير ذات الشوكة } أي: ذات الحرب { تكون لكم } وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقة النفير لكثرة عددهم وعددهم، { ويريد الله أن يحق الحق } أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، يقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، { بكلماته } أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، { ويقطع دابر الكافرين } أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم.

ومعنى الآية: أنكم تريدون أن تُصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق، وما يحصل لكم من فوز الدارين، وإنما فعل ما فعل من سوفكم إلى القتال؛ { ليحق الحق ويبطل الباطل } أي: ليظهر الدين ويبطل الكفر.

قال البيضاوي: وليس بتكرار؛ لأن الأول لبيان المراد، وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على اختيار ذات الشوكة وقصره عليها. هـ. وقال ابن جزي: ليس تكرار للأول؛ لأن الأول مفعول يريد، هذا تعليل لفعل الله تعالى، ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثاني الإسلام، فيكون المعنى: أنه نصرهم ليظهر الإسلام، ويؤيد هذا قوله: { ويبطل الباطل } أي: يبطل الكفر، { ولو كره المجرمون } ذلك، فإن الله لا بد أن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره الكافرون.

الإشارة: وعد الله المتوجهين إليه بالوصول إلى سر الخصوصية، وهي الولاية، لكن بعد المجاهدة والمحاربة للنفوس؛ لأن الحضرة لا يدخلها إلا أهل التهذيب والتدريب، وترى كثيراً من الناس يتمنون أن تكون لهم من غير حرب ولا قتال، ويريد الله أن يحق الحق بكشف الحجب عن القلوب، حتى لا يشاهدوا إلا الحق، ويبطل الباطل، وهو السوي، ولا يكون في العادة إلا بعد موت النفوس وتهذيبها وتطهيرها بالرياضة على شيخ عارف. قال الششتري مترجماً عن لسان الحقيقة:

أَنْ تُرِدَ وَضَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَتَأَلَّ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ

@ { إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجِبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ } * { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

قلت: { إذ } بدل من { إذ يعدكم } أو متعلق بقوله: { ليحق الحق } أو باذكر.

يقول الحق جلالة: واذكروا حين كنتم { تستغيثون ربكم } وتدعون بالغوث والنصر، وذلك أن الصحابة - رضي الله عنهم - لما علموا ألا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون: ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أعثنا.

وعن عمر رضي الله عنه: أنه تَطَرَّ إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وإلى أَصْحَابِهِ وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَمَدَّ يَدَيْهِ يَدْعُوهُ: "اللَّهُمَّ أَنْجِرْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَمْ تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ"، فَمَا رَأَى كَذَلِكَ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ، كَفَاكَ مُنَاسَدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِرُ لَكَ مَا وَعَدَكَ". وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد لسعة دائرة علمهم، بل لا يزول اضطرابهم، ولا يكون مع غير الله قرارهم، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفاً على شروط أخفاها الحق تعالى؛ لتظهر قهرته وانفراده بالعلم المحيط.

ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال: { فاستجاب لكم أني مُمدكم }؛ مقويكم ومكثركم { بألف من الملائكة مُردفين } يتبع بعضهم بعضاً، ويتبع المؤمن، فكانوا خلفهم رداءً لهم، فمن قرأ بفتح الدال فهو اسم مفعول، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل، وضح معنى القرءتين، لأن الملائكة المنزلين يتبع بعضهم بعضاً، فمنهم تابعون ومتبوعون، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين، فكانوا مقدمة الجيش، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم، فكانوا ساقية للجيش.

ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله: { وما جعله الله } أي: الإمداد { إلا بُشْرَى } أي: بشارة بالنصر، { ولتطمئن به قلوبكم } فيزول ما بها من الوجع لقلبتكم، { وما النصر إلا من عند الله }؛ لا يتوقف على سبب، { إن الله عزيز } لا يغلب { حكيم } في تدبير الأسباب وترتيبها رداءً للقدره الأزلية، فإمداد الملائكة، وكثرة العدد، والتأهب، وسائط، لا تأثير لها، فلا تحسبوا النصر منها، ولا تياسوا منه بفقدها، فحكم الأزل جل أن يضاف إلى العلل.

الإشارة: إظهار الفاقة الابتهاال لا يقدر في صحة التوكل على الكبيرالمتعال، بل هو شرف للإنسان، وتقريب من الكريم المنان، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى الله في كل شيء، والتعلق به في كل حال، ولو وعده بالنصر أو الإجابة، لا يقطع عنه السؤال، عبوديةً وتملقاً بين يدي الحبيب.

وقد اختلف الصوفية: أي الحاليين أشرف: هل الدعاء والتضرع؟ أو السكوت والرضى تحت مجاري الأقدار؟ وقال بعضهم: يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه، صاحب رضى بقلبه، ليجمع بين الأمرين. قال القشيري: والأولى أن يُقال: إن الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل، وإنما يُعرف ذلك في الوقت؛ لأن علم الوقت يحصل في الوقت، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء؛ فالدعاء منه أولى، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم. هـ. وقد تقدم في آل عمران إشارة الإمداد. وبالله التوفيق.

@ { إِذْ يُغَشِّبِكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَيْكُمْ قَلْبًا وَبَيِّنَاتٍ لِّبِالْأَقْدَامِ } * { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ }

قلت: (إذا) بدل ثان من (إذ يعدكم)، أو متعلق بالنصر، لِمَا في (عند الله) من معنى الفعل، أو بإضمار اذكروا، ومن قرأ بضم الياء، فهو من أغشى، أي: غطى، ومن قرأ بالتشديد، فهو من غشي المضعف، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين، الكاف الأول والنعاس الثاني، ومن قرأ بالفتح والتخفيف، فهو من غشى يغشى؛ المتعدي إلى واحد و(وأمنة): مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا { إذ يُغَشِّبِكُم } ، أي: حين كان يغشيكم { النَّعَاسَ } { وأنتم في القتال، حين ينزل عليكم الأمان من العدو بعد شدة الخوف، وذلك لأجل الأمان الذي نزل من الله عليكم بعد شدة خوفكم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: النعاس عند حضور القتال علامة أمانٍ مِنَ العدو.

ثم ذكرهم بمنة أخرى، فقال: { وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ } من الحدث والجنابة، { وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ } أي: وسوسته وتخويفه إياهم من العطش، رُوي أنهم نزلوا في كتيب رمل دهس، تسوخ فيه الأقدام على ماء قليل، وناموا فاحتلم أكثرهم، فوسوس إليهم الشيطان، وقال: كيف تُنصرون وأنتم تصلون محدثين مجبيين، وتزعمون أنكم أولياء الله فيكم رسوله؟ فأشفقوا، فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، فاتخذوا الحياض على عدوته، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو، حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الدهوسة، وهذا معنى قوله: { وَلِيَرْبِطَ عَلَيْكُمْ قَلْبًا وَبَيِّنَاتٍ لِّبِالْأَقْدَامِ } أي: وليربط على قلوبكم بالوثوق على لطف زوال ما وسوس إليهم الشيطان، وذهاب الكسل عنها. { وَبَيِّنَاتٍ لِّبِالْأَقْدَامِ } حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في مداحض الحرب.

واذكروا أيضاً: { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } أي: أثبت أقدامكم حين أوحى إلى الملائكة أني معكم في نصر المؤمنين وتثبيتهم { فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } بتكثير عددهم، أو بالبشارة لهم، أو بمحاربة أعدائهم، على قول من قال: إنهم باشروا القتال. { سَأَلِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } والجزع حتى لا يثبتوا لقتالكم، يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة، أو استئناف؛ إخباراً للمؤمنين عما يفعله بعدوهم عاجلاً وأجلاً. ثم قال للملائكة أو للمؤمنين: { فَاصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ } أي: أعاليها التي هي المذايح والرؤوس، { وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } أي: أصابعهم، أي: جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

الإشارة: كان شيخ شيخنا يُشير على الفقراء، إذا كثرت عليهم الخواطر والهواجس، بالنوم، ويقول: من تشوش خاطره فليرقد حتى يشبع من النعاس، فإنه يجد قلبه؛ لأن النعاس أمانة من الله يذهب به رجز الشيطان وثقله، ويربط على القلوب في الحضرة؛ لأنه زوال، وإذا زال العبد ظهر الحق وزهق الباطل.

وقوله تعالى: { وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً } : هو ماء الغيب الذي يطهر القلوب من شهود السُّوى، ويذهب به رجز الشيطان، وهي ظلمة الأكوان، التي تنعقد في

القلب من حب الهوى الذي هو من تزيين الشيطان، وثبت به الأقدام، حتى تثبت عند مصادمة أنوار الحضرة، التي هي تجلي الذات، فلا يثبت لها إلا الشجعان والأبطال وأكابر الرجال. والله تعالى أعلم.

@ { ذَالِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } * { ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }

قلت: (ذلكم): مبتدأ حُذِفَ خبره، أي: ذلكم العقاب أو العذاب، أو خبر، أي: الأمر ذلكم، أو منصوب بمضمر يفسره فذوقوه، و(الكافرون): عطف على (ذلكم)، أو نصب على المفعول معه، وقرئ بالكسر؛ استثناءً.

يقول الحق جل جلاله: { ذَاكَ } الضرب لأعناق الكفار، أو الأمر به { بأنهم }؛ بسبب أنهم { شاقوا } أي: خالفوا { الله ورسوله }، وصاروا كأنهم في شق وهو في شق؛ مبالغة في المخالفة والمباعدة، { ومن يشاقق الله ورسوله } ويبعد عنهما { فإن الله شديد العقاب } لكم من خالفه أو خالف رسوله، وهو تقرير للتعليل، أو وعيد بما أعد الله لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا، { ذلكم } العذاب { فذوقوه } وباشروا مرارته، { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }، والمعنى: ذُوقُوا ما عجل لكم من النعمة في الدنيا مع ما يحل عليكم في الآخرة من عذاب النار، ووضع الظاهر موضع المضمرة؛ للدلالة على أن الكفر سبب العذاب العاجل والأجل.

الإشارة: مخالفة الله ورسوله توجب الطرد والبعد، وموافقة الله ورسوله توجب القرية والوداد، وهذا الموافقة التي توجب للعبد المحبة والوداد تحصل بخمسة أشياء: امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإكثار من ذكره، الاستسلام لقهره، والاقتران بنبية صلب الله عليه وسلم والتأدب بأدابه، والتخلق بأخلاقه، وبأضداد هذه الأشياء يحصل للعبد المخالفة التي توجب طرده وبعده، وهي مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، والغفلة عن ذكره، والتسخط عند نزول قهره، وعدم الاقتداء بنبية صلى الله عليه وسلم؛ بارتكاب البدع المحرمة والمكروهة، حتى يُفضى به الحال إلى المشاققة والمباعدة، { ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب } بالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ } * { وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَسِئسَ الْمَصِيرُ }

قلت: (رحفًا): مصدر، وزحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به الجيش المقابل للقتال؛ لأنه يندفع للقتال شيئاً فشيئاً، ونصبه على الحال من فاعل " لقيتم " أو " من الذين كفروا " و(متحرفاً) و(متحيزاً): حالان، و(إلا) مُلغاة، ووزن متحيز: متفعل، لا متفعل، وإلا كان متحوزاً؛ لأنه من حاز يحوز.

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا } زاحفين لهم، تدبون إليهم ويدبون إليكم، تريدون قتالهم متوجهين إليهم، { فلا تولوهم الأدبار } بالانهزام عنهم، فإنه حرام، وهو من الكبائر، ويفيد بالآ لا يكون الكفار أكثر من

ثلثي المسلمين، فإن زادوا على ثلثي المسلمين حلَّ الفرار، وأن يكون
المسلمون مسلحين، وإلا جاز الفرار ممن هو بالسلاح دونه، { ومن يُؤلِّمهم يومئذ
دُبْرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ } ، وهو أن يكرّر راجعاً أمام العدو ليرى عدوه أنه منهزم
ثم يعطف عليه، وهو من مكائد الحرب، { أو متحيزاً إلى فئة } أي: منحازاً إلى
جماعة من المسلمين ليستعين بهم، فإن كانت الجماعة حاضرة في الحرب، أو
قريبة فالتحيز إليها جائز باتفاق، واختلف في التحيز إلى المدينة، والإمام
والجماعة إذا لم يكن شيء من ذلك حاضراً.

وُبرِئ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أنا فئة لكل مسلم. وُروي
عن ابن عمر: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم،
وفقروا إلى المدينة، فقلت: يا رسول الله، نحن الفَرَّارُونَ، فقال: " أَنتُمْ الكَرَّارُونَ،
وأنا فِتْنُكُمْ " .

فمن فرَّ من الجهاد بالشرط المتقدم { فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم
وبئس المصير } ، ومن هذا يفهم أنه من الكبائر. قال البيضاوي: وهذا إذا لم يزد
العدو علي الضعف لقوله
{ التَّنَّ حَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ... }
[الأنفال: 66] الآية، وقيل: الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرون معه في الحرب.
.٥

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه بالمجاهدة والمكابدة: إذا لقيتم
أعداءكم من القواطع؛ كالحطوط، والشهوات، وسائر العلائق، فاثبتوا حتى تظفروا،
ولا ترجعوا وتولوهم الأدبار فيظفروا بكم، إلا متحيزاً لقتال؛ بإيثار بعض الرخص،
ليقوى على ما هو أشد منها مشقة عليها، أو متحيزاً إلى جماعة من أكابر
العارفين، فإنهم يُغنونهم بالمشاهدة عن المجاهدة، إذا ملكهم زمام نفسه، وفعل
كل ما يُشيرون به عليه، فإن ذلك يُفضي به إلى الراحة بعد التعب، والمشاهدة
بعد المجاهدة، إذا لا تجتمع المجاهدة في الظاهر مع مشاهدة الباطن عند أهل
الذوق.

قال القشيري - بعد كلامه على الآية: فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خَدَمِهِمْ
من نعمهم، والأصفياء من الأولياء يُنفقون على مريديهم من هَمَمِهِمْ؛ يجبرون
كسَرَهُمْ وينوبون عنهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومَنْ أهمل مريداً وهو
يعرف صدقه، أو خالف شيخاً وهو يعرف فضله، وحَقَّه، فقد بَاءَ من الله بسخط،
والله تعالى حسيبه في مكافأته على ما حصل من قبيح وصفه. هـ.

@ { قَلِمٌ تَقْتُلُوهُمْ وَلَآكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَآكِنَّ اللَّهَ رَمَا وَلِيُبَلِّغَ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ }

يقول الحق جل جلاله: قَلِمٌ تقتلوا الكفار بجولكم وقوتكم وذلتكم، وقَلَّةٌ عُدتكم
وعَدَدَكم، وكثرة عدوكم وعُدتهم، { ولكن الله قتلهم } بواسطة مباشرتكم، حيث
أيدكم وسلطكم عليهم، وإمداد الملائكة لكم، وإلقاء الرعب في قلوب عدوكم.

قال البيضاوي: رُوي أنه لما أَطَلَّتْ قريش من العنقل - اسم جبل - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هَذِهِ قُرَيْشٌ جَاءَتْ بِخِيَلَيْهَا وَقَحْرَهَا، يُكَذِّبُونَ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا وَعَدْتَنِي " ، فَأَتَاهُ جَبْرِيْلُ، وَقَالَ لَهُ: خُذْ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَارْمِهِمْ بِهَا، فَلَمَّا التَّقَى الْجَمْعَانِ تَنَاوَلَ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ قَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، وَقَالَ: " شَاهَتِ الْوُجُوهُ " فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا شَغَلَ بَعِيْتِيهِ، فَأَنْهَزْمُوا. وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما أنصرفوا أقبلوا على التفاخر، فيقول الرجل: قتلْتُ وأسرْتُ، فنزلت الآية، وإلغاء جواب شرط محذوف، تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم، { وما رميت } يا محمد رمياً توصها إلى أعينهم. ولم تقدر عليه { إذ رميت } أي: حين ألقيت صورة الرمي، { ولكن الله رمى } ، أتى بما هو غاية الرمي، فأوصلها إلى أعينهم جميعاً، حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم. هـ. فالرمي، حقيقة، إنما وقع من الله تعالى، وإن ظهر حساً من النبي صلى الله عليه وسلم.

وإنما فعل ذلك ليقطع طرفاً من الكفار، ويحد شوكتهم، { وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً } أي: ليختبر المؤمنين منه اختباراً حسناً، ليظهر شكرهم على هذه النعمة، أو لينعم عليهم نعمة عظيمة؛ بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات، { إن الله سميع } لاستغاثتهم ودعائهم، { عليم } بنياتهم وأحوالهم. { ذلكم } أي: البلاء الحسن، أو القتل، أو الرمي، واقع لا محالة، أو الأمر ذلكم، { وأن الله موهن كيد الكافرين } أي: مضعف كيد الكافرين، ومبطل حيلهم، أي: المقصود بذلك القتل أو الرمي إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله للمريدين المتوجهين لحضرة محبوبهم: فلم تقتلوا نفوسكم بمجاهدتكم؛ إذ لا طاقة لكم عليها، ولكن الله قتلها بالنصر والتأييد، حتى حيتت بمعرفته، ويقول الشيخ: وما رميت القلوب بمحبتتي ومعرفتي، ولكن الله رمى تلك القلوب بشيء من ذلك، وإنما أنت واسطة وسبب من الأسباب العادية، لا تأثير لك في شيء من ذلك.

حُكي أن الحلاج، لما كان محبوباً للقتل، سأله الشبلي عن المحبة، فقال: الغيبة عما سوى المحبوب، ثم قال: يا شبلي، ألسنت تقرأ كتاب الله؟ فقال الشبلي: بلى، فقال: قد قال الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام -: { وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى } ، يا شبلي؛ إذ رمى الله قلب عبده بخيئة من حبه، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب. هـ. والمقصود بذلك: تخصيص أوليائه المقربين بالمحبة والمعرفة والتمكين، وتوهين كيد الغافلين المنكرين لخصوصية المقربين. والله تعالى أعلم.

@ { إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن ينهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين }

يقول الحق جل جلاله لكفار مكة على جهة التهكم: { إن تستفتحوا } أي: تطلبوا الفتح، أي: الحكم على أهدي الفئتين وأعلى الجندين وأكرم الحزبين { فقد جاءكم } الحكم كما طلبتم، فقد نصر الله أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين، وهو محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه، { وإن انتهوا } عن الكفر

ومعاداة الرسول، { فهو خيرٌ لكم }؛ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين،
{ وإن تعودوا } لمحاربتة { نعد } لنصره، { ولن تغني }؛ تدفع { عنكم فتنكم }؛
جماعتكم { شيئاً } من المضار { ولو كثرت } فتنكم، إذ العبرة بالنصرة لا
بالكثرة، { وإن الله مع المؤمنين } بالنصر والمعونة.

ومن قرأ بالفتح؛ فعلى حذف الجار، أي: ولأن الله مع المؤمنين، وقيل: الخطاب
للمؤمنين، والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في
القتال، والرغبة عما يختاره الرسول، فهو خير لكم، وإن تعودوا إليه نعد عليكم
الإنكار، أو تهيج العدو، ولن تغني، حينئذٍ عنكم كثرتكم؛ إذ لم يكن الله معكم
بالنصر، فإنه مع الكاملين في إيمانهم. قال البيضاوي.

الإشارة: إن تستفتحوا أيها المتوجهون، أي؛ تطلبوا الفتح من الله في معرفته،
فقد جاءكم الفتح، حيث صح توجهكم وتركتم حظوظكم وعلائقكم، لأن البدايات
مَجَلَّةُ النهايات، من وجد ثمرة عمله عاجلاً فهو علامة القبول أجلاً، وإن تنتهوا
عن حظوظكم وعوائقكم فهو خير لكم، وبه يقرب فتُحْكَمُ، وإن تعودوا إليها نعد
إليكم بالتأديب والإبعاد، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً في دفع التأديب، أو البعد
ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين الكاملين في الإيمان؛ بالنصر والرعاية.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } *
{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله } فيما أمركم به ونهاكم
عنه، { ورسوله } فيما ندبكم إليه من الجهاد وغيره، { ولا تولوا } أي: تُعرضوا
عن الرسول { وأنتم تسمعون } القرآن يأمركم بالتمسك به، والاقتران بهديه.
والمراد بالآية: النهي عن الإعراض عن الرسول، وذكر طاعة الله إما هو للتوسط
والتنبه على أن طاعة الله في طاعة الرسول، لقوله:
{ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ }
[النساء: 80]، ثم أكد النهي بقوله: { ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا } بآذاننا،
كالكفرة والمنافقين، ادَّعَوْا السماع، { وهم لا يسمعون } سماعاً ينتفعون به،
فكانهم لا يسمعون رأساً.

الإشارة: لما غلب عليه الصلاة والسلام بقي خلفاؤه في الظاهر والباطن؛ وهم
العلماء الأتقياء، والعارفون الأصفياء. فمن تمسك بهم، واستمع لقولهم، فقد تمسك
بالرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أعرض عنهم فقد أعرض عنه صلى الله
عليه وسلم، فمن تمسك بما جاءت به العلماء، فاز بالشرعية المحمدية، وكان
من الناجين الفائزين. ومن تمسك بالأولياء العارفين، واستمع لهم، وتبع إرشادهم،
فاز بالحقيقة الربانية، وكان من المقربين. ومن سمع منهم الوعظ والتذكير، ثم
صرفه عن نفسه إلى غيره، يصدق عليه القوله تعالى { ولا تكونوا كالذين قالوا
سمعنا وهم لا يسمعون } وكان من شر الدواب.

@ { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } * { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ
فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { إن شر الدواب عند الله }؛ وهو كل من يدب على وجه الأرض، { الصم } عن سماع الحق، { البكم } عن النطق به، { الذين لا يعقلون } الحق ولا يعرفونه، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها؛ لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله، وهو استعمال العقل فيما ينفعهم من التفكير والاعتبار. قال ابن قتيبة: نزلت هذه الآية في بني عبد الدار، فإنهم جدوا في القتال مع المشركين، يعني يوم بدر، وحكمها عام.

{ ولو علم الله فيهم خيراً }؛ سعادة كتبت لهم، أو انتفاعاً بالآيات، { لأسمعهم } { سماع تفهم }، { ولو أسمعهم }، مع كونه قد علم الأخير فيهم، { لتولوا } عنه، ولم ينتفعوا به، وارتدوا بعد التصديق والقبول، { وهم معرضون } عنه لعنادهم، وقيل: إنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحيي لهم قضي بن كلاب، ويشهد له بالرسالة، حتى يسمعوا منه ذلك، فأنزل الله: { ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم } كلامه بعد إحيائه، { ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون }، لسبق الشقاوة في حقهم.

الإشارة: اعلم أن الأمر الذي شرف به الآدمي وفضل غيره هو معرفة خالقه، واستعمال العقل فيما يقربه إليه، وسماع الوعظ الذي يزجره عن غيه، فإذا فقد هذا كان كالبهائم أو أضل، ولله در ابن البناء، حيث يقول في مباحثه:

وَاعْلَمْ أَنَّ عُضْبَةَ الْجَهَّالِ بَهَائِمٌ فِي صُورِ الرِّجَالِ
وَاعْلَمْ أَيْضاً أَنَّ بَعْضَ الْقُلُوبِ لَا تَقْبَلُ عِلْمَ الْحَقَائِقِ، فَاشْغَلْهَا بِعِلْمِ الشَّرَائِعِ، وَوَلَوْ
عِلْمٌ فِيهَا خَيْراً لِأَسْمَعَهَا تِلْكَ الْأَسْرَارَ، وَوَلَوْ أَسْمَعَهَا، مَعَ عِلْمِهِ بِعَدَمِ قَبُولِهَا، لَتَوَلَّتْ
عَنْهَا وَأَعْرَضَتْ؛ لِضَيْقِ صَدْرِهَا وَعَدِيمِ التَّفَرُّغِ لَهَا.
@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله } أي: أجبوا فيما دعاكم إليه، { وللرسول } فيما دلكم عليه من الطاعة والإحسان، { إذا دعاكم لما يحييكم } من العلوم الدينية؛ فإنها حياة القلب، كما أن الجهل موته، أو { إذا دعاكم لما يحييكم } الحياة الأبدية، في النعيم الدائم، من العقائد والأعمال، أو من الجهاد، فإنه سبب بقائكم؛ إذ تركتموه لغلبكم العدو وقتلكم، أو الشهادة، لقوله تعالى:

{ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ } {

[آل عمران: 169]، ووجد الضمير في قوله: { إذا دعاكم } باعتبار ما ذكر، أو لأن دعوة الله تُسمع من الرسول.

وفي البخاري: أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا أبي بن كعب، وهو في الصلاة، فلم يجب، فلما فرغ أجب، فقال له صلى الله عليه وسلم: " ما متعك أن تجيبني " فقال: " كنت أصلي، فقال: " ألم تسمع قوله: { اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ } " فاختلف فيه العلماء، فقيل لأن إجابته صلى الله عليه وسلم لا تقطع الصلاة، فيجب، ويبقى على صلاته، وقيل: إن دعاءه كان لأمر لا يقبل التأخير، وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله، كإنقاذ أعمى وشبهه.

ثم قال تعالى: { واعلموا أنَّ الله يَحُولُ بين المرء وقلبه }؛ فينقله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن اليقين إلى الشك ومن الشك إلى اليقين، ومن الصفاء إلى الكدر، ومن الكدر إلى الصفاء. وقيل البيضاوي: هو تمثيل لغاية قريه من العبد؛ كقوله تعالى: { وَتَحَنُّنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [ق: 16]، وتنبه على أنه مطلع على مكنونات القلوب، مما عسى أن يغفل عنها صاحبها، أو حث على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها، قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه؛ فيفسخ عزائم، ويغير مقاصده، ويحول بينه وبين الكفر، إن أراد سعاده، وبينه وبين الإيمان، إن قضى شقاوته. هـ. { و } اعلموا أيضاً { أنه إليه تُحشرون }؛ فيجازيكم بأعمالكم وعقائدكم.

الإشارة: قد جعل الله، من فضله ورحمته، في كل زمان وعصر، دعاة يدعون الناس إلى ما تحيا به قلوبهم، حتى تصلح لدخول حضرة محبوبهم، فهم خلفاء عن الله ورسوله، فمن استجاب لهم وصحبهم حيي قلبه، وتطهر سره ولبه، ومن تنكب عنهم ماتت روحه في أودية الخواطر والأوهام.

وقوله تعالى: { واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه }؛ حيلولة الحق تعالى بين المرء وهو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته، بالوقوف مع الحس، وشهود الفرق بلا جمع، ويعبر عنه أهل الفن بَقَدِّ القلب، فإذا قال أحدهم: فقدت قلبي، فمعناه: أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معاني أسرار الذات وأنوار الصفات، فيغيب عن نفسه وحسه، وعن سائر الأكوان الحسية، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب، وقد يكون بلا سبب؛ اختباراً من الحق تعالى، هل يفزع إليه في فقدان أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال، في أول شرح عجائب القلب من الإحياء: إن المطيع بالحقيقة لله هو القلب، وهو العالم بالله، وهو الساعي إلى الله، والمتقرب إليه، المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع، والقلب هو المقبول عند الله، إذا سلّم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً في غير الله وهو المطالب والمخاطب، وهو المعاتب والمعاقب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكاه، ويخيب ويشقى إذا دنسه وفساه. ثم قال: وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا جهله فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه، جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، إلى أعلى عليين، ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه وبراعيه، ويترصد ما يلوّح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: { تَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ } [الحشر: 19] الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغنى بما وجد، فقال:

أَنَا الْقُرْآنُ وَالسَّبْعُ الْمَتَانِي وَرَوْحُ الرُّوحِ لَا رُوحَ الْأَوَانِي

فؤادي عند معلوم مقيم تناجيه وعندكم لساني
قَلَا تَنْظُرُ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِي وَعُدُّ عَنِ التَّعْيِيمِ الْأَوَانِي
فَأَسْرَارِي تَرَاءَتْ مَبْهَمَاتٍ مُسْتَرَّةً بِأَنْوَارِ الْمَعَانِي
قَمَرٍ قَهَمَ الْإِشَارَةَ فَلْيَصْنُهَا وَإِلَّا سَوْفَ يَقْتُلُ بِاللِّسَانِ
كَحَلَاجِ الْمَحَبَةِ إِذْ تَبَدَّتْ لَهُ شَمْسُ الْحَقِيقَةِ بِالتَّدَانِي

@ { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

قلت: دخلت النون في (لا تصيبن)؛ لأنه في معنى النهي، على حد قوله:
{ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانَ }
[النمل: 18] انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: { واتقوا فتنة } ، إن نزلت { لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } ، بل تعم الظالم وغيره، ثم يبعث الناس على نيتهم، وذلك كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، واقتراف الكبائر، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد، وعن الفرائض، وغير ذلك من أنواع الذنوب، وفي الحديث: " لتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلْتَنْهَوْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُعَمَّكُمُ اللَّهُ بِعَدَابِهِ " أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قالت عائشة رضي الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: " نعم، إذا كثر الخبث " .

قال القشيري. في معنى الآية: احذروا أن ترتكبوا زلَّةً توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها، بل يعمُّ شوْمُهَا مَنْ تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يُؤْخَذُ بِجُرْمٍ مِنْ أَدْنَى، ولكن قد ينفرد واحدٌ بِجُرْمٍ فيحمل أقوامٌ من المختصين بفاعل هذا الجُرْمِ، كأن يتعصبوا له إذا أُخِذَ بِحُكْمِ ذَلِكَ الْجُرْمِ، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم؛ فتكون فتنة لا تخص بمن كان ظالماً في الحال، بل تصيب أيضاً ظالماً في المستقبل؛ بسبب تعصبه لهذا الظالم، ورضاه به. هـ. وسيأتي تمامه في الإشارة.

وحكى الطبري أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل. هـ. قال تعالى: { واعلموا أن الله شديد العقاب } لمن ارتكب معاصيه وتسبب في فتنة غيره.

الإشارة: في القشيري، لما تكلم على تفسير الظاهر، قال: وأما من جهة الإشارة فإن العبد إذا باشر زلَّةً بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة، وهي العقوبة المعجلة، ونصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصلت منه فتنة، وهو همه بما لا يجوز، تَعَدَّتْ فِتْنَتَهُ إِلَى السَّرِّ وَهِيَ الْحُجْبَةُ. وكذلك المُقَدَّمُ فِي شَأْنِهِ، إذا فعل ما لا يجوز، انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى مُتَّبِعِيهِ وتَلَامِذَتِهِ، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة، وهم لم يعملوا ذنباً، ويقال: إن الأكبر إذا سكتوا عن التنكير على الأصغر أصابتهم فتنة بتركهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجمام.

ثم قال: ويقال: إنَّ الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع في اخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية - وإن كانت من وجه حلال - تعدت فتنته إلى من يتخرج على

يديه من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة في الدنيا، وتترك التقليل، فيؤديه إلى الانهماك في أودية الغفلة في الأشغال الدنيوية، والعايد إذا جَنَحَ إلى سوء ترك الأوراد تعدى ذلك إلى ما كان ينشط في المجاهدة به، ويتوطن الكسل، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات فيصير كما قيل:

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَّةَ مفسدَةٌ للمرءِ أي مفسده فهذا يكون نصيبهم من الفتنة، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظَّ له، تَطَرَّ إليه المريدُ فتداخله فتنة فتنرة فيما هو به من الصدق المنزلة، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجملة: إذا غفل الملكُ، وتَشَاعَلَ عن سياسة رعيته، تَعَطَّلَ الجنْدُ والرعية، وَعَظَمَ فيهم الخَلَلُ والبَلِيَّةُ، وفي معناه أنشدوا:

رُعَاؤُكَ ضَيَّعُوا - بالجهل منهم

انتهى كلامه رضي الله عنه.
@ { وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ قَاوَاكُمُ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { واذكروا إذ أنتم قليل { أي؛ اذكروا هذه النعمة، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عددكم مع كثرة عدوكم، { مستضعفون في الأرض { أي: أرض مكة، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم، { تخافون أن يتخطفكم الناس { أي: قريش، أو من عداهم، { قواكم { إلى المدينة، وجعلها لكم مأوىً تتحصنون بها من أعدائكم، { وأيدكم { أي: قواكم { بنصره { على الكفار، أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر، { ورزقكم من الطيبات { من الغنائم، { لعلكم تشكرون { هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين، وقيل: للعرب كافة؛ فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم، يخافون أن يتخطفهم الناس من كثرة الفتن، فكان القوي يأكل الضعيف منهم، فأواهم الله إلى الإسلام، فحصل بينهم الأمن والأمان، وأيدهم بنصره، حيث نصرهم على جميع الأديان، وأعزهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، ورزقهم من الطيبات، حيث فتح عليهم البلاد، وملكوا ملك فارس والروم، فملكوا ديارهم وأموالهم، ونكحوا نساءهم وبناتهم، لعلهم يشكرون.

الإشارة: التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فهم قليل في كل زمان، مستضعفون في كل أوان، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا، وطهروا من البقايا من عليهم بالنصر والعز والتأييد، كما وعدهم بقوله:

{ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ... }

[القصص:5] الآية، والغالب عليهم شكر هذه النعم، لَمَا خصهم به من كمال المعرفة، والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } * { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله {؛ بتضييع أوامره، وارتياب نواهيته، { والرسول {؛ بمخالفة أمره وترك سنته، أو بالغلول في الغنائم، أو بأن تُبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل: نزلت في أبي لبابة في قصة بني قُرَيْظَةَ. روي أنه صلى الله عليه وسلم حاصرهم إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَسَأَلُوا الصَّلَاحَ كَمَا صَالَحَ إِخْوَانَهُمْ بَنِي النَّضِيرِ، عَلَيَّ أَنْ يَصِيرُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ بِأَدْرَعَاتٍ وَأَرْيَاحٍ مِنَ الشَّيْءِ، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَيَّ حُكْمَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَبَوْا وَقَالُوا: أُرْسِلْ لَنَا أبا لَبَابَةَ، وَكَانَ مُتَاصِحًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ عِبَالَةَ وَمَالَهُ فِي أَيْدِيهِمْ، فَبَعَثَهُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا تَرَى؟ هَلْ تَنْزِلُ عَلَيَّ حُكْمَ سَعْدٍ؟ فَأَشَارَ إِلَى خَلْقِهِ، أَنَّهُ الدَّبَّاحُ، فَقَالَ أَبُو لَبَابَةَ: فَمَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَلِمْتُ أَنَّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَنَزَلَ وَشَدَّ تَفْسَهُ إِلَى سِيارَةِ فِي الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ، أَوْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ، فَمَكَتْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى حَزَّ مَعِشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ فَقِيلَ لَهُ: تَيْبَ عَلَيْكَ فَخَلَّ نَفْسَكَ، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ أَحَلُّهَا حَتَّى يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يَحْلِنِي، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَلَّهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يَحْلِنِي، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَلَّهُ، فَقَالَ: إِنَّ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجَرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أُصِيبْتُ فِيهَا الدَّبَّاحُ، وَأَنْ أَنْخَلَعَ مِنْ مَالِي، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَجْزِيكَ التُّلْتُ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ".

ثم قال تعالى: { وتخونوا أماناتكم { فيما بينكم، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر فتفشوه، { وأنتم تعلمون { أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هي من شأن اللئام، كما قال الشاعر:

لَا يَكْتُمُ السِّرَّ إِلَّا كُلُّ ذِي ثِقَةٍ فَالسُّرُّ عِنْدَ خِيَارِ النَّاسِ مَكْتُومٌ
أَوْ: وَأَنْتُمْ عُلَمَاءُ تَمِيزُونَ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ.

{ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة {؛ لأنه سبب الوقوع في الإثم والعقاب، أو محنة من الله ليلوكم فيها، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، كما فعل أبو لبابة. { وأنَّ الله عنده أجرٌ عظيم { لمن أثار رضا الله ومحبته عليهم، وراعى حدود الله فيهم، فعلقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم، ورضاه العميم، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة: خيانة الله ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح، وهذا من أقبح الخيانة، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق، فمن فعل ذلك فسيب الشريعة فوق رأسه، إذا كان سالكاً غير مجذوب، لأن من أفضى سر الملك استحق القتل، وكان خائناً، ومن كان خائناً لا يؤمن على السر، فهو حقيق أن ينزع منه، إن لم يقتل أو يتب، ولله در القائل:

سَأَكْتُمُ عِلْمِي عَنْ دَوِي الْجَهْلِ طَاقَتِي وَلَا أَتُرُّ الدُّرَّ النَفِيسَ عَلَى الْبَهْمِ
فَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ الْكَرِيمُ بَلْطَفِهِ وَلَا أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكْمِ
بَدَلْتُ عُلُومِي وَاسْتَفَدْتُ عُلُومَهُمْ وَإِلَّا فَمَخْرُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَنَمٌ

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

يقول الحق جل جلاله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ } ، كما أمركم، { يجعل لكم فرقاناً }؛ نوراً في قلوبكم، تُفرقون به بين الحق والباطل، والحسن والقيح. قال ابن جزي: وذلك دليل على أن التقوى تُنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة. هـ. أو: نصراً يُفرق بين المحق والمبطل؛ بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة مما تحذرون في الدارين من المكروهات، أو ظهوراً يشهر أمركم ويثبت صيبتكم، من قولهم: فرقان الصبح، أي نوره، { وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } أي: يسترها، فلا يفضحكم يوم القيامة، { وَيَغْفِرْ لَكُمْ }؛ يتجاوز عن مساوئكم، أو يكفر صغائركم ويغفر كبائركم، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر، { والله ذو الفضل العظيم } ، فضله أعظم من كل ذنب، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، لا أن تقواهم أو جبت ذلك عليه، كالسيد إذا ما وعده عبده أن يعطيه شيئاً في مقابلة عمل أمره به، مع أنه واجب عليه لا محيد له عند. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الفرقان الذي يلقيه الله في قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب، وهي ثلاثة أقسام: وارد الانتباه: وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة، فيترك غفلته وهواه، وينهض إلى مولاه، ووارد الإقبال: وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب، ووارد الوصال: وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان، ونور الشهود، أو بين ظلمة سحب الأثر وشهود شمس العرفان.

وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار في الحكم بقوله: " إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار، ويحرك من رق الآثار، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك " .

@ { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { و } اذكر، يا محمد، نعمة الله عليك بحفظه ورعايته لك { إذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } من قريش، حين اجتمعوا في دار الندوة { لِيُثْبِتُوكَ } أي: يحبسوك في الوثاق والسجن { أو يقتلوك } بسيوفهم، { أو يخرجوك } من مكة.

وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، خافوا على أنفسهم، واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقال أبو البحتري: أرى أن تحبسوه في بيت، وتسدوا منافذه، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها، حتى يموت، فقال الشيخ: بنس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: أرى أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم، فلا يضركم ما

صنع، فقال الشيخ: بنس الرأي، يُفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً، وتعطوه سيفاً، فتضربوه ضربة واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإن طلبوا العَقْلَ عَقَلناه. فقال الشيخ: صدق هذا الفتى، فتفرقوا على رأيه، فأتي جبريلُ النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر، وأمره بالهجرة فبيت عليّاً رضي الله عنه على مضجعه، وخرج مع أبي بكر إلى الغار، ثم سافر مهاجراً إلى المدينة.

قال تعالى: {ويمكرون ويمكر الله}؛ برد مكرهم عليهم، أو مجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم، بأن أخرجهم إلى بدر، وقلل المسلمين في أعينهم، حتى تجرأوا على قتالهم، فقتلوا وأسروا، {والله خير الماكرين}؛ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداءً؛ لما فيه من إيهام الذم. قاله البيضاوي.

الإشارة: وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات، ليحبسوك في سجن الأكوان، مسجوناً بمحيطاتك، محصوراً في هيكل ذاتك، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام، أو يُخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته، أو من دائرة الإسلام إلى الزيف والإلحاد، عائداً بالله من المحن، والله خير الماكرين، فيرد كيد الماكرين، وينصر أوليائه المتوجهين والواصلين، وبالله التوفيق.

@ { وَإِذَا تُبَيَّنَّا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }

قلت: "إذا": ظرفية شرطية، خافضة لشرطها، معمولة لجوابها، أي قالوا وقت تلاوة الآيات: لو نشاء... الخ.

يقول الحق جل جلاله: { وَإِذَا تُبَيَّنَّا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا } القرآنية { قالوا قد سمعنا } ما تتلوه علينا { لو نشاء لقلنا مثل هذا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } أي: اخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المختلفة. قال البيضاوي؛ وهذا قول النَّصْر بن الحارث، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم، فإنه كان قاصهم، أي: يقص عليهم أخبار فارس والروم، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال: لو شئت لقلْتُ مثل هذا، أو قول الذين ائتمروا في شأنه: وهذا غاية مكائدهم، وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه، فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا، مع أنفثهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا، خصوصاً في باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة: هذه المقالة بقيت سُنَّةً في أهل الإنكار على أهل الخصوصية، إذا سمعوا منهم علوماً لدنية، أو أسراراً ربانية، أو حكماً قدسية، قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وهم لا يقدرّون على كلمة واحدة من تلك الأسرار، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية، دون من تأخر عنهم، فإنهم مغرورون عنده { وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا }

[فاطر: 43].

@ { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ }

قلت: " الحق " : خبر كان.

يقول الحق جل جلاله: { و { اذكر { إذ قالوا اللهم إن كان هذا { الذي أتى به محمد { هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء {؛ كأصحاب لوط، { أو ائتنا بعذاب أليم { ، قيل: القائل هذا هو النَّصْر بن الحارث، وهو أبلغ في الجحود. رُوي أنه لما قال: { إن هذا أساطير الأولين { ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " ويلك إنه كلام الله " فقال هذه المقالة. والذي في صحيحي البخاري ومسلم: أن القائل هو أبو جهل، وقيل: سائر قريش لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعوا على أنفسهم، زيادة في تكذيبهم وعتوهم. وقال الزمخشري: ليس بدعاء، وإنما هو جحود، أي: إن كان هو الحق فأمطر علينا، لكنه ليس بحق فلا تستوجب عقاباً. بالمعنى.

الإشارة: قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء، فعجلت عقوبته، ولعل ذلك الولي لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته، وإلا لكان على قدم نبيه صلى الله عليه وسلم.

@ { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } *
{ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ
إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَنَفِّوْنَ وَلَآكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وما كان الله ليُعذبهم وأنت فيهم { موجود { فيهم { ، ونازل بين أظهرهم، وقد جعلتك رحمة للعالمين، خصوصاً عشيرتك الأقربين، { وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرون { قيل: كانوا يقولون: غفرانك اللهم، فلما تركوه عُذِّبوا يوم بدر، وقيل: وفيهم من يستغفر، وهو من بقي فيهم من المؤمنين، فلما هاجروا كلهم عُذِّبوا، وقيل: على الفرض والتقدير، أي: ما كان الله ليُعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف: كان لنا أمانان من العذاب: النبي صلى الله عليه وسلم والاستغفار، فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم ذهب الأمان الواحد وبقي الآخر، والمقصود من الآية: بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم، وهو وجوده صلى الله عليه وسلم أو من يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى: { وما لهم إلا يعذبهم الله { أي: وأي شيء يمنع من عذابهم؟ وكيف لا يعذبون { وهم يصدُّون { الناس { عن المسجد الحرام {؟ أي: يمتنعون المتقين من المسجد الحرام، ويصدون رسوله عن الوصول إليه. { وما كانوا أولياءه { المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم، وهو ردُّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام؛ فنصد من نشاء وُدخل من نشاء. قال تعالى: { إن أوليائه إلا المتقون { أي: ما المستحقون لولايته إلا المتقون، الذين يتقون الشرك والمعاصي

ولا يعبدون فيه إلا الله، ويعظمونه، حق تعظيمه. { ولكن أكثرهم لا يعلمون } أن لا ولاية لهم عليه، وإنما الولاية لأهل الإيمان، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند أو أراد به الكل، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم أماناً لأمته ما دام حياً، فلما مات صلى الله عليه وسلم بقيت سنته أماناً لأمته، فإذا أميت سنته أتاهم ما يوعدون من البلاء والفتن، وكذلك خواص خلفائه، وهم العارفون الكبار، فوجودهم أمان للناس. فقد قالوا: إن الإقليم الذي يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولا بلاء، ولا هرج ولا فتن؛ لأنه أمان لذلك الإقليم، خلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والله تعالى أعلم.

@ { وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وما كان صلاتهم } التي يصلونها في بيت الله الحرام، وبسمنها صلاة، أو ما يضعون موضعها، { إلا مكاءً } أي: تصفيراً بالفم، كما يفعله الرعاة، { وتصديّة } أي: تصفيقاً باليد، الذي هو من شأن النساء، مأخوذ من الصدى، وهو صوت الجبال والجران. قال ابن جزي: كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوي: رُوي أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال والنساء، مشبكين بين أصابعهم، يصفرون فيها وبصفقون، وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُصلي، يخلطون عليه، ويرون أنهم يصلون أيضاً، ومساق الآية: تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم في قوله: { وما لهم ألا يعذبهم الله }، أو عدم ولايتهم للمسجد، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته.هـ.

قال تعالى: { فذوقوا العذاب } الذي طلبتم، وهو القتل والأسر يوم بدر، فاللام للعهد، والمعهود: (أو اتنا بعذاب اليم)، أو عذاب الآخرة، { بما كنتم تكفرون } أي: بسبب كفركم اعتقاداً وعملاً.

الإشارة: وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس، وتصفيقاً للوسواس والشيطان، وذلك لخراب بواطنهم من النور، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها، والعياذ بالله، فيقال لهم: ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْفِقُونَ تِلْكَ أَمْوَالُهُمْ حَسْرَةً تِلْكَ أَمْوَالُهُمْ يُعْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } * { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا } بذلك { عن سبيلِ الله }، ويحاربون الله ورسوله. قيل: نزلت في أصحاب العير؛ فإنه لما

أصيب قريش ببدر قيل لهم: أعينوا بهذا المال على حرب محمد، لعلنا ندرك منه ثأرنا، ففعلوا، وقيل: في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش، يطعم كل واحد منهم، كل يوم، عشر جزر، وقيل: في أبي سفيان، استأجر ليوم أحد ألفين من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى: { فسينفقونها } بتمامها، { ثم تكون عليهم حسرة } يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة، فيصير إنفاقها ندماً وغمّاً، لفواتها من غير حصول المقصود، وجعل ذاتها تصير حسرة، وهي عاقبة إنفاقها؛ مبالغة. قال البيضاوي: ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال، وهو إنفاق بدر، والثاني عن إنفاقها فيما يُستقبل، وهو إنفاق غزوة أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق، ومساق الثاني لبيان عاقبته، وهو لم يقع بعد. هـ. قلت: وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال: { والذين كفروا } أي؛ الذين ثبتوا على الكفر منهم؛ إذ أسلم بعضهم، { إلى جهنم يُحشرون }؛ يُضمون ويُساقون، { ليميز الله الخبيث من الطيب }؛ الكافرين من المؤمنين، أو الفساد من الصلاح، أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أنفقه المسلمون في نصرته، أي؛ حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب، { يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه } أي؛ يجمعه، أو يضم بعضه إلى بعض، حتى يتراكمون من فرط ازدحامهم، { فيجعل في جهنم } كله، { أولئك هم الخاسرون } الكاملون في الخسران، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، والإشارة تعود على الخبيث؛ لأنه بمعنى الفريق الخبيث، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أنفق ماله في لهو الدنيا، وفرجتها، من غير قصدٍ حسن، بل لمجرد الحظ والهوى، تكون عليه حسرة وندامة، تنقصي لذاته وتبقى تبعاته، وهو من كفران نعمة المال، فهو معرض للزوال، وإن بقي فهو استدراج، وعلامة إنفاقه في الهوى؛ أنه أتاه فقير يسأله درهماً منعه، وينفق في النزهة والفرجة الثلاثين والأربعين، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه، والعياذ بالله.

@ { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَصَّتْ سُنَّتُ الْأُولَى } {

يقول الحق جل جلاله: { قل للذين كفروا }؛ كقريش وغيرهم: { إن ينتهوا } عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول في الإسلام، { يغفر لهم ما قد سلف } من ذنوبهم، ولو عظمت، { وإن يعودوا } إلى الكفر وقتاله { فقد مصت سنن الأولين } أي؛ مصت عاداتي مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك، كعاد وثمود وأضرابهم، وكما فعل بهم يوم بدر، فليتوقعوا مثل ذلك، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة: قل للمنهمكين في الذنوب والمعاصي: لا تقنطوا من رحمتي، فإني لا يتعاطمني ذنب أغفره، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف، وأنشدوا:

يستوجب العفو الفتى، إذا اعترف بما جنى، وما أتى، وما اقترف

لقوله: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) وللشافعي رضي الله عنه:

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَصَاقَتْ مَدَاهِييَ جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلْمًا
تَعَاظَمَنِي دَنِييَ، فَلَمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي، كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
فَمَا زِلْتُ دَا جُودٍ وَقَصْلٍ وَمِيَّةٍ تَجُودٌ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرَمًا
فإن لم ينته المنهمك في الهوى فقد مضت سنة الله فيه؛ بالطرده والإبعاد،
وبخاف عليه سوء الختام، والعياذ بالله.
@ { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } * { وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَا وَنِعَمَ النَّصِيرِ }
{

يقول الحق جل جلاله: وقاتلوا من لم ينته عن كفره { حتى لا تكون فتنة } ،
أي: حتى لا يوجد منهم شرك، فهو كقوله عليه السلام: " أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ حَتَّى
يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ". { ويكون الدين كله لله } بحيث تضحل الأديان الباطلة
ويظهر الدين الحق، { فإن انتهوا } عن الكفر وأسلموا، { فإن الله بما يعملون
بصير }؛ فيجازيهم على انتهائهم، وقرأ يعقوب بن تاء الخطاب؛ على معنى: { فإن
الله بما تعملون } يا معشر المسلمين؛ من الجهاد، والدعوة إلى الإسلام،
والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، { بصير } فيجازيهم، ويضاعف أجوركم
بمن أسلم على أيديكم.

{ وَإِن تَوَلَّوْا } ، ولم ينتهوا عن كفرهم، { فاعلموا أن الله مولاكم }؛ ناصركم،
فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم، { نِعَمَ المولى }؛ فلا يضع من تولاه، { ونِعَمَ
النصير }؛ فلا يغلب من نصره.

الإشارة: يُؤمر المرید بجهاد القواطع والعلائق والخواطر، حتى لا يبقى في قلبه
فتنة بشيء من الحس، ويكون القلب كله لله، فإن انتهت القواطع فإن الله
بصير به، يجازيه على جهاده، ومجازاته: إدخال الحضرة المقدسة، مع المقربين،
وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه، وليستنصر به في
مجاهدته، فإن الله مولاة وناصره، وهو نعم المولى ونعم النصير.

@ { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنا عَبْدًا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
{

قلت: (فإن لله): مبتدأ حذف خبره، أي: فكون خمسة لله ثابت، أو خبر، أي:
فالواجب كون خمسة لله.

يقول الحق جل جلاله: { واعلموا أنما غنمتم من شيء } مما أخذتموه من
الكفار؛ قهراً بالقتال، لا الذي هربوا عنه بلا قتال، فكله للإمام قيء، يأخذ حاجته
ويصرف باقيه في مصالح المسلمين، ولا الذي طرحه العدو خوف الغرق،
فلواجده، بلا تخميس، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلخيص،

فأما ما أخذه بالقتال: فَلِلَّهِ { خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ }؛ الْجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِهِ:
{ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ }
[التوبة: 62]، وإنما المراد: قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء في الخمسة، فقال مالك: الرأي للإمام، يلحقه بيت القبيء،
ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رآه، كما
يعطي منه اليتامى والمساكين، وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه
عليهم، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي: يعطي للخمسة المعطوفة
على (الله)، ولا يجعل لله سهماً مختصاً، وإنما ذكر ابتداء تعظيماً، لأن الكل
ملكه، وسهم الرسول يأخذه الإمام، يصرفه في المصالح، فيعطي للأربعة
المعطوفة على الرسول، ويفضل أهل الحاجة. قال مالك: لا يجب التعميم، فله أن
يعطي الأوج، وإن جرم غيره، ومبني الخلاف: هل اللام لبيان المصرف أو
للاستحقاق، كما في آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة: على ثلاثة أسهم، لليتامى والمساكين وابن السبيل، قال: وسقط
الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية: يقسم على
ستة، أخذاً بظاهر الآية، ويصرف سهم الله إلى الكعبة، وسهم الرسول في
مصالح المسلمين، وسهم ذوي القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة، ثم
يعطي سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي: وذوو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب، لما روي: أنه صلى الله
عليه وسلم قسم سهم ذوي القربى عليهما، فقال عثمان وجبير بن مطعم: هؤلاء
إخوانك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منيهم، أرأيت إخواننا
من بني المطلب، أعطيتهم وحرممتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال عليه
الصلاة والسلام: " إِيْتَهُمْ لَمْ يُقَارِفُوا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ " وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ.
وقيل: بنو هاشم وحدهم. قلت: وهو مشهور مذهب مالك وقيل: جميع قريش. هـ.

ثم قال تعالى: { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ } ، أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه
جعل الخمس لهؤلاء، فسلموه إليه، وافنعوا بالأخماس الأربعة، { وما } وكذا إن
كنتم آمنتم بما { أنزلنا على عبدنا } محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن،
في شأن الأنفال، ومن النصر والملائكة، { يوم الفرقان }؛ يوم بدر، فإنه فرق
فيه بين الحق والباطل، { يوم التقى الجمعان }؛ المسلمون والكفار، { والله
على كل شيء قدير }؛ فيقدر على نصر القليل على الكثير، بالإمداد بالملائكة،
وبلا إمداد، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط، والله حكيم عليم.
الإشارة: واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم الدنية، والمواهب القدسية،
والأسرار الربانية، بعد مجاهدة العلائق والعوائق، حتى صار دين القلب كله لله،
فله خمسه؛ فناء، وللرسول؛ بقاء، ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل؛ تعظيماً وأداً. يعني: أن العلم بالله يقتضي بهذه الوظائف: الفناء في الله،
بالغيبه عما سواه، وشهود الداعي الأعظم، وهو رسول الله، والأدب مع عباد
الله، ليتحقق الأدب مع الله. ثم تعالى أعلم بأسرار كتابه.

@ { إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَا كُنْ لَيْقِصِيَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن

بَيِّنَةٌ وَبَحْيَا مَنْ حَيٍّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ { * } إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكِ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ بَلِيبٌ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ { * } وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّمُتُمْ فِيَا أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَا أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {

قلت: (إذ): بدل من (يوم الفرقان)، أو ظرف لالتقى، أو لاذكر، محذوفة، والعدوة مثلث العين: شاطئ الوادي و (الدنيا) أي: القربى، نعت له، و (القصوى): تأنيث الأقصى، وكان قياسه: قلب الواو ياء، كالدنيا والعليا؛ تفرقة بين الاسم والصفة، فجاء على الأصل، كالقود، وسُمع فيه: " القصيا " على الأصل، وهو شاذ. و (الركب): مبتدأ، و (أسفل): ظرف خبره.

يقول الحق جل جلاله: واذكروا { إذ أنتم بالعدوة الدنيا } أي؛ بعدوة الوادي القريبة من المدينة، { وهم } أي: كفار قريش، { بالعدوة القصوى } أي: البعيدة منها، { والركب } أي: العير التي قصدتكم، { أسفل منكم } أي: في مكان أسفل منكم، يعني الساحل، ثم جمع الله بينكم على غير ميعاد، { ولو تواعدتُم } لهذا الجمع، أنتم وهم للقتال، ثم علمتم حالكم وحالهم { لاختلفتم في الميعاد }؛ هيبة منهم؛ لكثرتهم وقتلكم، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعاً من الله تعالى خارقاً للعادة، فتزادوا إيماناً وشكراً، { ولكن } الله جمع بينكم من غير ميعاد؛ { ليقضي الله أمراً كان مفعولاً }؛ سابقاً في الأزل، وهو نصر أوليائه وقهراً أعدائه في ذلك اليوم، لا يختلف عنه ساعة.
 { ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة } ، أي: قدّر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها، لئلا يكون له حجة ومعدرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه. أو ليهلك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه، ويحيى بالإيمان من حي به عن بينة من ربه، { وإن الله لسميعٌ عَلِيمٌ } بكفر من كفر وإيمان من آمن، فيجازي كلا على فعله. ولعل الجمع بين صفة السمع والعلم؛ لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

وإذ ذكر أيضاً { إذ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكِ قَلِيلًا } ، كان صلى الله عليه وسلم قد رأى الكفار في نومه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه، فقويت نفوسهم وتجرؤوا على قتالهم، وكانوا قليلاً في المعنى، { ولو أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا } في الحس { لفشلتُم } لجيئتم، { ولتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ }؛ في أمر القتال، وتفرقت آراؤكم، { ولكنَّ الله سلم } أي: أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع؛ { إنه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } أي: يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها.

{ و } اذكر أيضاً { إذ يُرِيكُمُوهُمْ } أي: يريكم الله الكفار، { إذ التقيتم في أعينكم قليلاً } ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة، تثبتاً وتصديقاً لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم، { ويُقلِّلُكُمْ فِي أعينهم } ، حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكله جزور - بفتح الهمزة والكاف - جمع أكل -، أي: قدر ما يكفيهم جذور في أكلهم. قال البيضاوي: قللهم في أعينهم قبل التجم القتال؛ ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرتهم حين رأوهم مثليهم؛ لتفجأهم الكثرة فتبتهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات الله في تلك الوقعة، فإن البصر، وإن كان قد يرى الكثير قليلاً

والقليل كثيراً، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد
الله الأبصارَ عن إِبصارِ بعضٍ، مع التساوي في المرئي. هـ.

وإنما فعل ذلك في الجهتين؛ { ليقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً } أي: ليظهر الله
أمراً كان سبق به القضاء والقدر، فكان مفعولاً في سابق العلم، لا محيد عنه،
ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل، كما أن من شأن القدرة إبراز ما
سبق في الأزل، وإنما كرره؛ لاختلاف الفعل المعلن به؛ لأن الأول علة للتقائم
من غير ميعاد، وهنا لتقليلهم في أعين الكفرة، أو للتنبية على أن المطلوب من
العبد هو النظر إلى سابق القدر، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال،
ولذلك قال أثره: { وإلى الله تُرجع الأمور } ، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى
الله تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما يبرز منها، فكل ما يبرز
من عند الحبيب حبيب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح والأسرار بالعدوة القريبة من بحر الحقائق، ليس بينها وبينه إلا
إظهار أدب العبودية، وهو الذي بين بحر الحقيقة والشريعة، والأنفس وسائر
القواطع بالعدوة القصوى منه، والقلب، الذي هو الركب المنازع فيه، بينهما،
أسفل من الروح، وفوق مقام النفس، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن
الحضرة، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها، والحرب
بينهما سجال تارة ترد عليه الواردات الإلهية، التي هي جند الروح، فتنزّل عليه
بغته من غير ميعاد، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجس الردية فتحطه إلى أرض الحطوط بغته،
ليقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً في سابق علمه، فإذا أراد الله عناية عبدٍ قلل عنه
مدد الأغيار، حتى يراها كل شيء، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كل شيء
فتذهب عنه ظلمة الأغيار وإذا أراد الله خذلان عبدٍ قطع عنه مدد الأنوار، وقوى
عليه مدد الأغيار، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله من سوء
القضاء والقدر، وإليه الإشارة بقوله: { ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي
عن بينة } الآية. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
* { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا مَا يَتَّبِعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَبَصُدُونِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُخِيطٌ }

قلت: (بطراً ورياء): مصدران في موضع الحال، أي: بطرين ومراءين، أو مفعول
لأجله، و(بصُدُون): عطف على (بطراً)؛ على الوجهين، أي: صادين، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها آمنوا إذا لقيتم فئة؛ جماعة من الكفار عند
الحرب { فاثبتوا } للقائهم، ولا تفروا، { واذكروا الله } في تلك الحال سراً
داعين له، مستظهريين بذكره، متوجهين لنصره، معتمدين على حوله وقوته، غير
ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال؛ إذ لا يذكر الله تعالى في ذلك الحال
إلا الأبطال من الرجال { لعلكم تفلحون } بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي:
وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي ألا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه

عند الشدائد ويقبل عليه بشراشره، فارغ البال، واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في جميع الأحوال. هـ.

{ وأطيعوا الله ورسوله } فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فإن الطاعة مفتاح الخيرات، { ولا تنازعوا } باختلاف الآراء كما فعلتم في شأن الأنفال، { فتفشلوا } وتجنبوا، { وتذهب ريحكم } أي: ريح نصركم بانقطاع دولتكم، شبه النصر والدولة بهبوب الريح؛ من حيث إنها تمشي على مرادها، لا يقدر أحد أن يردّها، وقيل: المراد بها الريح حقيقة، فإن النصر لا تكون إلا بريح يبعثه الله من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخدول. وفي الحديث: " نُصِرْتُ بالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادٌ بِالذَّبُورِ ". { واصبروا إن الله مع الصابرين } بالمعونة والكلاءة والنصر.

{ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم } ، يعني: أهل مكة، خرجوا { بطراً } أي: فخراً وشرّاً { ورتاء الناس }؛ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسولُ أبي سفيانٍ، يقول لهم: ارجعوا فقد سلمت غيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى تأتي بدرًا، ونشرب بها الخمر، وتغني علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فتسمع بنا سائر العرب، فتهايأنا، فوافوها، ولكن سقوا بها كأس المنايا، وناحت عليهم النوائح؛ مما نزل بهم من البلايا، فنهى الله المؤمنين أن يكون أمثالهم بطرين مرأين، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص، لأن النهي عن الشيء أمرٌ بضده. { ويصدون عن سبيل الله } أي: خرجوا ليصدوا الناس عن طريق الله، باتباع طريقهم، { والله بما يعملون محيط } فيجازيهم عليه.

الإشارة: خاطب الله المتوجهين إليه، السائرين إلى حضرته، وأمرهم بالثبوت ودوام السير، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقة القواطع والشواغب، وكل ما يصددهم عن طريق الحضرة، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه، وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره، فمن صبر ظفر، ومن دام على السير وصل، وأمرهم أيضاً بطاعة الله ورسوله، ومن يدلهم على الوصول إليه، ممن هو خليفة عنه في أرضه، وأمرهم بعدم المنازعة والملاجة، فإن التنازع يُوجب تفرق القلوب والأبدان، ويوجب الفشل والوهن، ويذهب بريح النصر والإعزاز، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير، ممن أولع بالطعن والتنكير، بل يكونون على خلافهم مخلصين في أعمالهم وأحوالهم، دالين على الله، داعين إلى طريق الله، يُحِبُّونَ الله إلى عبادته، ويحبُّونَ عباد الله إلى الله، وهذه صفة أهل الله. نفعنا الله بذكرهم. آمين.

@ { وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ تَكَصَّ عَلَيْهَا عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَأَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } { وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } ومن جملتها: خروجهم إلى حربك؛ بأن وسوس لهم، { وقال لا غالب لكم اليوم من الناس } وإنني جارٌ لكم { قيل: قال لهم ذلك مقالة نفسانية، بأن ألقى في روعهم، وخيّل

إليهم أنهم لا يُغلبون ولا يطاقون، لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه في ذلك قرينة مجيرة لهم من المكاره.

{ فلما تراءت الفئتان { أي: تلاقي الفريقان، ورأى بعضهم بعضاً، { تكص على عقبيه {؛ رجع القهقري، أي: بطل كيده، وعاد ما خيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم، { وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله { ، أي: تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حولهم، لما رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل: إن هذه المقالة كانت حقيقة لسائبة. روي أن قريشاً لما اجتمعت على المسير إلى بدر، ذكرت ما بينهم وبين بني كنانة من العداوة، فهموا بالرجوع عن المسير، فمثل لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك الكناني، وقال: لا غالب لكم اليوم وإني جاز لكم، وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه، وكانت يده في يد الحارث بن هشام، فقال له: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، ودفع في صدر الحارث، فانطلق وانهمزوا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغه ذلك، فقال: والله ما شعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

وعلى هذا، يحتمل أن يكون معنى قوله: { إني أخاف الله { أي: أخاف أن يصيبني مكروهاً من الملائكة، أو يهلكني، ويكون هذا الوقت هو الوقت الموعود، إذ رأى فيه ما لم ير قبله. والأول: ما قاله الحسن، واختاره ابن حجر. وقال الورتجبي: أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحققاً في خوفه ما عصى الله طرفه عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي، عن عليّ - كرم الله وجهه - قال: هبت ريح شديدة، فلم أر مثلها، ثم هبت ريح شديدة، وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية: ميكائيل، والثالثة: إسرافيل، وكان ميكائيل عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها أبو بكر، وإسرافيل عن يساره، وأنا فيها. وعن عليّ أيضاً: قيل لي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل وإسرافيل ملك عظيم يحضر لصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى: { والله شديد العقاب } ، يجوز أن يكون من كلام إبليس، وأن يكون مستأنفاً.

الإشارة: عادة الشيطان مع العوام أن يُغريهم على الطعن والإنكار على أولياء الله، وإبذائهم لهم، فإذا رأى غيرة الله على أوليائه نكص على عقبيه، وقال: إني منكم بريء؛ إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب.

@ { إِذْ يَقُولُ الْمُبَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: واذكروا { إذ يقول المنافقون } من أهل المدينة، أو نفر من قريش كانوا أسلموا ويقوا بمكة، فخرجوا يوم بدر مع الكفار، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، { و } هم { الذين في قلوبهم مرض } أي:

شك؛ لم تطمئن قلوبهم، بل بقي فيها شبهة، قالوا: { غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ } أي: اغتر المسلمون بدينهم، فادخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله: { ومن يتوكل على الله فإن الله عزيزٌ } أي: غالب لا يذل من استجار به، وإن قل، { حكيمٌ } يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة: إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام، تستغرب العادة إدراكها، أو يغلب العطب فيها، فيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: غَرَّ هَؤُلَاءِ طريقتهم، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز لا يُغلب، ولا يُغلب من انتسب إليه، وتوكل في أموره عليه، حكيم فلا يَخرج عن حكمته وقدرته شيء، أو عزيز لا يُذل من استجار به، ولا يضيع من لاذ به، والتجأ إلى ذمارة، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره، قاله في الإحياء. ثم قال: وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأعيان، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

@ { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } * { ذَالِكِ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ }

قلت: جواب (لو) محذوف أي: لرأيت أمراً عظيماً، و(الملائكة): فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (الله)، و (الملائكة) مبتدأ، و (يضربون): خبر، والجملة: حال من (الذين كفروا)، والرابط: ضمير الواو، وعلى هذا فيوقف على ما قبله، وعلى الأول (يضربون): حال من الملائكة، (وذُوقوا): عطف على (يضربون) على حذف القول، أي: ويقولون ذوقوا. و (ذلك): مبتدأ، (بما قدمت): خبر، و (أن الله): عطف على " ما "؛ للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: { ولو ترى { يا محمد، أو يا من تصح منكم الرؤية، حال { الذين كفروا } حين تتوفاهم { الملائكة } بدير، أو مطلقاً، وهم { يضربون وجوههم وأدبارهم } ، أو حين يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم، حال كونهم الملائكة يضربون وجوههم وظهورهم، أو أستاذهم، لرأيت أمراً فظيماً. { و } يقولون لهم: { ذُوقوا } أي: باشروا { عذابَ الحريق } يوم القيامة؛ بشارة لهم بما يلقون من العذاب في الآخرة. وقيل: تكون معهم مقامع من حديد، كلما ضربوا التهيت النار منها، { ذلك } العذاب إنما وقع بكم { بما }؛ بسبب { قدمت أيديكم } أي: بما كسبتم من الكفر والمعاصي، { وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد }؛ حتى يعذب بلا سبب، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة: قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين في العصيان في هذه الآية، وذكر في سورة النحل الكاملين في الطاعة بقوله: { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ } [النحل:32] الآية، وسكت عن المخلطين، ولعلمهم يرون طرفاً من هذا أو طرفاً من هذا، والله تعالى أعلم.

@ { كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ } * { ذَالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَراً تَعَمَّةً أَنْعَمَهَا عَلَيْنَا قَوْمًا حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ }

قلت: (كذاب): خبر عن مضمرة، أي: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون، وهو عملهم وطريقتهم، التي دأبوا فيها، أي: داموا عليها (ذلك)؛ مبتدأ، و(بأن الله): خبر، وقال سيبويه: خبر، أي: الأمر ذلك، والفاء سببية.

يقول الحق جل جلاله: عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك، في استمرارهم على الكفر والمعاصي، كعادة { آل فرعون والذين } مضوا { من قبلهم }، ثم فسر دأبهم فقال: { كفروا بآيات الله } الدالة على توحيده، المنزلة على رسله، { فأخذهم الله بذنوبهم } كما أخذ هؤلاء، { إن الله قوي شديد العقاب }؛ لا يغلبه في دفعه شيء.

{ ذلك } العذاب الذي حل بهم، بسبب ذنوبهم وكفرهم؛ لأن { الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم } فيبدلها بالنقمة، { حتى يغيروا ما بأنفسهم } أي: حتى يبدلوا ما بأنفسهم، من حال الشكر إلى حال الكفر، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية، كتغيير قريش حالهم: من صلة الرحم، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه، بمعادة الرسول، والسعي في إراقة دم من تبعه، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها. إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة، { وأن الله سميعٌ } لما يقولون: { عليم } بما يفعلون.

دأبهم في ذلك التغيير { كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأعرقنا آل فرعون } لما بدلوا وغيروا، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم، { وكل } من الفرق المكذبة { كانوا ظالمين }؛ فأعرقنا آل فرعون، وقتلنا صناديد قريش؛ بظلمهم وما كنا ظالمين.

الإشارة: إذا أنعم الله على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة، ثم لم يشكروا الله عليها، بل قابلوها بالكفران، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان، فاعلم أن الله تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم، ويبدلها بأضدادها من النقم، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود، فمن أعطي ولم يشكر، سلب منها ولم يشعر، والشكر؛ ألا يُعصى الله بنعمه، كما قال الجنيد رضي الله عنه. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } * { الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } * { فَاِمَّا تَثَقَفْتُم فِي الْحَرْبِ فَامْسِكُوا بِهِنَّ مِمَّنْ خَلَقْتُمْ لَعَلَّكُمْ يَذَكَّرُونَ } * { وَاِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلِيًّا سَوَاءٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُ الْخَائِبِينَ } * { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ }

قلت: (فهم لا يؤمنون): جملة معطوفة على جملة الصلة، والفاء للتبنيهِ على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، (والذين عاهدت): بدل بعضٍ من (الذين كفروا)، و(فشرد): جواب (إما)، والتشريد: تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ { مَنْزِلَةٌ { الَّذِينَ كَفَرُوا } ، تحقق كفرهم، وسبق به القدر، { فهم لا يؤمنون } أبدأ؛ لِمَا سبق لهم من الشقاء. نزلت في القوم مخصوصين، وهم بنو قريظة، { الذين عاهدت منهم } أي: أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار، { ثم يَنْقُصُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ { أي: يخونون عهدك المرة بعد المرة، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أحد، وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم، فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف في ملا منهم إلى مكة، فحالفوا المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتل مقاتلتهم سبا ذراريهم، { وهم لا يتقون } شؤم الغدر وتبعته، أو: لا يتقون الله في الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى لنبيه الصلاة والسلام: { فإِذَا تَثَقَّفْتُهُمْ { أي: مهما تصادفهم وتظفر بهم { في الحرب فشَرِّدْ بِهِمْ { أي: فَرِّقْ عَنْكَ مِنْ يُنَاصِبُكَ بِسَبَبِ تَنكِيلِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، أَوْ نَكَلِّ بِهِمْ { مَنْ خَلَقَهُمْ }؛ بَأَنْ تَفْعَلْ بِهِمْ مِنَ النِّقْمَةِ مَا يَزْجُرُ غَيْرَهُمْ؛ { لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ } أي: لعل من خلفهم يتعظون فينزعجوا عن حربك.

{ وَإِذَا تَخَافَرَّ مِنْ قَوْمٍ { مَعَاهِدِينَ { خِيَانَةً } أي: نقص عهد بأمارات تلوح لك، { فإِنِذْ بِهِمْ { أي: فاطرح إليهم عهدهم { على سواءٍ } أي: على عدل وطريق قصد في العداوة، ولا تناجزهم بالحرب قبل العلم بالنبذ، فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في العلم بنقض العهد، فتستوي معهم في العلم بنقض العهد، { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } أي: لا يرضى فعلهم، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن المناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

{ وَلَا تَحْسِبَنَّ { يا محمد، { الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا { قدرتنا، ونجوا من نكالنا؛ { إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ } أي: لا يفوتون في الدنيا والآخرة، فلا يعجزون قدرتنا، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم، بل الله محيط بهم أينما حلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: شرف الإنسان وكماله في خمسة أشياء: الإيمان بالله، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه، والوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود.

وقال القشيري في قوله تعالى: { فإِذَا تَثَقَّفْتُهُمْ فِي الْحَرْبِ... { الآية، أي: إن صادفت واحداً من هؤلاء الذين دأبهم نقص العهد، فاجعلهم لمن يأتي بعدهم، لئلا يسلكوا طريقهم، فيستوجبوا عُقُوبَتَهُمْ. كذلك مَنْ فَسَخَ عَقْدَهُ مَعَ اللَّهِ بِقَلْبِهِ، برجوعه إلى رُحَصِ التَّأْوِيلَاتِ، ونزول إلى السكون مع العادات، يجعله الله نكالاً لمن بعده، بحرمان ما كان حَوْلَهُ وتغيصه عليه. ثم قال عند قوله: { وَإِذَا تَخَافَرَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً }، يريد إذا تحققت خيانة قوم منهم، فَصَرَّحَ بَأَنْ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْخِيَانَةُ زَالَ سَمْتُ الْأَمَانَةِ، وَخِيَانَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ. هـ.

@ { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وأعدوا لهم } ، أي: لناقضي العهد، أو لمطلق الكفار، { ما استطعتم من قوة } ، أي: ما قدرتم عليه من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبة ابن عامر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: " أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ " قالها ثلاثاً، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر؛ لأنه أعظم القوى، { و } { أعدوا لهم أيضاً } { من رباط الخيل } أي: من الخيل المربوطة للجهاد، وهو اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، بمعنى مفعول، أو مصدر، أو جمع ربيط؛ كفصيل وفصال.

والمراد: الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلق بقصد الجهاد، وهو من جملة القوة، فهو من عطف الخاص على العام، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال: { تُرْهِبُونَ بِهِ } أي: تخوفون بذلك الأعداء، أو بما ذكر من الخيل المربوطة، { عدو الله وعدوكم } يعني كفار مكة، { وآخريين من دُونِهِمْ } أي: من غيرهم من الكفرة، كفارس والروم وسائر الكفرة، { لا تعلمونهم } ، أي: لا تعرفونهم اليوم، { الله يعلمهم } ، وسيمكنكم منهم، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم، { وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ، في شأن الاستعداد، وغيره مما يستعان به على الجهاد، { يُوفِّ إِلَيْكُمْ } جزاؤه، { وأنتم لا تُظلمون } بتضييع عمل أو نقص أجر، بل يضاعفه لكم أضعافاً كثيرة، بسبعمئة أو أكثر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وأعدوا لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة، ما استطعتم من قوة، وهو العزم على السير من غير التفات، ومن رباط القلوب في حضرة الحق، تُرْهِبُونَ بِهِ عدو الله، وهو الشيطان، وعدوكم، وهي النفس، وآخريين من دونهم: الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس، لا تعلمونهم، الله يعلمهم؛ كالرياء والشرك الخفي، فإنه يدب دبيب النمل، وما تنفقوا من شيء يُوفِّ إِلَيْكُمْ أضعافاً مضاعفة، بالعز الدائم والغنى الأكبر، وأنتم لا تُظلمون.

وقال الورتجبي: أعلم الله المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء الله، وسمى آلة القتال بقوة، وتلك القوة قوة الإلهية التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه، بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطاً، حتى يقول في سره: إلهي خذهم، فياخذهم بلحظة، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلي قلب وليه بتفريجه من شرور مُعارضيه ومنكريه، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى منكربه حين قال: " شأهت الوجوه " وهذا الرمي من الله بقوله: { وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى } .

سمعت أن ذا النون المصري رضي الله عنه كان في غزو، وغلب المشركون على المؤمنين، ف قيل له: لو دعوت الله، فنزل عن دابته وسجد، فهزم المشركون في لحظة، وأخذوا جميعاً، وأسروا، وقتلوا.
وأيضاً: وأعدوا: أي اقتبسوا من الله قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم في محاربتها. قال أبو علي الروذباري، في قوله: { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } ، فقال: القوة هي الثقة بالله، قيل ظاهر الآية: إنه الرمي بسهام القيسي. وفي الحقيقة: رمي سهام الليالي في الغيب؛ بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحق؛ معتمداً عليه، راجعاً إليه عما سواه. هـ.

ثم بين أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات بقوله: { هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين } ، أي: قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بين سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعهم على محبة الله ومحبة رسوله، بعد تباينها بتفريقه لهم في أودية الامتحان، بقوله: { وألف بين قلوبهم } . وقال القشيري: الإشارة بقوله: { تُرهبون } : إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمَةٍ ينالها، أو إشفاء صدر عن قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا. هـ.

@ { وَإِنْ جَازُوا لِلْسَّلْمِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } *
{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ يَدَكَ وَيَتَصَّرُهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } *
{ وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَآكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنْ جَازُوا لِلْسَّلْمِ } أي: وإن مالوا للصلح { فَاجْتَحِ لَهَا } أي: فصالحهم، وميل إلى المعاهدة معهم، وتوكل على الله؛ فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعاً؛ فإن الله يعصمك من مكرهم؛
{ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }
[فاطر:42]، { إنه هو السميع } لأقوالهم، { العليم } بأحوالهم.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ } بعد الصلح { فَإِنْ حَسْبَكَ اللَّهُ } أي: فحسبك الله وكافيك شرهم، { هو الذي آتاك يديك } أي: قواك ونصرك { بنصره }؛ تحقيقاً، { وبالمؤمنين }؛ تشریفاً، أو { بنصره } قدرة، { وبالمؤمنين } حكمة، والقدرة والحكمة منه وإليه، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد، وقالوا: العطف يقتضي المغايرة.

{ وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } مع ما كان فيها من زمن الجاهلية من المعصية والضغائن والتهالك على الانتقام، حتى لا يكاد ياتلف فيهم قلبان، ثم صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: { لو أنفق ما في الأرض جميعاً } ، في إصلاح ما بينهم، { ما ألفت بين قلوبهم }؛ لتناهي عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في

إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم، { ولكنَّ الله ألفت بينهم } بقدرته البالغة؛ فإنه المالك للقلوب يُقبلها كيف يشاء. { إنه عزيز } تام القدرة، لا يعصي عليه ما يريد، { حكيم } يعلم كيف ينبغي أن يفعل ما يريد.

قيل: إن الآية نزلت في الأوس والخزرج، كان بينهم إحْنٌ وضغائن لا أمد لها، ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك، وألف بينهم بالإسلام، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة: وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها؛ بأن ألفت السلاح، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح، وعقدت الرجوع عن هواها، والدؤوب على طاعة مولاها، فالواجب عقد الصلح معها، وتصديقها فيما تأمر به أو تنهى عنه، مما يرد عليها، مع التوكل على مولاها، فإن خدعت بعد ذلك، أو رجعت إلى مألوفها، فالله يكفي أمرها، ويقوي صاحبها على درها، إما بسبب شيخ كامل، أو أخ صالح، فإن الصحبة فيها سر كبير، لا سيما مع أهل الصفاء، الذين صفت قلوبهم، وألف الله بينهم بالمحبة والوداد، وحسن الظن والاعتقاد، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: (حسبك): مبتدأ، و(الله): خبر، ويصح العكس، و(من اتبعك): إما عطف على (الله)، أي: كفاك الله والمؤمنون، أو في محل نصب على المفعول معه، أو في محل جر؛ عطف على الضمير، على مذهب الكوفيين، أي: حسبك وحسب من اتبعك الله، والأول: أصح.

يقول الحق جل جلاله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ } أي: كافيك الله، فلا تلتفت إلى شي سواه، أي: لَمَّا مَنَّتْ عَلَيْكَ بِاتِّلَافِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَصْرَتِكَ، فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ فِي مَحَلِّ التَّوْحِيدِ، فَإِنِّي حَسْبُكَ وَحْدِي بِغَيْرِ مَعَاوَنَةِ الْخَلْقِ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَفْرُدَ الْقَدَمَ عَنِ الْحَدِيثِ فِي سَيْرِكَ مِنِّي إِلَيَّ، وَأَنَا حَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ كُلِّ مَا دُونِي، وَإِنْ كَانَ مَلَكًا مَقْرِبًا أَوْ نَبِيًّا مَرْسَلًا، وَلَا يَنْبَغِي فِي حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ النَّظَرَ إِلَى غَيْرِي، إِنَّمَا أَيْدُوكَ بِوَأَسْطَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَكَرْتُهُمْ مَعِي؛ تَشْرِيفًا لِأَمْتِكَ، وَسْتِرًا لِقُدْرَتِي، وَإِظْهَارًا لِكَمَالِ حِكْمَتِي، وَإِلَّا فَقُدْرَتِي لَا يَفُوتُهَا شَيْءٌ، وَلَا تَتَوَقَّفُ عَلَى شَيْءٍ؛ " جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل "

قال البيضاوي: نزلت الآية تأييداً في غزوة بدر، وقيل: أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه. فنزلت. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في إسلامه.

الإشارة: ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب به ورثته الكرام، من الاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه، وتصحيح عقد التوحيد، والاعتماد على الكريم المجيد. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } * { الْآنَ حَقَّقَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ صَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }

قلت: التحريض: هو الحث على الشيء والمبالغة في طلبه، وهو من الحرص، الذي هو الإشفاء على الهلاك.

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها النبي حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } أي: حثهم { على القتال } أي: الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله: { إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا }، وهذا خبر بمعنى الأمر، أي: يقاتل العَشْرُونَ مِنْكُمْ المائتين، والمائة الألف، وليثبتوا لهم، ولا يصح أن يكون خبراً محضاً؛ إذ لو كان خبراً محضاً لَمَا تَخَلَّفَ فِي الْوَاقِعِ، ولو في جزئية؛ إذ خبره تعالى لا يخلف.

قال الفخر الرازي: حَسُنَ هذا التكليف لِمَا كَانَ مَسْبُوقاً بِقَوْلِهِ: { حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }؛ فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً؛ لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرُونَ على إذايته.هـ.

وإنما كان القليل من المؤمنين يقاوم الكثير من الكفار { بأنهم }؛ بسبب أنهم { قوم لا يفقهون }، أي: لأنهم جهلة بالله واليوم الآخر، فلا يثبتون ثبات المؤمنين، رجاء الثواب والترقي في الدرجات، قتلوا أو ماتوا، بخلاف الكفار؛ فلا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

ولمَّا كلفهم بهذا في أول الإسلام، وشيَّقَ ذلك عليهم، خفف عنهم فقال: { الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا }؛ فلا يقاوم الواحدُ مِنْكُمْ العشرة، ولا المائَةُ الألفَ، { فإن يكن مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ }؛ أمرهم بمقاومة الواحد لاثنتين. وقيل: كان فيهم قلة، فلما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة؛ للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد، والضعف: ضعف البدن، لا ضعف القلب.

قال بعض الصحابة - رضي الله عنهم -: لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا: { والله مع الصابرين } أي: بالنصر والمعونة، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده؟.

الإشارة: ينبغي لأهل التذكير أن يُحرضوا الناس على جهاد نفوسهم، الذي هو الجهاد الأكبر، وإنما كان أكبر؛ لأن العدد الحسي يقابلك وتقابله، بخلاف النفس فإنها جاءت تحت الرماية خفية عدو حبيب، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال، فينبغي للشيوخ أن يحضوا المرابين على جهادها، ويهونوا لهم شأنها، فإنَّ النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمي اليد فيها، فإذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت، وسهل علاجها، وإذا خفت منها، وسوّفت لها، طالت عليك وملكتك، ولا بد في جهادها من شيخ يريك مساوئها، ويعينك بهمته على قتلها، وإلا بقيت في العتّة معها، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها، وهي المعرفة بسيدها وخالقها. والله تعالى أعلم.

@ { مَا كَانَ لِتَيْبٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرًا حَتَّىٰ يُنْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } * { لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا

أَحَدْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ { * فَكُلُوا مِمَّا عَنِمْتُمْ خَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
رَّحِيمٌ {

يقول الحق جل جلاله: { ما كان لني أن يكون له أسرى { يقبضها { حتى يُثخن { أي: يبالغ { في الأرض {؛ بالقتل حتى يذل الكفر وبقل حبه، وبعز الإسلام ويستولي أهله. { تُريدون { يقبض الأسارى { عَرَضَ الدنيا {؛ حطامها بأخذ الفداء منهم، { والله يُريدُ الآخرة { أي: يريد لكم ثواب الآخرة، الذي يدوم ويبقى، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه، { والله عزيز { يغلب أولياءه على أعدائه، { حكيم { يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها، كما أمر بالإثخان، وَمَعَ مِنْ أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين، وخير بينه وبين المنّ لما تحولت الحال، وصارت الغلبة للمؤمنين.

رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبّعين أسيراً، فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستأذن فيهم؛ فقال أبو بكر رضي الله عنه: قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ، اسْتَقِمْ، لعل الله يتوب عليهم، وَخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تُقَوِّي بِهَا أَضْحَابَكَ. وقال عمر رضي الله عنهم: اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكُفْرِ وَإِنَّ اللَّهَ أَعْتَاكَ عَنِ الْفِدَاءِ، فَمَكْنِي مِنْ فُلَانٍ - لَتَسِيبَ لَهُ - وَمَكْنٌ عَلِيًّا وَحَمْرَةَ مِنْ أُخُوْبِهِمَا، فَلَتَضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ فَلَمْ يَهُوَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَيَلِيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنْ كُلِّ لَيْنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مَثَلُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَثَلُ إِبْرَاهِيمَ " ، قَالَ:
{ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَفُورٌ رَّحِيمٌ {
[إبراهيم: 36]، وَمَثَلُكَ يَا عَمْرٌ مَثَلُ نُوحٍ، قَالَ:
{ رَبِّ لَا تَذَرْنَا لَنَا أَرْضًا مِنَ الْكُفْرِينَ دِيَارًا {

[نوح: 26]. فخير أصحابه، فأخذوا الفداء، فنزلت، فدخل عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو وأبو بكر يتكلمان، فقال: يا رسول الله: أخبِرْنِي، فَإِنْ أُجِدَّ بُكَاءُ بَكَيْتُ، وَإِلَّا تَبَاكَيْتُ؟ فقال: " أبكي على أضْحَابِكَ فِي أَحَدِهِمْ الْفِدَاءِ، وَلَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ " لِشَجَرَةِ قَرِيْبَةٍ.

والآية دليل على أن الأنبياء - عليهم السلام - يجتهدون، وأنه قد يكون الخطأ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري: أَحَدَ النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر منهم الفداء، وكان ذلك جائزاً لوجوب العصمة، ولكن قتلهم كان أولى. هـ. وقال ابن عطية: إنما توجه العتاب للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم، لا على الفداء؛ لأن الله تعالى قد كان خيرهم، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين، كما تقدم في سورة آل عمران. ثم قال: والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه في الحاشية.

فإن قلت: إذا كان الحق تعالى خيرهم فكيف عاتبهم، وهم لم يرتكبوا محظوراً؟ فالجواب: أن العتاب تابع لعلو المقام، فالخواص يُعاتبون على المباح، إن كان فعله مرجوحاً، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم في أمر دنيوي، وهو الفداء، حتى أثاروا قتل أنفسهم على أخذه، وبدل عليه قوله: { تُريدون عَرَضَ الدنيا { ، وهذا إنما كان في بعضهم، وُجِّلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى في تمام عتابهم: { لولا كتابٌ من الله سبق } أي: لولا حكم الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو أنه سيحل لكم الغنائم، أو ما سبق في الأزل من العفو عنكم، { لمسكم فيما أخذتم }؛ من الفداء أو من الأسارى، { عذابٌ عظيم }. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال، حيث نزلت: " لو نزل العذاب ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ "؛ وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال: { فكلوا مما غنمتم } من الكفار، ومن جملته: الفدية، فإنها من الغنائم، { حلالاً طيباً } أي: أكلاً حلالاً، فائدته: إزاحة ما وقع في نفوسهم بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على المتقدمين. روي أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت: { فكلوا مما غنمتم }، ووصفة بالطيب؛ تسكيناً لقلوبهم، وزيادة في حليتها. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " أعطيتُ حَمْسًا لِي لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: أَجَلْتُ لِي الْعَتَائِمَ، وَنَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهُوراً وَأَعْطَيْتُ الشَّقَاعَةَ، وَخُصَصْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى: { واتقوا الله } في مخالفته؛ { إن الله غفور رحيم } أي: يغفر لكم ما فرط، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم؛ توسعة عليكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما ينبغي للفقير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم، عوضاً عن الدنيا، حتى يبلغ في قتل نفسه وتموت، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه، أو جمع المال، والتمتع بالحظوظ، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده، وتعجيل العقوبة له، حتى إذا تداركه الله بلطفه، وسبقت له عناية من ربه، فيقال له حينئذٍ: لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِيهَا أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } * { وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَاتَتَكَ فَقَدْ حَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

قلت: (أسرى): جمع أسير، ويجمع على أسارى. وقرئ بهما، و (خيراً مما): اسم تفضيل، وأصله: أخير، فاستغنى عنه بخير، وكذلك شر؛ أصله: أشر، قال في الكافية:

وغالباً أغناهم خير وشر عن قولهم: أخير منه وأشر يقول الحق جل جلاله: { يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى } الذين أخذتم منهم الفداء: { إن يعلم الله في قلوبكم خيراً } من الفداء.

روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه؛ كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدي نفسه، وإبني أخويه: عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال: يا محمد، تركتني أتكيفُ قريشاً ما بقيت، فقال له عليه الصلاة والسلام: وأين الذهب الذي دفعتهُ لأمّ الفضل وقت حُرُوجك، وقلت لها: لا أدري ما يصيني في وجهي هذا، فإن حدت بي حدت فهو لك، ولعبد الله، وعبيد الله، والفضل،

وَقْتَمَ، قَالَ لَهُ وَمَا يُدْرِيكَ؟ قَالَ: أَخْبَرَنِي بِرَبِّي تَعَالَى، قَالَ: فَأَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَقَدْ دَفَعْتَهُ إِلَيْهَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ.

قال العباس: فأبَدَنِي اللهُ خيراً من ذلك، أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله، ولي الآن عشرون عيداً، إن أدناهم يضرب - أي: يتجر - في عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم، ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم، يعني: الموعود بقوله تعالى: { وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ }.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا { الأَسَارَى { خِيَانَتِكَ }؛ بنقض ما عهدوك به، { فقد خانوا الله مِنْ قَبْلُ }؛ بالكفر والمعاصي { فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ } وأمكنك من ناصيتهم، فقيضوا وأسروا ببدن، { والله عليمٌ } لا يخفى عليه شيء، { حكيمٌ } فيما دبر وأمضى.

الإشارة: يقال للفقراء المتوجهين إلى الله، الذين بذلوا أموالهم ومهجهم، وقتلوا نفوسهم في طلب محبوبهم: إن يعلم الله في قلوبكم خيراً، كصدق وإخلاص، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم، من ذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الغناء الأكبر، والسر الأشهر، الذي هو الفناء في الله، والغيبية عما سواه، ونمرته: المشاهدة التي تصحبها المكالمة، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير، فكل من باع نفسه في طلب هذا فقد رحت صفقته، وزكت تجارته، مع غفران الذنوب، وتغطية المساويء والعيوب. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } * { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ }

يقول الحق جل جلاله: { إن الذين آمنوا وهاجروا } أوطانهم في الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لنصرة الدين بالجهاد، { وجاهدوا بأموالهم } فصرفوها في الإعداد للجهاد، كالكراع والسلاح، وأنفقوها على المجارح، { وأنفسهم في سبيل الله }؛ بمباشرة القتال، { والذين آووا } رسول الله ومن هاجر معه، وواسوهم بأموالهم { ونصروا } دين الله ورسوله، { أولئك بعضهم أولياء بعض } في التعاون والتناصر، أو في الميراث.

وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب، حتى نسخ بقوله:

{ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ }
[الأحزاب: 6].

ثم ذكر من لم يهاجر فقال: { والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء }؛ لا في النصرة، ولا في الميراث، { حتى يهاجروا } إليكم، { وإن استنصروكم } على المشركين { في } إظهار { الدين فعليكم النصرة } أي: فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم، لئلا يستولي الكفر على الإيمان، { إلا على قوم } كان { بينكم وبينهم } عهد { ميثاق }، فلا تنقضوا عهدهم بنصرهم. فإن

الخيابة ليست من شأن أهل الإيمان، { والله بما تعملون بصيرٌ } لا يخفى عليه من أوفى ومن نقص.

{ والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعضٍ } في الميراث. ويدل بمفهومه، على منع التوراث والمؤازرة بينهم وبين المسلمين. { إلا تفعلوه } أي: إلا تفعلوه ما أمرتم به من موالة المؤمنين ونصرتهم، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر، { تكن فتنة في الأرض }؛ باستيلاء المشركين على المؤمنين، { وفسادٌ كبير } بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم، أو: إلا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق، تكن فتنة في الأرض، فلا يفي أحد بعهد أبداً، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة: أهل التجريد، ظاهراً وباطناً، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة وأووا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم، أو أووا أشياخهم وقاموا بأموالهم، ونصروا الدين بالتذكير والإرشاد والدلالة على الله، أينما حلوا من البلاد، أولئك بعضهم أولياء بعض في العلوم والأسرار، وكذلك في الأموال. فقد قال بعض الصوفية: (الفقراء: لا رزق مقسوم، ولا سر مكتوم). وهذا في حق أهل الصفاء من المتحابين في الله.

والذين آمنوا ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين، فقد نهى الله عن موالاتهم في علوم الأسرار وغوامض التوحيد؛ لأنهم لا يطيقون ذلك؛ لشغل فكرتهم الأسباب أو بالعلوم الرسمية، نعم، إن وقعوا في شبهة أو حيرة، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير في اعتقادهم. والله تعالى أعلم.

@ { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَتَصَرَّوْا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } * { وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

قال البيضاوي: لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام، - أي: مهاجرين، وأنصار، ومن آمن ولم يهاجر - بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم، بتحصيل مقتضاه من الهجرة، والجهاد، وبذل المال، ونصرة الحق، ووعد لهم الوعد الكريم، فقال: { لهم مغفرة ورزق كريم }؛ لا تبعه له، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم في الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

{ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ... }

أي: من جملتكم أيها المهاجرين والأنصار. هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم، فقال:

{ ... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }.

يقول الحق جل جلاله: { وأولوا الأرحام } من قرابة النسب، { بعضهم أولى ببعض } في التوارث من الأجنبي، وظاهره: توريث ذوي الأرحام، كالأخ والعم والعمومة وسائر ذوي الأرحام، وبه قال أبو حنيفة، ومنعه مالك، ورأى أن الآية منسوخة بأية الموارث التي في النساء، أو يراد بالأولية: غير الميراث، كالنصرة وغيرها. وقوله: { في كتاب الله } أي: في القرآن، أو اللوح المحفوظ. { إن الله بكل شيء عليم } من أمر الموارث وغيرها، أو عليم بحكمة إنانيتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولاً، بالقرية ثانياً، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الناس ثلاثة: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فالعوام: هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية. والخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص: هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهراً وباطناً، خربوا ظواهرهم، وعموا بواطنهم، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب إلى مقاومهم بقوله:

يا قارئ علم التوحيد هنا البحور التي تعبي
هذامقام أهل التجريد الواقفين مع ربي
فأهل التجريد، كالمهاجرين والأنصار، وأهل الأسباب من أهل النسبة، كمن لم يهاجر من الصحابة، ومن تجرد بعد ودخل معهم، والتحق بهم. قال تعالى: قال لوالديني: { والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم } ، ومن لا نسبة له كمن لا صحة له، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلي سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله، وصحبه، وسلم تسليمًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

#سورة التوبة#

@{ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } * { قَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُّعْزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ }

قلت: (براءة): خبر عن مضمرة، أي: هذه براءة و (مِنَ): ابتدائية، متعلقة بمحذوف، أي: واصلة من الله، و (إلى الذين): متعلقة به أيضاً، أ و مبتدأ لتخصيصها بالصفة، و (إلى الذين): خبر.

يقول الحق جل جلاله: هذه { براءة } أي: تبرئة { من الله ورسوله } واصلة { إلى الذين عاهدتم من المشركين } ، فقد تبرأ الله ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين، لأنهم نكثوا أولاً، إلا أناساً منهم لم ينكثوا، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة، وسيأتي استثناءهم. قال البيضاوي: وإنما علقت البراءة بالله وبرسوله، والمعاهدة بالمسلمين؛ للدلالة على أنه يجب عليهم نذر عهود المشركين إليهم، وإن كانت صادرة بإذن الله واتفاق الرسول؛ فإنهما برئتا منها. هـ.

وقال ابن جزري: وإنما أسند العهد إلى المسلمين؛ لأن فعل الرسول صلى الله عليه وسلم لازم للمسلمين، وكانهم هم الذين عاهدوا المشركين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محددة، فمنهم من وقى، فأمر الله أن يتم عهده إلى مدته، ومنهم من نقص أو قارب النقص،

وجعل له أجل أربعة أشهر، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله: { فسيحوا في الأرض أربعة أشهر } آمنين لا يتعرض لكم أحد، وبعدها لا عهد بيني وبينكم. وذكر الطبري: أنهم أسلموا كلهم في هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنها نزلت في شوال، وقيل: هي عشرون من ذي الحجة، والمحرم، وصفر، وربيع الأول، وعشر من الآخر، لأن التبليغ كان يوم النحر؛ لما روي (أنها لما نزلت أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه راجياً العصباء ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم، فقيل: لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال: " لا يُؤدِّي عني إلا رجلٌ مني " فلياً دنا عليُّ رضي الله عنه، سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ الرُّغَاءَ، فَوَقَفَ وَقَالَ: هَذَا رُغَاءُ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَقَفَ، فَلَمَّا لَحِقَهُ قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ قَالَ: مَأْمُورٌ، فَلَمَّا كَانَ قَبْلَ التَّرْوِيَةِ حَاطَبُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَخَدَّتْهُمْ عَنْ مَتَابِعِهِمْ، وَقَامَ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - يَوْمَ النَّحْرِ، عِنْدَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَقَالُوا: بِمَاذَا؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَرْتُ بِأَرْبَعٍ: أَلَّا يَقْرَبَ التَّبَيُّتَ بَعْدَ هَذَا مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْبَانٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَأَنْ يَتِمَّ كُلُّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ).

ولعل قوله صلى الله عليه وسلم:

" ولا يؤدِّي عني إلا رجل مني " خاص بنقض العهود، لأنه قد بعث كثيراً من الصحابة ليؤدوا عنه، وكانت عادة العرب ألا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوي مختصراً.

ثم قال تعالى لأهل الشرك: { واعلموا أنكم غير مُعجزي الله } أي: لا تفوتونه، وإن أمهلكم، { وأن الله مُخزي الكافرين } في القتل والأسر في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة.

الإشارة: وقد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقاً، أما الشرك الجلي فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان، وأما الشرك الخفي فقد تبرأ منه مقام الإحسان، ولا يدخل أحدٌ مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء، ولا يستند إلى شيء، إلا على من بيده ملكوت كل شيء، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب، حتى لا يبقى في نظره إلا الكريم الوهاب، فمن أصرَّ على شوكة الجلي أو الخفي فإن الله يمهل ولا يهمل، فلا بد أن يلحقه وباله: إما خزي في الدنيا، أو عذاب في الآخرة، كل على ما يليق به.

وقال القشيري: إِنْ قَطَعَ عَنْهُمْ الْوَصْلَةَ فَقَدْ صَرَبَ لَهُمْ مَدَّةٌ عَلَى وَجْهِ الْمُهَلَّةِ، فَأَمَّنْهُمْ فِي الْحَالِ؛ لِيَتَأَهَّبُوا لِتَحْمُلِ مِقَاسَةِ الْبِرَاءَةِ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ فِي الْمَالِ. وَالْإِشَارَةُ فِيهِ: أَنَّهُمْ إِنْ أَقْلَعُوا فِي هَذِهِ الْمُهَلَّةِ عَنِ الْعَيِّ وَالضَّلَالِ، وَجَدُوا فِي الْمَالِ مَا فَقَدُوا مِنَ الْوَصَالِ. وَإِنْ أَبَوْا إِلَّا التَّمَادِي فِي تَرْكِ الْخِدْمَةِ وَالْحَرَمَةِ، انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْوَصْلَةِ. هـ. والله تعالى أعلم.

@ { وَأَدَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْإِيمِ } * { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ

لَمْ يَنْفُضُواكُمْ سَيِّئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَّا مُدَّتْهُمْ إِنْ
اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ {

قلت: (وأذان): مبتدأ، أو خير، على ما تقدم في براءة، وهو قَعَال بمعنى إفعال؛
كالعطاء بمعنى الإعطاء، أي: وإعلام من الله ورسوله واصل إلى الناس، ورفع "
رسوله "؛ إما عطف على ضمير برئ، أو على محل " إن " واسمها، أو مبتدأ
حذف خبره، أي: ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله: { وأذانٌ من الله ورسوله } واصل إلى الناس، ويكون
{ يومَ الحج الأكبر } وهو يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن
الإعلام كان فيه. ولما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - وقف يوم النحر، عند
الجمرات، في حجة الوداع فقال: " هذا يوم الحج الأكبر " ، وقيل: يوم عرفة؛
لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " الحج عرفة " ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة
تسمى الحج الأصغر.

وذلك الإعلام بأنَّ { الله بريء من المشركين ورسوله } - عليه الصلاة والسلام -
كذلك. قال البيضاوي؛ ولا تكرر؛ فإن قوله: { براءة من الله }؛ إخبار بثبوت
البراءة، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك، ولذلك علقه بالناس ولم يخص
بالمعاهدين. هـ. { فَإِنْ تُبْتُمْ } يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك، { فهو } أي:
الرجوع { خَيْرٌ لَكُمْ } ، { وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ } أي: أعرضتم عن التوبة وأصررتم علي
الكفر { فاعلموا أنكم غير معجزى الله }؛ لا تفوتونه طلباً، ولا تعجزونه هرباً في
الدنيا، { وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } في الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال: { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ }
أي: لكن الذين عاهدتم { من المشركين } ، وهم بنو ضميره وبنو كنانة، { ثم لم
يَنْفُضُواكُمْ شَيْئًا } من شروط العهد، ولم ينكثوا، ولم يقتلوا منكم ولم يضرؤكم
قط، { ولم يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا } أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم،
{ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى } تمام { مُدَّتْهُمْ } ، وكانت بقيت لهم من عهدهم
تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين؛ { إن الله يحب المتقين } ، وهو تعليق
وتنبه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوي.

الإشارة: من أعظم شؤم الشرك: إن الله ورسوله تبرأ من أهله مرتين: خاصة
وعامة، فيجب على العبد التخلص منه خفياً أو جلياً، ويستعين على ذلك بصحبة
أهل التوحيد الخاص، حتى يُخلصوه من أنواع الشرك كلها، فإن صدر منه شيء
من ذلك فليبادر بالتوبة وأصر على شركه، كان ذلك هوانه وخزيه، وبالله التوفيق.

@ { فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا مِنْهُمْ
وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَفِغْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {

يقول الحق جل جلاله: { فإذا انسلخ الأشهر } أي: انقضى الأشهر، { الحرم }
وهي الأربعة التي امهلهم فيها، فمن قال: إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة
والمحرم، فهي الحرم المعروفة، زاد فيها شوال، ونقص رجب، وسميت حرماً؛
تغلياً للأكثر، ومن قال: إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني، فسميت حرماً؛ لحرمتها

ومنع القتال فيها حينئذٍ. وغلط من قال: إنها الأشهر الحرم المعلومة؛ لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع؛ لأنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوي.

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها { فاقتلوا المشركين } الناكثين { حيث وجدتموهم } من حل أو حرم، { وخذوهم } أسارى، يقال للأسير: أخيد، { واحصروهم }؛ واحبسوهم { واقعدوا لهم كل مرصد }؛ كل ممر وطريق؛ لئلا ينسطوا في البلاد، { فإن تابوا } عن الشرك وأمنوا، { وأقاموا الصلاة } وأنوا الزكاة {؛ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم؛ { فخلوا سبيلهم } أي؛ فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك.

وفيه دليل على ان تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله، بل يقاتل؛ كما فعل الصديق رضي الله عنه بأهل الردة. والآية: في معنى قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة... " الحديث.

{ أن الله غفور رحيم } ، هو تعليل لعدم التعرض لمن تاب، أي: فخلوهم؛ لأن الله قد غفر لهم، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة: فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم، وخذوا أعداءكم من النفس والشيطان والهوى، واحصروهم، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم، فإن أذعنوا، وانقادوا، وألقوا السلاح، فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم.

@ { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: " أحد " : فاعل يفسره: " استجارك " .

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنْ } أنك { أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } المأمورين بالتعرض لهم، حيثما وجدوا، { استجاركَ }؛ يطلب جوارك، ويستأمنك، { فَأَجِرْهُ } أي: فأمنه؛ { حتى يسمع كلام الله } ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، لعله يُسلم، { ثم أبلغه مأمنه } أي: موضع أمنه إن لم يسلم، ولا تترك أحداً يتعرض له حتى يبلغ محل أمنه؛ { ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون } أي: ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة الإيمان، ولا تدعوهم إليه، فلا بد من إيجارهم، لعلهم يسمعون ويتدبرون؛ فيكون ذلك سبب إيمانهم.

الإشارة: وإن استجارك - أيها العارف - أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق، وأراد أن يسمع شيئاً من علوم القوم، فأجره حتى يسمع شيئاً من علومهم وأسرارهم، فلعل ذلك يكون سبباً في دخوله في طريق القوم، ولا ينبغي للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام، بل يتلطفوا معهم، ويسمعوهم ما يليق بحالهم؛ لأنَّ العوام لا علم لهم بما للخواص، فإن اطلعوا على ما خصهم الله به من العلوم دخلوا معهم، إن سبق لهم شيء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا في جوار أحد منهم، وإلا أنكرته البلد؛ لأن البلد أم تغير على غير أبنائها، ولا ينبغي أيضاً للعموم أن يدخلوا بلد الخصوص إلا في جوار رجل منهم، وإلا أنكرته البلد. هـ.

@ { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } * { كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } * { اسْتَرَوْا بآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنِ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } * { لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } * { قَانَ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَأَخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقِضَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {

قلت: (إلا الذين): محله النصب على الاستثناء، أو جر على البدل من المشركين، أو رفع على الانقطاع، أي: لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم، و (الإل): القرابة والحلف، وحذف الفعل في قوله: (كيف وإن يظهروا عليكم)؛ للعلم به بما تقدم، أي: كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم... الخ.

يقول الحق جل جلاله: في استبعاد العهد من المشركين والوفاء به: { كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله }؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين، مع ما تقدم لهم من النقص والخيانة فيه، { إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام } قيل: هم المستثنون قبل. وقال ابن اسحاق: هي قبائل بني بكر، كانوا دخلوا وقت الحديبية، في المدة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس: هم قريش، وقال مجاهد: خزاعة، وفي القولين نظر؛ لأن قريشا وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان؛ لأنهم أسلموا في الفتح، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى في شأن من استثنى: { فما استقاموا لكم } على العهد ولم يغدروا، { فاستقيموا لهم } على الوفاء، أي: تريضوا بهم وانتظروا أمرهم، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم، { إن الله يحب المتقين } الذين إذا عاهدوا وفوا، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال: { كيف } يصح منهم الوفاء بعهدكم { و } { هم } { إن يظهروا عليكم } ويظفروا بكم في وقعة { لا يرقبوا } أي: لا يراعوا { فيكم إلا }؛ قرابة أو حلفاء، وقيل: ربوبية، أي: لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولا يخافون عقابه، { ولا ذمة } أي: عهداً، أو حقاً يعاب على إغفاله، { يرضونكم بأفواههم }؛ بأن يعدوكم بالإيمان والطاعة، والوفاء بالعهد، في الحال، مع استيطان الكفر والغدر، { وتابى } أي: تمنع { قلوبهم } ما تفوه به أفواههم، { وأكثرهم فاسقون } متمردون، لا عقيدة تزجرهم، ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر؛ لما في بعض الكفرة من التمادي على العهد، والتعفف عما يجر إلى احدوثه السوء. قاله البيضاوي.

{ اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ } أي: استبدلوا بها { ثَمَنًا قَلِيلًا } أي: عرضاً يسيراً، وهو اتباع الأهواء والشهوات، { فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ }؛ دينه الموصول إليه، أو بيته بصد الحجاج عنه. { إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أي: قبح عملهم هذا، أو ساء ما كانوا يعملون من كونهم { لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاذِمَةً }؛ فيكون تفسيراً لعملهم السوء، لا تكريهاً. وقيل: الأول في الناقضين العهد، وهذا خاص بالذين اشتروا، وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطمعهم.

وقوله تعالى: { فِي مُؤْمِنٍ } فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هي لأجل الإيمان فقط، وقوله أولاً: { فِيكُمْ }، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم، فزال هذا الاحتمال بقوله: { فِي مُؤْمِنٍ }.
قاله ابن عطية:

{ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } في الشرارة والقبح. { فَإِنْ تَابُوا } عن الكفر، { وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَأَخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ }؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، { وَنَفَضُوا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }، حث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينبغي للخواص أن يثقوا بمحبة العوام، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم، فإن محبتهم على الحروف، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم، وأطماعهم، نكثوا وأدبروا، فللعارف غنى بالله عنهم. وفي ذلك يقول سيدنا علي - كرم الله وجهه :-

مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ، إِنَّهُمْ
وَقَدَّرُ كُلِّ أَمْرٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ
عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءَ
وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

@ { وَإِنْ نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } * { أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ } * { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْزُقِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَبْسُفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } * { وَيُدْهَبُ عَيْطُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْنَا مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { وَإِنْ نَكُتُوا أَيْمَانَهُمْ } أي: نقضوها { مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ } أي: من بعد ما أعطوكم من العهد على الوفاء بها، { وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ } بصريح التكذيب وتقيح الأحكام، { فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ } أي: فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير؛ للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر، فهم أجراء بالقتل، وقيل: المراد رؤساء المشركين، والتخصيص: إما لأن قتلهم أهمُّ وهم أحقُّ به، أو لمنع من مراقبتهم، { إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ } على الحقيقة، وإلا لم يقدروا أن ينكثوها، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لا تلزم، وهو ضعيف؛ لأن المراد، نفي الوثوق عليها، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. قلت: وما قالته الحنفيَّةُ هو مذهب المالكية، إذا حنث في حال الكفر، ثم أسلم، فلا يلزمه شيء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة، أي: لا أيمان لهم صحيحاً يعصم دماءهم.

{ لعلهم ينتهون } أي: ليكن غرضكم في مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه، كما هي طريقة أهل الإخلاص لا إيصال الإذية لهم، أو مقابلة عداوة.

ثم حصَّ على قتالهم فقال: { أَلَا تُفَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ } التي حلفوها للرسول صلواته عليه وسلم وللمؤمنين على ألا يعاونوا عليهم، فعاونا بني بكر على خزاعة، { وهمَّوا بإخراج الرسول } حين تشاوروا في أمره بدار الندوة على ما مرَّ، { وهم بدؤوكم أول مرة } بالمعاداة والمقاتلة؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - بدأهم بالدعوة، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم، { أتخشونهم } أي: أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمري، { فالله أحقُّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين }؛ فإن قضية الإيمان ألا يُخاف إلا منه.

ثم وعدهم بالنصر فقال: { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ }؛ يُهْنِمُ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، { وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ }، فيمكنكم من رقابهم، ويملككم أموالهم ونساءهم، { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ }، يعني: بني خزاعة شفوا صدورهم من بني بكر؛ لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل: بطوناً من اليمن قدموا مكة وأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أبشروا، فإن الفرج قريب". { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ }؛ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم، وقد أوفى الله بما وعدهم؛ بفتح مكة وهوازن.

والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح، فيلتئم مع ما بعده، ويبعد اتسامه مع ما قبله من البراءة، ونبذ العهد والإعلام بذلك؛ لكونه بعد الفتح، والله أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة بعد الفتح، وبعضها؛ من قوله: (وإن أحد من المشركين...) إلخ نزل قبل الفتح، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول صلى الله عليه وسلم: "اجعلوا هذه الآية في محل كذا". والله تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله: { وَتَوَبُّوا لِلَّهِ عَلَىٰ مِمَّا كُنتُمْ تُجْرِمُونَ }، فيهديه للإيمان، ثم يتوب عليه، وقد كان ذلك في كثير منهم. { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } بما كان يكون، { حَكِيمٌ } لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.

الإشارة: من رجع عن طريق القوم، ونقض عهد الأشياخ، ثم طعن في طريقهم، لا يرجى فلاحه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أعني في طريق الخصوص؛ لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء، وقد قال تعالى: "من آذى لي ولياً فقد آذنتني بالحرب" ومن رجع عنها؛ لضعف ووهن، مع بقاء الاعتقاد والتسليم، وربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم، بخلاف الأول، فقد تقدم عن الفشيري، في سورة آل عمران، أنهم يريدون الشفاعة فيه، فيخلق الله صورة على مثله، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه، فيبقى مع عوام أهل اليمن. فانظره. وبالله التوفيق.

@ { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

قلت: " أم ": منقطعة، بمعنى الهمزة؛ للإنكار والتوبيخ على الحساب، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين، والوليحة: البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله: { أم حسبتم { أي: أظننتم { أن تُتْرَكُوا { من غير اختبار، ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم { أي: ولم يتبين الخلق منكم، وهم الذين جاهدوا، من غيرهم، والمراد: علم ظهور، أي: أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره، قال البيضاوي: نفى العلم، وأراد نفى المعلوم؛ للمبالغة، فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

{ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً {؛ بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سر يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالة من عادهم، والتعبير بـ (لما): يقتضي أن ظهور ذلك متوقع، { والله خير بما تعملون {؛ تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة: إفراد المحبة لله ولأولياء الله من أعظم القربات إلى الله، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة الله، والاتلفت إلى أهل الغفلة؛ بالصحة والمودة، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن الله، والعياذ بالله. وفي الحديث: " المرء على دين خليله " و " المرء مع من أحب " و " من أحب قوماً حُشِرَ معهم " إلى غير ذلك من الآثار في هذا المعنى.

@ { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيَا أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ } * { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { ما كان للمشركين { أي: ما صح لهم { أن يعمروا مساجد الله { أي: شيئاً من المساجد، فضلاً عن المسجد الحرام، وقيل: هو المراد، وإنما جمع؛ لأنه قبلة المساجد وإمامها، فأمره كأمرها، وبدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد، أي: ليس لهم ذلك، وإن كانوا قد عمروه تغلباً وظلماً، حال كونهم { شاهدين على أنفسهم بالكفر {؛ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، أي: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين: عمارة بيت الله، وعبادة غير الله، { أولئك حبطت أعمالهم { في الدنيا والآخرة؛ لما قارنها من الشرك والافتخار بها، { وفي النار هم خالدون {؛ لأجل كفرهم.

{ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة { ، أي: إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية، ومن عمارتها: تزيينها بالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبني له؛ كحديث الدنيا.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى: " إِنَّ بُيُوتِي فِي أَرْضِي الْمَسَاجِدُ وَإِنَّ رُؤَايَ فِيهَا عُمَّارُهَا، فَطُوبَى لَعَبِدٍ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِي، ثُمَّ رَأَى فِي بَيْتِي، فَحَقَّ عَلَى الْمُرُورِ أَنْ يُكْرِمَ رَأْيَهُ " ووقف عبد الله بن مسعود على

جماعة في المسجد يتذكرون العلم فقال: بأبي وأمي العلماء، بروح الله اثتلفتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله انتظرتكم، أحبكم الله، وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتامه الإيمان به، ولدلالة قوله: " وأقام الصلاة وآتى الزكاة " عليه. قال البيضاوي.

{ ولم يخش { في أموره كلها { إلا الله } ، فهذا الذي يصلح لعمارة بيت الله، { فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين } ، وعبر بعسى، قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخاً لهم على القطع بأنهم مهتدون؛ فإن كان اهتداء هؤلاء، مع كمالهم، ودائراً بين عسى ولعل، فما ظنك بأضدادهم؟، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ " ثم تلا الآية.

الإشارة: مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد، فيه توحيد مجرد، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله، غائب عما سواه، قد رفض الركون إلى الأسباب، وأفراد الوجهة لمسبب الأسباب، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. وإنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام صلاة القلوب، وآتى زكاة النفوس، ولم يراقب أحداً من المخلوقين، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

@ { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } * { الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } * { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } * { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

قلت: السقاية والعمارة: مصدران، فلا يشبهان بالجنه، فلا بد من حذف، أي: أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو جعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله: { أجعلتم { أهل { سقاية الحاج، و { أهل { عمارة المسجد الحرام { من أهل الشرك المحبطة أعمالهم، { كمن آمن بالله واليوم الآخر { من أهل الإيمان، { وجاهد في سبيل الله {؛ لإعلاء كلمة الله، المثبتة أعمالهم، بل { لا يستون عند الله { أبداً؛ لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم في أسفل سافلين، إن لم يتوبوا، وأهل الإيمان والجهاد في أعلى عليين.

ونزلت الآية في علي - كرم الله وجهه - والعباس وطلحة بن شيبه، افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندني مفاتحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي رضي الله عنه: لقد أسلمت وجاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبين الله تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل، ووبخ من افتخر بغير ذلك

فقال: { والله لا يهدي القوم الظالمين } أي: الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم، وداموا على ذلك، وقيل: المراد بالظالمين: الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد بقوله: { الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة } ، وأعلى رتبة، وأكثر كرامة، { عند الله } ، ممن لم يستجمع هذه الصفات، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم، { وأولئك هم الفائزون } بكل خير، الظافرون بنيل الحسنى والزلفى عند الله، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد في كرامتهم فقال: { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ } أي: تقريب، وعطف منه { ورضوان وجنات لهم فيها } أي: في الجنان { نعيم مقيم }؛ دائم، لا نفاد له ولا انقطاع. وتنكير المبشر به؛ إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف، حال كونهم { خالدين فيها أبداً } ، أكد الخلود بالتأييد؛ لأنه قد يطلق على طول المكث، { إن الله عنده أجر عظيم } يُستحقر دونه مشاق الأعمال المستوجبة له، أو نعيم الدنيا؛ إذ لا قدر له في جانب نعم الآخرة.

الإشارة: لا يستوي من قعد في وطنه مع عوائده وأسبابه، راکناً إلى عشائره وأحبابه، واقفاً مع هواه، غافلاً عن السير إلى مولا، مع من هاجر وطنه وأحبابه، وخرق عوائده هو أسبابه، وجاهد نفسه وهواه، سائراً إلى حضرة مولا، لا يستوون أبداً عند الله؛ لأن هؤلاء مقربون عند الله، والآخرين في محل البعد عن الله، ولو كثر علمهم وعملهم عند الله، شتان بين من همته القصور والخور، وبين من همته الحضور ورفع الستور، يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم، وهو الشهود والعيان، لا يحجب عنهم طرفة عين، إن الله عنده أجر عظيم، لا يخطر على قلب بشر لا حرماناً الله من ذلك.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } * { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم }؛ الذين بقوا على كفرهم { أولياء }؛ توالونهم بالمحبة والطاعة، { إن استحبوا الكفر } واختاروه على الإيمان. نزلت في شأن المهاجرين؛ فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرتنا، وزهبت تجارتنا، وبقينا ضائعين. وقيل: نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة، فنهى الله عن موالاتهم. { ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون }؛ بوضعهم الموالات في غير موضعها.

{ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم } أي: أصحابكم، أو أقرباؤكم، { وأموال اقترفتُموها، } اكتسبتموها، { وتجارة تخشون كسادها } أي: فوات وقت إنفاقها، { ومسكن ترضونها }؛ لحسنها وسعتها، فإن كان ذلك { أحبَّ إليكم من الله ورسوله } أي: من الإيمان بالله وصحبة ورسوله، { وجهاد في سبيله } ،

فأترتم ذلك، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة، { فتربصوا حتى يأتي الله بأمره } أي: بعقوبة عاجلة أو آجلة، أو بنصر وفتح على المؤمنين، كفتح مكة وغيرها، والمراد بالمحبة: الاختيارية دون الطبيعة؛ فإنها لا تدخل تحت التكليف، والتحفظ عنها؛ لأن حب الأوطان والعشائر طبيعي، والحب المكلف به اختياري، بحيث يجاهد نفسه في إبدال الطبيعي بالاختياري.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله: { والله لا يهدي القوم الفاسقين } لا يرشدهم ولا يوفقهم. وفي الآية تهديد عظيم، وقل من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة: الهجرة من أوطان الغفلة واجبة، ومفارقة الأصحاب والعشائر؛ الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى الله فريضة، فيجب على المرید أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه، كائنه ما كانت، وما رأينا ولياً قط أنتج في بلده، إلا القليل، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم من وطنه إلى المدينة، وحينئذ نصر الدين، بقيت سنة في الأولياء، لا تجد ولياً يعمر سوقه إلا في غير بلده، ويجب عليه أيضاً أن يعتزل من يشغله عن الآباء والأبناء والأزواج والعشائر، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن الله، بعد أن يقيم في أولاده حقوق الشريعة، فالليب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة، فلا يضيع من يعول، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها، ويذكر الله مع ذلك، فيخالطهم بحسه، ويفارقهم بقلبه، فإن لم يستطع وأراد دواء قلبه فليخير الزوجة، ويؤكل من ينوب عنه في القيام بحقوق العيال، حتى يقوى قلبه ويتمكن مع ربه، { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق: 2 - 3].

ولإبراهيم بن أدهم رضي الله عنه:

هَجَرْتُ الْخَلْقَ طُرّاً فِي رِضَاكَ وَأَيْتَمْتُ الْبَيْنَ لِكَيْ أَرَاكَ
فَلَوْ قَطَعْتَنِي إِرْبًا قَارِبًا لِمَا حَنَّ الْفُؤَادُ إِلَى سِوَاكَ

وبالله التوفيق.
@ { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ سِنِيْنَا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذْبِرِينَ } * { ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْنَا رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } * { ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَيْنَا مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

قلت: { ويوم حنين } عطف على { مواطن } ، أو منصوب بفعل مضمر، وهذا أحسن؛ لأن قوله: { إذ أعجبتكم كثرتكم } خاص بيوم حنين. انظر: ابن جزي.

يقول الحق جل جلاله: في تذكيرهم بالنعم: { لقد نصركم الله في مواطن كثيرة } أي: في مواقف الحرب ومداحضها في مواضع كثيرة، { و } نصركم أيضاً { يوم حنين } ، وهي غزوة كانت بعد فتح مكة، متصلة بها، في موضع يقال له: حنين، سمي باسم رجل كان يسكنه، وهو وادٍ بين مكة والطائف، حارب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، وكانوا اثني عشر ألفاً: عشرة

آلاف من الذين حضروا فتح مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب. وكانوا ثلاثين ألفاً، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، فأدرك المسلمون إعجابهم، واعتمادهم على كثرتهم، فانهزموا حتى وصل جُلهم إلى مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه، ليس معه إلا عمه العباس، أخذاً بلجامه، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وناهيك شهادة على تناهي شجاعته صلى الله عليه وسلم، فقال العباس - وكان صيِّباً -: صيِّح بالناس، فنادي: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً، يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة، فالتقوا مع المشركين، فقال - عليه الصلاة والسلام -: " هذا حين حَمِي الوطيس " ، ثم أخذ كفاً من تراب فرماهم، وقال: " شأهت الوجوه " ، ثم قال: " انهزموا ورب الكعبة " ، فانهزموا.

فأشار تعالى إلى مقاتلتهم معاتباً لهم عليها بقوله: { إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً } أي: فلم تُغْنِ تلك الكثرة عنكم شيئاً من الإغناء، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم؛ لأنه معصوم من الإعجاب، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب، بل على وجه الإخبار، وعلى ذلك جرى الحكم في المذهب: من حرمة الفرار عند بلوغ اثني عشر ألفاً، وكان المسلمون يومئذ اثني عشر ألفاً بالطلاق؛ وهم مسلمة الفتح؛ وكانوا ألفين، وسُموا بالطلاق؛ لمن النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، يقال لمن أطلق من أسر: طليق، وجمعه على طلقاء نادر؛ لأنه يشترط في فعل، الذي يجمع على فعلاء، أن يكون بمعنى فاعل، كظريف وشريف، لا بمعنى مفعول، كدفين ودفنى، وسخين وسخنى، منه. طليق.

ثم قال تعالى: { وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ }؛ برحبها، أي: ضاقت على كثرة اتساعها، فلم تجدوا فيها مكاناً تطمئن إليه نفوسكم من الدهش، { ثم وليتم مدبرين }؛ هارين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، { ثم أنزل الله سكينته } أي: طمأنينته { على رسوله وعلى المؤمنين } بعد انهزامهم، فرجعوا وقاتلوا، أو على من بقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يفروا. وإعادة الجار؛ للتنبيه على اختلاف حالهما.

{ وأنزل جنوداً } من الملائكة { لم تروها } بأعينكم، وكانوا خمسة آلاف، أو ثمانية، أو ستة عشر، على اختلاف الأقوال. { وعدَّ الذين كفروا } بالقتل والأسر والسبي، { وذلك جزاء الكافرين } أي: ما فعل بهم هو جزاء كفرهم في الدنيا، { ثم يتوبُّ الله من بعد ذلك على من يشاء } منهم، بالتوفيق للإسلام، { والله غفور رحيم } يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.

رُوي أن أناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا، وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبرهم، وقد سببنا أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا - وقد سببنا يومئذ ستة آلاف نفس، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال: " اختاروا، إما سبيكم، وإما أموالكم ". فقالوا ما كُنَّا نَعِدُّ الأحساب شيئاً، فمن كان بيده سبي فطابت نفسه أن يرده فشاؤه، ومن لا، فليعطنا، وليكن قرطاً علينا حتى نُصيب شيئاً فنُعطيهِ مثله " ، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: " إني لا أدري، لعل فيكم من لا يرصني، فارجعوا حتى يرفع إليَّ عُرقاؤكم أمركم "

فرفعوا إليه أمرهم، وقالوا: قد رضوا، فردّ السبي إليهم، وقسم الأموال في المؤلفة قلوبهم، ترغيباً في تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة في كتب السيرة، والله تعالى أعلم.

الإشارة: لقد نصركم الله، يا معشر المريرين، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم، في مواطن كثيرة، إذا رجعتم إلى ربكم، واعتزلتم من حولكم وقوتكم في جميع أموركم، فمن علامة النجاح في النهاية الرجوع إلى الله في البداية، ما تعذر مطلب أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك، فمن رجع إلى نفسه، أو استند إلى عقله وحده، لم تغن عنه شيئاً، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، ورجع من حيث جاء، فإن انتبه، ورجع إلى ربه، أنزل سكينته عليه، وأيده باليقين، ورجا أن يدرك أمله من رب العالمين.

قال الورتجي: قوله تعالى: { ثم أنزل الله سكينته على رسوله } ، سكينته - عليه الصلاة والسلام - زيادة أنوار كشف مشاهدة الله، له، حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفايته الأزلية، وأمنة من مكره، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحر القدم لم ير للحدث أثراً، ورأى الحدثان متلاشياً في فيض العظمة، ففرغ منه به، فأواه الله منه إليه، حتى سكن به عنه.هـ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس } أي: عين الخبث، مبالغة في خبثهم، إما لخبث باطنهم بالكفر، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات، ولا يتوقون منها، فهم ملابسون لها غالباً. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. { فلا يقربوا المسجد الحرام } ، وهو نص على منع المشركين - وهم عبدة الأوثان - من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة في الكفار، خاصةً بالمسجد الحرام، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة، وأباح دخول غيره، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهي، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم سائر المساجد، وأباح دخول أهل الكتاب في المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزي.

قوله تعالى: { بعد عامهم هذا } يعني: سنة تسع من الهجرة، حين حج أبو بكر بالناس، وقرأ علي رضي الله عنه عليهم سورة براءة.

{ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } أي: فقرأ بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوت منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغني بقوله: { فسوف يغنيكم الله من فضله }؛ من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها،

وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن.

وقيده بالمشيئة؛ لتقطع الآمال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام، { إن الله عليمٌ } بأحوالكم، { حكيم } فيما يعطي ويمنع.

الإشارة: بيوت الحضرة - وهي القلوب المقدسة - لا ينبغي أن يدخلها شيء من شرك الأسباب، أو الوقوف مع رفق الأصحاب، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحي القيوم، ولا ينبغي أيضاً أن يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر، والعزلة عن أربابها؛ لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها، فتموت بعد حياتها، وكان عيسى - عليه الصلاة والسلام - يقول لأصحابه: (لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قالوا: من الموتى يا روح الله؟ قال: المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خفتم عليه؛ بالفرار منهم واعتزال نجاستهم، فسوف يغنيكم الله من فضلٍ عَيْبِهِ إن شاء في الوقت الذي يشاء، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. والله تعالى أعلم

قال القشيري: { إنما المشركون نجسي } أي: لأنهم فقدوا طهارة الأسرار، فبقوا في مزابل الظنون والأوهام، فَمُنِعُوا قُرْبَانَ المساجد التي هي مساجدُ القرب، وأما المؤمنون فطَهَّرَهُم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فَرَدُوا فيما ينشيه من الأمر ويُمضيه من الحكم. هـ.

@ { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } {

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين: { قاتلوا } أهل الكتاب من اليهود والنصارى { الذين لا يؤمنون بالله } على ما يجب له، لإشراكهم عُزِير وعيسى، ولتجسيمهم، { ولا باليوم الآخر }؛ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني، فإيمانهم في الجانبين كلا إيمان { ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله } محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وغير ذلك مما حرّمته الشريعة المحمدية، { ولا يدينون دين الحق } أي: لا يدخلون في الإسلام، الذي هو الدين الحق، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بيّن الذين أمر الله بقتالهم بقوله: { من الذين أوتوا الكتاب }؛ وهم اليهود والنصارى، وحين نزلت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك لقتال النصارى، ووصل إلى أوائل بلد العدو، فصالح أهل أدرج وأيلة، وغيرهما، على الجزية وانصرف، ذلك امتثال للآية.

قال تعالى: { حتى يُعْطُوا الجزية } أي: ما تقرر عليهم أن يعطوه، وقدرها عند مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق، يؤخذ ذلك من كل رأس، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى، ويلحق بهم المجوس؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ " لأن لهم

شبهة كتاب، فألحقوا بهم. واختلفوا في قبولها من عبدة الأوثان؛ قال مالك: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى: { عن يدٍ } أي: يباشر إعطاءها بيده، لا يبعثها مع أحد، أو لا يملك بها، كقولك: يدا بيد، أو عن استسلام وانقياد، كقولك: ألقى فلان بيده. { وهم صاغرون }؛ أذلاء محقرين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: تؤخذ الجزية من الذمي، وتوجأ عنقه، أي: تصفع.

الإشارة: يؤمر المرید بقتل نفسه وحطوطه وهواه، وأعظمها: حب الدنيا والرئاسة والجاه، ولا يزال يخالف هواها، ويعكس مراداتها، ويحملها ما يثقل عليها، حتى تنقاد إليه بالكلية، بحيث لا يثقل عليه شيء، ويستوي عندها العز والذل، والفقر والغنى، والمدح والذم، والمنع والعطاء، والفقد والوجد، فإن استوت عندها الأحوال فقد أسلمت وأعطت ما يجب عليها، فيجب حفظها ورعايتها، وتصديقها فيما يرد عليها. وبالله التوفيق.

@ { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } *
{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوهُ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } * { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَا اللَّهُ إِلَهُ الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْفِنَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } *
{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }

قلت: (عزير): مبتدأ، و (ابن الله): خبر، فمن نونه جعله مصروفاً؛ لأنه عنده عربي، ومن حذف تنوينه؛ إما لمنعه من الصرف؛ للعلمية والعجمية عنده، وإما لالتقاء الساكنين؛ تشبيهاً للنون بحروف اللين، وهو ضعيف، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله: { وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } ، قال ابن عباس: هذه المقالة قالها أربعة منهم، وهم: سلام بن مُسْكَم، وُعَمَانُ أو لُقْمَانُ بْنُ أَوْقَى، وشَّاسُ بْنُ قَيْسٍ، وَمَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ. وقيل: لم يقلها إلا فنحاص، ونسب ذلك لجمعهم؛ لسكوتهم عنه. قال البيضاوي: إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم، أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك؛ لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو - أي عزير - لما أحياه الله بعد مائة عام، أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجبوا من ذلك، وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية فُرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب.

{ وقالت النصارى المسيح ابْنُ اللَّهِ } ، هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وتقدم الرد عليهم، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم، في سورة المائدة.

قال تعالى: { ذلك قولهم بأفواههم } من غير دليل ولا برهان، بل قالوا به من عندهم { يُضَاهِئُونَ } أي: يشابهون في هذه المقالة { قول الذين كفروا من قبل

{ ، يعني: قدامهم، على معنى أن الكفر قديم فيهم. قال ابن جزي: فإن كان الضمير لليهود والنصارى، أي المتقدمين، فالإشارة بقوله: (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب، إذ قالوا: الملائكة بنات الله، وهم أول كافر، أو للصابئين، أو لأمم تقدمت، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم؛ من اليهود والنصارى، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

{ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ } أي: أهلكهم ودمرهم؛ لأن من قاتله الله هلك، فيكون دعاء، أو تعجباً من شناعة قولهم، { أَيْ يُؤْفَكُونَ } أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

{ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ } أي: علماءهم { ورهبانهم }؛ { عُبَادَهُمْ } أرباباً من دون الله {؛ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وفي السجود لهم، { والمسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ }؛ بأن جعلوه ابن الله، { وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً } وهو الله الواحد الحق، وأما طاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وسائر من أمر بطاعته، فهو في الحقيقة طاعة الله، { لا إله إلا هو }؛ تقرير للتوحيد، { سبحانه عما يشركون }؛ تنزيهاً له عن أن يكون معه شريك.

{ يريدون أن يُطْفِئُوا } أي: يُخمدوا { نورَ الله }؛ القرآن أو الإسلام بجملته، { بأفواههم } كقولهم فيه: سحر، وشعر، وغير ذلك، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا، { ويأبى الله }؛ لا يرضى { إلا أن يُتِمَّ نوره } بإعلاء التوحيد وإظهار الإسلام، وإعزاز القرآن وأهله، { ولو كره الكافرون } ذلك، فإن الله لا محالة يُتِمُّ نوره، ويظهر دينه.

هو الذي أرسل رسوله { محمداً صلى الله عليه وسلم } بالهدى ودين الحق ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ { ، الضمير في " يُظهِرُهُ " للدين الحق، أو للرسول صلى الله عليه وسلم. واللام في " الدين " للجنس، أي: على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم، وقد أنجز وعده، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها، حتى عم المشارق والمغرب، { ولو كره المشركون } ذلك الإظهار، فيظهره الله رغماً من أنفسهم. وقيل: يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السلام، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة: من انطمس نور بصيرته نسب لله ما لا يليق بكمالته، ومن لم تنهضه سوايق العناية وقف مع الوسائط ولم ينفذ إلى شهود الوسائط، وقد عيّر الله قوماً وقفوا مع الوسائط فقال: { اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ ورهبانهم أرباباً من دون الله } ، وقال، في شأن الوسطة العظمى؛ غيرةً على القلوب أن تقف مع غيره:

{ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ }

[آل عمران: 128]

{ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ }

[هود: 12]، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكي، فقال: وما يبكيك؟ فقال له: مات أستاذي، فقال له ذلك العارف: ولم جعلت أستاذك من يموت؟.

فالوسائط؛ كالأنبياء والأولياء، إنما هم مَوْصَلُونَ إلى الله، دالون عليه، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى الله فقد اتخذه ربا عند الخواص.

وقال الورتجبي على هذه الآية: عَيَّرَ الحق تعالى من بقي في رؤية المقتدى به دون رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فإن في أفراد القدم من الحدوث، النظر إلى الوسائط، وهو شرك، وتصديق ذلك تمام الآية؛ { وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً } . عَيَّرَهُ الوجدانية ما أَبَقِيَتْ فِي التَّيْنِ غَيْراً من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال الله تعالى: { قُلِ اللَّهُ تَمَّ دَرَهُمْ } [الأنعام: 91]. ولما رأى صلى الله عليه وسلم غيره القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز في المدح فقال: " لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح "

ثم قال الورتجبي: قَالَ بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحق من غير مظانه، وطرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق، وبصر سبل التحقيق، ومن أعمى عن ذلك كان مردوداً عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقله عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزواقين من أهل السالوس المتزينين بزى المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة، يُضْحِكُ اللّهُ الدّهْرَ من جهلهم حيث حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يُدْقِ طعمِ وصالِ الله، وقلْبُهُ معلق بغير الله، هو من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمرید خيراً هداه إلى صحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم، لكفيهم شقاوتهم، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال الله في شأنهم: { يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون } ، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوار شمس الصفات، التي من جباه وجوههم، ولئالي خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوجدانية وسماوات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: { هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } : إن الله سبحانه سن سنة أزلية: ألا يجد أحد سبيله إلا من يُفِيضُ له أستاذاً عارفاً بالله، ويسر دينه وربوبيته، فيدله إلى منهاج عبوديته، ومعارض روحه وقلبه، إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله، يؤتیه من يشاء بغير علة ولا سبب، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب، وصيره شافعياً للجنايات، لا شريكاً في الهدايات، هداه نور القرآن، وبينه حقيقة البيان، مع إظهار البرهان. قيل: جعل الله الوسائط طريقاً لعباده إليه، وبعثهم أعلاماً على الطرق ونوراً يهتدى بهم، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين، قال الله تعالى: { أرسل رسوله بالهدى ودين الحق } ، انتهى كلامه.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } * { يَوْمَ يُحْمَا عَلَيْهَا فِي تَارٍ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ }

قلت: (يحمى عليها): الجار والمجرور: نائب الفاعل، وأصله: يوم تحمى النار الشديدة الحمى عليها، فجعل الإحماء للنار؛ مبالغة، ثم حذف النار، وأسند الفعل

إلى الجار والمجور؛ تنبيهاً على المقصود، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأبحار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل }؛ يأخذونها بالرشا في الأحكام، وسمى أخذ المال أكلاً؛ لأنه الغرض الأعظم منه، { ويصدون عن سبيل الله } أي: يعوقون الناس عن الدخول في دينه، { والذين يكتزون الذهب والفضة } أي: يدخرونها { ولا يُنفقونها } أي: الأموال المفهومة من الذهب والفضة، أو الكنوز، أو الفضة، واكتفى بذكرها عن الذهب؛ إذ الحكم واحد، { فبشرهم بعذاب أليم }؛ وهو الكي بها، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأبحار والرهبان، فيكون مبالغة في وصفهم، بالحرص على المال وجمعه، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال، ويقتنونها ولا يؤدون حقها، ويكون اقتترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب؛ للتغليظ. وبدل عليه: أنه لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرَضِ الزَّكَاةَ إِلَّا لِيُطَيَّبَ بِهَا مَا بَقِيَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ". وقوله - عليه الصلاة والسلام -: " ما أدى زَكَاةً قَلَيْسَ يَكْتَنُ ". وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد: كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز، وحمل الآية عليه.

ثم ذكر وعيدهم فقال: { يوم يُحْمَى عليها } أي: على الأموال المكنوزة، { في نار جهنم } أي: يوم توقد النار ذات الحمى الشديد عليها، حتى تكون صفيحة واحدة، { فُتْكَوَى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم }، خصهم بالعداب، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل، ويولون ظهره، فيعرضون عنه بجاههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع، التي هي مقادير الإنسان؛ مؤخره وجنبتاه.

يقال لهم: { هذا ما كنزتم لأنفسكم } أي: لمنفعتها، وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها، { فدوقوا ما كنتم تكتزون } أي: وبال كنزكم، أو ما كنتم تكتزون به. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحٌ مِنْ تَارٍ، فَأَحْمَى عَلَيْهَا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَبِيئُهُ وَجَنِبُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فِيرَى سَبِيلَهُ: إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ". رواه مسلم بطوله.

قال ابن عطية: روي أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: قد ذم الله تعالى كسب الذهب والفضة، فلو علمنا أي المال خير حتى تكسبه؟ فقال عمر: أنا أسأل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله، فقال: " لِسَانُ ذَاكِرٍ، وَقَلْبُ شَاكِرٍ، وَرَوْجَةٌ تُعِينُ الْمَرْءَ عَلَى دِينِهِ ". وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال، لما نزلت الآية: " تَبَّ لِلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ". فحينئذ أشفق أصحابه، وقالوا ما تقدم. هـ. لابن حجر.

من خير ما يتخذ الإنسانُ
قلبُ شكور، ولسانُ ذاكِر،
في دنياه كيما يستقيم دينُهُ
وزوجةٌ صالحةٌ تُعينُهُ
وهو نظم لهذا الحديث، وقد تكلم عليه في الجامع وشرجه. قاله المحشي.

الإشارة: هذه الآية تغبر في وجوه علماء السوء، الذين يتساهلون في أكل الدنيا بالعلم، كقبض الرشا، وقبض ما فوق أجرته في الأحكام، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم، مع أنه واجب عليه، حيث تعين عليه بنصب الإمام له، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا، الذين يجمعون الأموال ويكثرونها، فترى أحدهم ينفق في نزته وشهوة نفسه الأموال العريضة، وإذا أتاه فقير يسأله درهماً أو درهمن، تمعّر وجهه، وتغير لونه، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }

قلت: (عند الله): معمول لعدة؛ لأنها مصدر، و (في كتاب الله): صفة لاثني عشر، و (يوم): متعلق بالثبوت المقدر في الخبر، أي: ثابتة في كتاب الله يوم خلق الأكوان والزمان. وقوله: (منها): أي: الأشهر، ثم قال: (فيهن). وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة، حقيقة أو مجازاً، إن كانت أكثر من عشرة، قلت: منها وفيها، وإن كانت أقل من عشرة، قلت: منهن وفيهن، قال تعالى: { يَأْكُلُهُنَّ }

[يوسف: 46] وقال هنا: (فيهن). انظر الإتيان. و (كافة): حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله: { إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ } في كل سنة { عند الله }؛ في علم تقديره، { اثنا عشر شهراً }؛ أولها المحرم، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهذه العدة ثابتة { في كتاب الله }؛ اللوح المحفوظ، أو في حكمه، أو القرآن، { يومَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ }، هذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة، { منها } أي: الأشهر { أربعة حُرْمٌ }، واحد فرد، وهو رجب، وثلاثة سَرْدٌ: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، { ذلك الدين القيم } أي: تحريم الأشهر الحرم هو الدين القويم، دين إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وتمسكت به العرب حتى غيرهم بالنسيء، { فلا تظلموا فيهن أنفسكم }؛ بهتك حرمتها والقتال فيها، ثم نسخ بقوله: { وقاتلوا المشركين كافةً } أي: في الأزمنة كلها؛ { كما يُقاتلونكم كافةً }؛ لأنهم، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحريم القتال في الأشهر الحرم.

وقال عطاء: لا يحل للناس أن يغزوا في الأشهر الحرم، ولا في الحرم، إلا أن يُبدئوا بالقتال، وبرده غزوه صلى الله عليه وسلم حُنيئاً والطائف في شوال وذي القعدة. { واعلموا أن الله مع المتقين } بالنصر والمعونة، وفيه بشارة وضمأن لهم بالنصر بسبب تقواهم.

الإشارة: أهل الفهم عن الله: الأزمنة كلها عندهم حُرْمٌ، والأمكنة كلها عندهم حَرَامٌ، فهم يحترمون أوقاتهم ويغتزمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنائركم ودراهيمكم، يقول: كما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود عليهم نفعه، كذلك لا يحبون

أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نعمة وقال الجنيد رضي الله عنه: الوقت إذا فات لا يُستدرَك، وليس شيء أعز من الوقت. هـ.

وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح، يتوصل به إلى مُلْك كبير لا يفنى، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك؛ لأنه في غاية الشرف والنفاسة، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفسهم، ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير، وإلى هذه الإشارة بقوله: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)؛ بتضييعها في غير ما يقرب إلى الله. ثم أمر بجهاد القواطع، التي تترك العبد في مقام الشرك الخفي، وبَسْرَهُمْ بكونه معهم بالنصر والتأييد، والمعونة والتسديد.

@ { إِيَّهَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

قلت: (النسيء): التأخير، يقال بالهمزة وبقلبها ياء.

يقول الحق جل جلاله: { إنما النسيء } ، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات، وكانت محرمة عليهم في الأشهر الحرم، فيشق عليهم تركها، فيجعلونها في شهر حرام، ويحرمون شهراً آخر بدلاً منه، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر، حتى يكملوا في العام أربعة أشهر محرمة، وإنما ذلك { زيادة في الكفر }؛ لأنه تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، وهو كفر آخر ضممه إلى كفرهم، { يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا } عن الحق، ضلالاً زائداً على ضلالهم، أو يضلهم الله بذلك، { يُحِلُّونَهُ عَامًا } أي: يحلون الشهر الحرام عاماً، ويجعلون مكانه آخر، { ويحرمونه عاماً } ، فيتركونه على حرمة، فكانوا تارة ينسئون وتارة يتركون.

قيل: أول من أحدث ذلك: جُنَادَةُ بن عوف الكناني؛ كان يقوم على جمل في الموسم فينادي: إن ألهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم ينادي من قابل: إن ألهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه، فتتبعه العرب.

ثم حرّموا شهراً آخر مكان المحرم { ليواطئوا }؛ ليوافقوا { عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ } ، وهي الأربعة الحرم، { فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ } عليهم من القتال في الأشهر الحرم، { زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ } أي: خذلهم وأضلهم، والمُزِين حقيقة: الله، أو الشيطان؛ حكمةً وأدباً. { والله لا يهدي القوم الكافرين } إلى طريق الرشده، ما داموا على غيهم، حتى يسلكوا سبيل نبيه صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: إنما تأخير التوبة واليقظة، وترك السير إلى مقام التصفية والترقية، زيادة في البعد والقسوة، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة، فتارةً يُحِلُّونَ المَقَامَ مع النفس الأمارة، ويقولون: قد انقطعت التربية، وُعِدِمَ الطَّبِيبُ الذي يداوئها ويخرجها عن وصفها، وتارةً يُحَرِّمُونَ المَقَامَ معها والاشتغال بحظوظها وهواها، ويقولون: البركة لا تنقطع، والمدد لا ينعدم، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها في قوله: { والذين جاهدوا فينا } ، وبين من قال:

قد انقطعت التربية، زُين له سواء أعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِينَا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ قَمَا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } * { إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: (اثاقلتم)، أصله: ثناقلتم أدغمت التاء في الثاء، وجلبت الهمزة للساكن، وقرئ على الأصل، وضمن الإخلاق، فَعُدِّي بِأَلَى.

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله {؛ للجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، { اثاقلتم } أي: تباطؤتم وأخذتم { إلى الأرض } كسلاً وفشلاً، وكان ذلك في غزوة تبوك، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف، في وقت عسر، وحر، وبعث الشقة، وكثرة العدو، فشق عليهم ذلك، { أرضيتم بالحياة الدنيا } وكدرها، { من الآخرة } بدل الآخرة ونعيمها، { فما متاع الحياة الدنيا } أي: التمتع بها في جانب الآخرة، { إلا قليل }؛ مستحقر، لسرعة فناءه ومزجه بالكدر.

{ إِلَّا تَنْفِرُوا } مع رسوله إلى ما استنفرتم إليه، { يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } في الدنيا والآخرة، في الدنيا: بالإهلاك بأمر فطيع، كقحط وظهور عدو، وغير ذلك من المهلكات، وفي الآخرة: بعذاب النار. { وَيَسْتَبْدِلُ } مكانكم { قَوْمًا غَيْرَكُمْ } في الدنيا، يكونون مطيعين لله ورسوله، كأهل اليمن، وأمثالهم، { وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا }؛ إذ لا يقدر ثناقلتم في نصر دينه شيئاً، فإنه الغني عن كل شيء، في كل وقت. وقيل: الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإن الله وعده بالعصمة والنصرة، ووعدته حق، { والله على كل شيء قدير } لا يعجزه شيء، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد، كما فعل معه في الغار والهجرة، على ما يأتي.

الإشارة: ما لكم إذا قيل لكم: انفروا إلى من يُعرفكم بالله، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم في طلب مرضاة الله، اثاقلتم وأخذتم إلى أرض الحظوظ والشهوات، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية، بل الحياة الأبدية، في الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية في جانب الحياة الأبدية في الحضرة العلية، إلا نزر قليل حقير ذليل، إلا تنفروا لجهاد نفوسكم، يعذبكم عذاباً أليماً، بغم الحجاب، وشدة التعب والنصب، وتوارد الخواطر والهموم، وتراؤف الأكدار والغموم، ويستبدل قوماً غيركم يكونون عارفين بالله، مَرْضِيين عند الله، راضين عن الله، والله على كل شيء قدير.

@ { إِلَّا تَنْضُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَبْدَاهُ يَجُودٌ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَاللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

قلت: " إن " : شرط، وجوابه محذوف، دلّ عليه قول: { فقد نصره الله } أي: إن لم تنصروه فسينصره الله، الذي نصره حين أخرجه الذين كفروا، حال ثاني اثنين، فدل بنصره في الماضي على نصره في المستقبل، وإسناد الإخراج إلى الكفرة؛ لأن همهم بإخراجه أو قتله كان سبباً لإذن الله له في الخروج، و { إذ هُما } : بدل من { أخرجه }؛ بدل البعض، و { إذ يقول } : بدل ثان، و { كلمة الله } : مبتدأ، و { العليا } : خبر، وقرأ يعقوب: بالنصب؛ عطفاً على { كلمة الذين كفروا } ، والأول: أحسن؛ للإشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها، فاقت غيرها أم لا.

يقول الحق جل جلاله: { إلا تنصروه }؛ تنصروا محمداً، وثاقلتم عن الجهاد معه، فسينصره الله، كما نصره حين { أخرجه الذين كفروا } من مكة، حال كونه { ثاني اثنين } أي: لم يكن معه إلا رجل واحد، وهو الصديق، { إذ هما في الغار }؛ نقب في أعلى غار ثور، وثور جبل عن يمين مكة، على مسيرة ساعة. { إذ يقول لصاحبه } : أبي بكر رضي الله عنه: { لا تحزن إن الله معنا } بالعصمة والنصرة.

رُوي أن المشركين طلَعوا فوق الغار يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين فقدوه من مكة، فأشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " فأعماههم الله عن الغار، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين، فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه.

{ فأنزل الله سكينته } أي: أمته الذي تسكن إليه القلوب، { عليه } أي: على رسوله صلى الله عليه وسلم، أو علي صاحبه، { وأيده بجنود لم تروها } ، يعني الملائكة، أنزلهم ليحرسوه في الغار، أو يوم بدر واحد وغيرهما، فتكون على هذا: الجملة معطوفة على: { فقد نصره الله } . { وجعل كلمة الذين كفروا } وهي الشرك، أو دعوى الكفر، { السفلى وكلمة الله } التي هي التوحيد، أو دعوة الإسلام، { هي العليا }؛ حيث خلاص رسوله صلى الله عليه وسلم من بين الكفار، ونقله إلى المدينة، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر، { والله عزيز }؛ غالب على أمره، { حكيم } في أمره وتديبره.

الإشارة: ما قيل في حق الرسول صلى الله عليه وسلم يقال في حق ورثته، الداعين إلى الله بعده؛ من العارفين بالله، فيقال لمن تخلف عن ضحبة ولي عصره وشيخ تربية زمانه: إلا تنصروه فقد نصره الله وأعزه، وأغناه عن غيره، فمن صحبه وإنما ينفع نفسه، فقد نصره الله حين أنكره أهله وأبناء جنسه، كما هي سنة الله في أوليائه، لأن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، فمن دخل مع الخصوص قطعاً أنكرته العموم، فنخرجه ثاني اثنين هو وقبله، فيأوي إلى كهف الأنس بالله، والوحشة مما سواه، فيقول لقلبه: لا تحزن إن الله معنا، فينزل الله عليه سكينته الطمأنينة والتأييد، وينصره باجناد أنوار التوحيد والتفريد، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى، وكلمة الداعين إلى الله هي العليا، والله عزيز حكيم.

@ { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } * { لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَآكِن

بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ {

قلت: (يُهْلِكُونَ): حال من فاعل (يخلفون)، أو بدل منه. قال في القاموس: (الشقة) - بالضم والكسر: البُعد والناحية يقصدها المسافر، والسفر، البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله: { انْفِرُوا } للجهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم، حال كونكم { خِفَافًا }؛ نشاطاً، { وَثِقَالًا }؛ كسالى لمشقته، أو { خِفَافًا } لمن قَلَّ عياله، { وَثِقَالًا } لمن كثر عياله، أو خِفَافًا لمن كان فقيراً، وَثِقَالًا لمن كان غنياً، أو خِفَافًا ركبانياً، وَثِقَالًا مشاةً، أو خِفَافًا بلا سلاح، وَثِقَالًا بالسلاح، أو خِفَافًا شباباً، وَثِقَالًا شيوخاً، أو خِفَافًا أصحاء، وَثِقَالًا مرضى. ولذلك قال ابنُ أمِّ مكتوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَعَلِّي الغزو يا رسول الله؟ قال: " نعم " حيث نزل: { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ } [النور: 61]. { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي: بما أمكن؛ إمَّا بهما أو بأحدهما، { ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ }، مِنْ تَرْكِهِ، { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ما في ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم، أي: لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف، فقال: { لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا } من الدنيا، { وَسَفَرًا قَاصِدًا }؛ متوسطاً أو قريباً، { لِاتَّبَعُوكَ } أي: لو كان ما دعوا إليه أمراً دينياً، كغنيمة كبيرة، أو سفراً متوسطاً، لِاتَّبَعُوكَ وَلَوْ أَفْقُوكَ عَلَيَّ الْخُرُوجِ، { وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ } أي: المسافة التي تقطع بمشقة، وذلك أن الغزوة - أي: تبوك - كانت إلى أرض بعيدة، وكانت في شدة الحر، وطيب الثمار، فشقت عليهم. { وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ } أي: المتخلفون إذا رجعت من تبوك، معتذرين، يقولون: { لَوْ اسْتَطَعْنَا } الخروج { لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ }، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. { يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ } بوقوعها في العذاب، { وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } في ذلك؛ لأنهم كانوا مستطيعين الخروج، وإنما قعدوا كسلاً وَجُبْنًا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: انفروا إلى الجهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم، لكي تستأهلوا لدخول حضرة ربكم، وسافروا إلى من يعينكم ويقوي مدد أجناد أنواركم، وهم المشايخ العارفون، فسيروا إليهم خِفَافًا وَثِقَالًا، ونشاطاً وَكُسَالًا، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سبباً في قتلها فلا ينفر إليها خِفَافًا أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمُهَج في طريق الوصول إلى حضرة الله، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء في وطن نفسه. قال القشيري: أمرهم بالقيام بحقه، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم، { خِفَافًا } أي: في حال حضور قلوبكم، فلا يمسسكم تَصَبُّ المجاهدات، { وَثِقَالًا } أي: إذا رُدِدْتُمْ إليكم في مقاساة نصب المكابذات. فإن البيعة أُخِذَتْ عليكم في المنشط والمكروه. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبي عثمان قال: خِفَافًا وَثِقَالًا؛ في وقت النشاط والمكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت، كما روى عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعنا رسول الله على المنشط والمكروه. هـ.

@ { عَفَا بِاللَّهِ عَنكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ } *
{ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } * { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ }

يقول الحق جل جلاله: لنبه - عليه الصلاة والسلام -: ملاطفاً له في الكلام:
{ عفا الله عنك لم أذنت لهم } ، لم بادرت إلى الإذن إلى المنافقين في
التخلف، واستكفيت بالإذن العام في قولنا:
{ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ }

[النور: 62]، فإن الخواص من المقرين لا يكتفون بالإذن العام، بل يتوقفون إلى
الإذن الخاص. ولذلك عوتبت يونس عليه السلام. والمعنى: لأي شيء أذنت لهم في
العود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت { حتى يتبين لك الذين
صدقوا } في الاعتذار، { وتعلم الكاذبين } فيه.

قال ابن عطية: قوله: { الذين صدقوا } يريد: في استئذانك، وأنت لو لم تأذن لهم
لخرجوا معك، وقوله: { وتعلم الكاذبين } يريد: أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم
يقفون عند حدك، وهم كذبة، قد عزموا على العصيان، أذنت أو لم تأذن. هـ. قال
ابن جزي: كانوا قد قالوا: استأذنوه في القعود، فإن إذن لنا قعدنا، وإن لم يأذن
قعدنا، وإنما كان يظهر الصادق من الكاذب لو لم يأذن لهم، فحينئذ كان يقعد
العاصي والمنافق، ويسافر المطيع الصادق. هـ.

{ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ } أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن
يجاهدوا، بل الخُص منهم يُبادرون إليه، ولا يوقفونه على الإذن فيه، فضلاً عن
أن يستأذنوا في التخلف عنه، { والله عليم بالمتقين }؛ فيثيبهم ويقربهم، وهي
شهادة لهم بالتقوى وعِدَّة لهم بثوابه.

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ } في التخلف { الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر } ، وخصص
ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛ إشعاراً بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه:
الإيمان وعدم الإيمان بهما، { وارتابت قلوبهم } أي: شككت في الإيمان والبعث، {
فهم في ريبهم يترددون }؛ يتحبرون. ونزلت الآية في عبد الله بن أبيّ والجَدُّ بن
قيس، وأمثالهما من المنافقين.

الإشارة: لا ينبغي للعارفين بالله؛ الداعين إلى الله، أن يأذنوا لمن استأذنهم في
التخلف عن الجهاد الأكبر، ويرخصون له في البقاء مع النفس والهوى، وجمع
حطام الدنيا، شفقةً ورحمةً؛ لأن الشفقة في هذا المعنى لا تليق بأهل التربية،
فقد قالوا: الشفقة والرطوبة لا تليق بشيوخ التربية، بل لا يليق بهم إلا الأمر بما
تموت به النفوس، وتحيا به الأرواح، وإن كان فيه حتفهم. وقد قالوا أيضاً: إذا كان
الشيخ يحرش على المرید، ويقدمه للمهالك في نفسه أو ماله أو جاهه، فهو
دليل على أنه يحبه وينصحه، وإذا كان يرخص له في أمور نفسه، ويأمره بالمقام
معها، فهو غير ناصح له.

وأما الإذن في التجريد وعدمه: فإن رآه أهلاً له؛ لنفوذ عزمه، فيجب عليه أن
يأمره به، وإن رآه لا يليق به؛ لعوارض قامت به؛ منعه منه، حتى ينظر ما يفعل

الله به، وسأل رجلُ القطبَ ابنَ مشيش، فقال له: يا سيدي؛ استأذنيك في مجاهدة نفسي؟ فقال له: { لا يستأذنيك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذنيك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون }.

@ { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَآكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتِهِمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ائْفَعُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } * { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْصَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } * { لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ }

قلت: { ما زادوكم إلا خبالاً } قال بعضهم: هو استثناء منقطع، أي: ما زادوكم شيئاً، لكن خبالاً يُحدِثونه في عسكريهم بخروجهم. قال ذلك: لئلا يلزم أن الخبال واقع في عسكر المسلمين، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر؛ لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعاً، ويمكن هنا أن يكون متصلاً؛ لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين، فحصل الخبال، فلو خرج هؤلاء المستأذنون في التخلف، القاعدون، لزاد الخبال بهم.

وقوله: (ولأوصعوا) أي: أسرعوا، والإيضاع: الإسراع، (وخلالكم): ظرف، أي: لأسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة، وجملة: (يبغونكم): حال من فاعل "أوصعوا".

يقول الحق جل جلاله: { ولو أرادوا { الخروج } إلى الغزو معكم، وكانت لهم نية في ذلك { لأعدوا له عُدَّةً } أي: لاستعدوا له أهبة قبل أوانه. فما فعلوا، { ولكن } تثبطوا؛ لأنه تعالى كره { انبعاتهم }، أي: نهوضهم للخروج، { فثبَّطهم } أي: حبسهم وكسر عزيمتهم، كسلاً وجبناً، { وقيل } لهم: { اقعوا مع القاعدين } من النساء والصبيان وذوي الأعذار، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل في الحقيقة هو الله تعالى، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود، وبناء للمجهول تعليماً للأدب. قال البيضاوي: هو تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول لهم. هـ.

{ لو خرجوا فيكم } ما زادكم خروجهم شيئاً { إلا خبالاً }؛ فساداً وشرّاً. والاستثناء من أعم الأحوال، فلا يلزم أن يكون الخبال موجوداً، وزاد بخروجهم، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم ما زادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالاً زائداً على ما وقع. { ولأوصعوا } أي: لأسرعوا { خلالكم } أي: فيما بينكم، فيسرعون في المشي بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذييل، { يبغونكم الفتنة } أي: حال كونهم طالين لكم الفتنة، بإيقاع الخلل بينكم، قلوبكم ورأيكم، فيذهب ربح نصركم، { وفيكم } قوم { سماعون لهم }؛ فيقبلون قولهم، إما بحسن الظن بهم، أو لنفاق بهم، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم، { والله عليم بالظالمين }؛ فيعلم ضمائرهم، وما ينشأ عنهم، وسيجازيهم على فعلهم.

{ لقد ابتغوا الفتنة } أي: تشتيت أمرك وتفرقت أصحابك { من قبل } أي: من قبل هذا الوقت، كرجوعهم عنك يوم أحد، ليقوعوا الفشل في الناس، { وقلبوا

لك الأمور { أي: دبروها من كل وجه، فدبروا الحيل، ودوروا الآراء في إبطال امرئ، فأبطل الله سعيهم، { حتى جاء الحق وظهر أمر الله { أي: علا دينه، { وهم كارهون { أي: على رغم أنفسهم، والآيات تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوي.

الإشارة: الناس على ثلاثة أقسام: قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحظوظهم؛ عدلاً. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم؛ فضلاً. وقسم اختصهم بالتوجه إلى محبوبهم؛ رحمة وفضلاً.

فالأولون: أثقلهم بكثرة الشواغل والعلائق، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وقيل: أعددوا مع القاعدين، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة، وأما أهل الخدمة: فرأهم لم يصلحوا لصريح معرفته، فشغلهم بخدمته، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة؛ بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء، ولم يتركهم مع شيء، بل اختصهم بمحبته، وقام لهم بوجود قسمته،

{ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {
[آل عمران: 74]. وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه، لأفسده، وما زاده إلا خبالاً وشرأ. والله تعالى أعلم.

@ { وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ إِذْنَ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } * { إِنَّ تُصِيبُكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبُكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلٍ وَبِتَوْلُوا وَهُمْ قَرْحُونَ {

يقول الحق جل جلاله: { ومنهم من يقول ائذن لي في القعود، { ولا تفتني {؛ ولا توقعني في الفتنة، أي: في العصيان والمخالفة، بأ تاذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف، إذن أو لم يأذن، أو في الفتنة؛ بسبب ضياع المال والعيال؛ إذ لا كافل لهم بعدي، أو في الفتنة بنساء الروم، كما قال الجَدُّ بن قيس: قد علمت الأنصار أنني مُولع بالنساء، فلا تفتني بنات بني الأصفر، ولكني أعينك بمال، واتركني.

قال تعالى: { أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا { أي: إن الفتنة التي سقطوا فيها، وهي فتنة الكفر والنفاق، لا ما احترزوا عنه، { وإن جهنم لمحيطة بالكافرين { ، أي: دائرة بهم يوم القيامة، أو الآن؛ لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها، ومن أعظم أسبابها: بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

{ إِنَّ تُصِيبُكَ حَسَنَةٌ {؛ كنصر أو غنيمة في بعض غزواتك، { تسؤوهم {؛ لفرط حسدهم وبغضهم، { وإن تُصِيبُكَ { في بعضها { مصيبة {؛ ككسر أو شدة كيوم أحد، { يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل { أي: يتجحوا بتخلفهم أو انصرافهم، واستحمدوا رأيهم في ذلك، { ويتولوا { عن متحدّثهم ومجمّعهم، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، { وهم قَرْحُونَ { مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة: ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ في البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال، ويقول: لا تفتني بالأمر بالتجريد، فإني لا أقدر عليه، ويرضى بالسقوط في فتنة الأسباب والشواغل، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد، والخروج عن عوائد الناس وما هم عليه، فرح، وإذا رأى منهم نصراً وعزاً انقبض، ففيه خصلة من النفاق، والعياذ بالله.

@ { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }
* { قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ تَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فِتْرَتَرَبُّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { قل } لهم يا محمد: { لن يصيبنا } من حسنة أو مصيبة، { إلا ما كتب الله لنا } في اللوح الحفوظ، لا يتغير بموافقكم ولا بمخالفكم، { هو مولانا }؛ متولي أمرنا وناصرنا، { وعلى الله فليتوكل المؤمنون } أي: وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم؛ رضاً بتدبيره؛ لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على الله؛ إذ لا فاعل سواه، { قل } لهم: { هل ترَبُّصون } أي: تنتظرون { بنا إحدى الحُسَيْنَيْنِ } أي: إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى؛ إما النصر وإما الشهادة، { ونحن نترَبُّصُ بكم } أيضاً إحدى العاقبتين السوأيتين: إما { أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده } بقارعة من السماء، { أو بأيدينا } أي: أو بعذاب بأيدينا، وهو القتل على الكفر، { فترَبُّصُوا } ما هو عاقبتنا، { إنا معكم مُتْرَبِّصُونَ } ما هو عاقبتكم.

الإشارة: ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب، والسكون إلى رب الأرباب، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختبار، وظلمة الأكدار والأغيار: أحدها: تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، قال تعالى: { قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا } ، { وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } ، ولينأمل قول الشاعر:

مَا لَا يُقَدَّرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا، وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُنْعَبٌ مَخْرُونَ
وقد ورد عن سيدنا علي - كرم الله وجهه - أنه قال: سبع آيات: من قرأها أو حملها معه؛ لو انطبقت السماء على الأرض؛ لجعل الله له فرجاً ومخرجاً من أمره، فذكر هذه الآية: { قل لن يصيبنا } ، وآية في سورة يونس:

{ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... }

[يونس: 107] الآية، وأيتان في سورة هود:

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ... }

[هود: 6]، الآية،

{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ... }

[هود: 56]، الآية، وقوله تعالى:

{ وَكَأَيِّنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

[العنكبوت: 60]،

{ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمَسُّكَ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[فاطر: 2]، و
{ وَلئن سَأَلْتَهُمْ }
.. في الزمر إلى قوله
{ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }
[الزمر: 38]، ونظمها بعضهم فقال:

عليك بقل وإن، وما، إني، في هود وكأين، ما يفتح، ولئن؛ مكملًا
وإنما أشار رضي الله عنه إلى معنى الآيات لا إلى لفظها؛ لأنها كلها تدل على
النظر لسابق القدر، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني: تحقق العبد برأفته - تعالى - ورحمته، وأنه لا يفعل به إلا ما هو
في غاية الكمال في حقه، إن كان جمالاً فيقتضي منه الشكر، وإن كان جلالاً
فيقتضي منه الصبر، وفيه غاية التقريب والتطهير وطى المسافة بينك وبين
الحيب.

وفي الحكم: "خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فافتك، وتُردُّ فيه إلى وجود
ذلتك، إن أردت بسط المواهب عليك، فصح الفقر والفاقة لديك، الفاقة أعياد
المريدين". إلى غير ذلك من كلامه في هذا المعنى.

الأمر الثالث: تحققه بخالص التوحيد؛ فإذا علم أن الفاعل هو الله ولا فاعل
سواه؛ رضي بفعل حبيبه، كيفما كان، كما قال ابن الفارض رضي الله عنه:

أَجَبَّيْ أَنُّمَّ أَحْسَنَ الدَّهْرِ أَمَ أَسَا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخل
وكما قال صاحب العينية:

تَلَدُّ لِيَ الْآلَامَ إِذْ كُنْتُ مُسْقِمِي وَإِنْ تَحْتَبِرْنِي فَهِيَ عِنْدِي صَنَائِعُ
تَحْكَمُ بِمَا تَهْوَاهُ فِيَّ فَإِنِّي فَقِيرٌ لِسُلْطَانِ الْمَحَبَّةِ طَائِعُ
فهذه الأمور الثلاثة، إذا تفكر فيها العبد دام حوره وسروره، وسهلت عليه شؤونه
وأمره.

وقوله تعالى: { قل هل تربصون بنا... } الآية، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار:
هل تربصون بنا إلا إحدى الحسينين، إما حسن الختام بالموت على غاية الإسلام،
يموت المرء على ما عاش عليه، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية
الكمال والتمام، ونحن نربص بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده؛ بسبب
إذابتكم، أو بدعوة من عندنا إذا أدن لنا. وبالله التوفيق.

@ { قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } *
{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَاءٌ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ }
{ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ }

ثم ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم، فقال:

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَا وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ }

قلت: (أن تُقبل): بدل من ضمير (منعهم)، أو على حذف الجار، و (إلا أنهم كفروا): فاعل، أي: وما منع قبول نفقاتهم، أو من قبول نفقاتهم، إلا كفرهم بالله وبرسوله، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله تعالى و (إنهم) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله: { وما منعهم }؛ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم { إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله }؛ إلا كفرهم بالله وبرسوله، أو: ما منعهم الله من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم بالله وبرسوله، وكونه { لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى }؛ متثاقلين، { ولا ينفقون إلا وهم كارهون } أي: لا يُعطون المال إلا في حال كراهيتهم للإعطاء؛ لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقاً.

الإشارة: لا يتقبل الله إلا عمل المخلصين، إما إخلاص العوام؛ لقصد الثواب وخوف العقاب، أو إخلاص الخواص؛ لإظهار العبودية وإجلال الربوبية، وعلامة الإخلاص: وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل، أو قبلها والغيبة عنه بعد الوقوع، والله أعلم.

@ { فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { فلا تُعجبك } ، أيها الناظر إلى المنافقين، كثرة { أموالهم ولا أولادهم }؛ فإن ذلك استدراج ووبال لهم { إنما يريد الله ليُعذبهم بها في الحياة الدنيا }؛ بسبب ما يكابدون في جمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها، مع كونهم لا يرجون خلفها { وتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهم كافرون }؛ فلا يستوفون التمتع بها في الدنيا؛ لقصر مدتها، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها؛ لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق: الخروج بصعوبة، لصعوبة خروج أرواحهم، والعياذ بالله.

الإشارة: ينبغي لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئاً من الدنيا، التي هي مدرجة الاغترار، بل ينبغي له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعض الغض والاحتقار، حتى ترتفع همته إلى دار القرار، وينبغي لمريد الحق - تعالى - ألا يحقر شيئاً من مصنوعاته، ولا يصغر شيئاً من تجلياته، إذ ما في الوجود إلا تجليات العلي الكبير، إما من مظاهر اسمه الحكيم، أو اسمه القدير، فيعطي الحكمة حقها والقدرة حقها، ويتلون مع كل واحدة بلونها، وبالله التوفيق.

@ { وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَإِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا بِهِمْ مِنْكُمْ وَلَا كَيْفَ قَوْمٌ يَقْرُقُونَ } * { لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَعَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ }

قلت: القرقُ: الخوف، و (مُدَّخلاً): أصله: متدخلًا، مفتعل من الدخول، قبلت التاء دالاً وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله: { ويحلفون } لكم { بالله إنهم لمنكم } أي: من جملة المسلمين، { وما هم منكم }؛ لكفر قلوبهم، { ولكنهم قوم يفرقون }؛ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين، فيظهرون الإسلام تقية وخوفاً { لو يجدون ملجأ } أي: حصناً يلتجئون إليه، { أو مغارات }؛ غيراناً، { أو مدخلًا }؛ ثقباً أو جحراً ينجحون فيه. وقرأ يعقوب: "مدخلًا"؛ بضم الميم وسكون الدال، أي: دخولاً، أو مكاناً يدخلون فيه، { لولوا إليه وهم يجمعون } أي: يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة: قد يتطفل على القوم من ليس منهم، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق، كحال أهل النفاق، فينبغي أن يستر ويحلم عليه، كما فعل عليه الصلاة والسلام - بالمنافقين، تطف معهم في حياتهم، والله يتولى سرائرهم، بالله التوفيق.

@ { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخِطُونَ } * { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } {

قلت: (لو): شرطية، و (أنهم): قال سيبويه: مبتدأ، والخبر محذوف: ولو رضاهم ثابت أو موجود... الخ. وقال غيره: فاعل بفعل محذوف؛ ولو ثبت رضاهم، وجواب (لو): محذوف، أي: ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم.

يقول الحق جل جلاله: { ومنهم }؛ ومن المنافقين { من يلمزك } أي: يعيبك، ويعترض عليك { في } قسم { الصدقات }، { فإن أعطوا منها رضوا } وفرحوا، { وإن لم يعطوا منها } شيئاً { إذا هم يستخيطون }؛ والآية نزلت في ابن أبي راس المنافقين، قال: ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة العثم، وبرغم أنه يعدل. وقيل: في ذي الخويصرة رأس الخوارج، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين، فاستعطف قلوب أهل مكة، فأثرهم بالعطاء، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: "وبلك، إن لم أعدل فمن يعدل؟".

قال تعالى: { ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله } أي: بما أعطاهم الرسول من الغنيمة، وذكر الله؛ للتعظيم، وللتنبية على أن ما فعله الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان بأمر الله ووحيه، فكأنه فعله هو. { وقالوا حسبنا الله } أي: كفانا فضله، { سيؤتينا الله من فضله ورسوله } صدقة أو غنيمة أخرى، فيؤتينا أكثر مما آتانا، { إنا إلى الله راغبون } في أن يُغنيننا من فضله وجوده. فلو فعلوا هذا لكان خيراً لهم من اعتراضهم عليك، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة: لا يكون المؤمن كاملاً حتى يستوي عنده المنع والعطاء، والفقد والوجد، والفقر، والغنى والعز والذل. وأما إن كان في حالة العطاء والوجد يفرح، وفي حالة المنع والفقد يسخط، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق، إلا من حيث التوسم بالإيمان، ولو أنه رضي بما قسم الله له، واكتفى بعلمه، ورجب الله في زيادته من فضله، لكان خيراً له وأسلم. والله تعالى أعلم وأحكم..

@ { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ قَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { إنما } تدفع { الصدقات } الواجبة - أي: الزكاة - لهؤلاء الثمانية، وهذا يُرَجَّحُ أن لَمْزهم كان في قسم الزكاة لا في الغنائم، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه، واختلف: هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك: ذلك إلى الإمام، إن شاء عمم وإن شاء خصص، وإن لم يلها الإمام؛ فصاحب المال مخير، وبه قال أبو حنيفة وأحمد، وأفتى به بعض الشافعية، وقال الشافعي: يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء، إن وجدت.

أولها: الفقير: وهو من لا شيء له، وثانيها: المسكين: وهو من له شيء لا يكفيه. فالفقير أحوج، وهو مشتق من فقار الظهر، كأنه أصيب فقاره، والمسكين من السكون، كان العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى: { أُمَّ السَّيِّئَةِ فَكَأَنَّمَا لِمَسْكِينٍ } [الكهف: 79]. فسامهم مساكين مع ملكهم السفينة، وأنه صلى الله عليه وسلم سأل المسكينة؛ وقيل بالعكس، لقوله تعالى: { أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ }

[البلد: 16] وقيل: هما سواء. { والعاملين عليها } أي: الساعين في تحصيلها وجمعها، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق، ولا بأس أن يعلف خيلهم منها، ويضافون منها بلا سرف. { والمؤلفة قلوبهم } قال مالك: هم كفار ظهر ميلهم للإسلام، فيعطوا ترغيباً في الإسلام. وقيل قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة، فيعطوا ليتمكن الإسلام في قلوبهم، وحكمهم باق، وقيل: أشرف يُترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم.

{ وفي الرقاب } أي: في فك الرقاب، يشتركون ويعتقون، { والعارمين } أي: مَنْ عليهم دين، فيعطى ليقضي دينه، ويشترط أن يكون استدانة في غير فساد ولا سرف، وليس له ما يبيع في قضائه. { وفي سبيل الله } يعني: الجهاد، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء، ويشترى منها آلة الحرب، ولا يبنى منها سور ولا مركب. { وابن السبيل } وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده، ولم يجد مسلفاً، إن كان مليئاً ببلده، وإلا أعطي مطلقاً.

فرض الله ذلك { فريضة من الله } أي: حقاً محدوداً عند الله. قال ابن جزي: ونصبه على المصدر - يعني: لفعل محذوف كما تقدم - فإن قيل: لِمَ ذكر مصرف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين؟ فالجواب: أنه خص مصرف الزكاة في تلك الأصناف؛ ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: { ومنهم من يلمزك في الصدقات... } هـ. { والله عليمٌ حكيمٌ }؛ يضع الأشياء في مواضعها.

الإشارة: إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين، الذين افتقروا من السُّوى، وسكنوا في حضرة شهود المولى. وفي الحكم. " ورود الفاقات أعياد المريرين، ربما وجدت من المزيد في الفاقة ما لا تجده في الصوم والصلاة، الفاقات بسط المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصح الفقر والفاقة لديك. { إنما الصدقات للفقراء والمساكين }.

وقال الهروي: الفقر صفة مهجورة، وهو ألدُّ ما يناله العارف، لكونها تدخله على الله، وتجلسه بين يدي الله، وهو أعم المقامات حكماً؛ لقطع العوائق، والتجرد من العلائق، واشتغال القلب بالله. وقيل: الفقير الصادق لا يملك ولا يملك. وقال الشبلي: الفقير لا يستغني بشيء دون الله. وقال الشيخ ابن سبعين رضي الله عنه: الفقير هو الذي لا يحصره الكون. هـ. يعني: لخروج فكرته عن دائرة الأكوان، وقال القشيري: الفقير الصادق عندهم: مَنْ لا سماء تُظله، ولا أرض تُقله، ولا سهم يتناوله، ولا معلوم يشغله، فهو عبد الله بالله. هـ.

وقال السهروردي في عوارفه: الفقر أساس التصوف، وبه قوامه، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد، مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي، وإن كان فقيراً زاهداً. وقال بعضهم: نهاية الفقر بداية التصوف؛ لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني، والخروج من كل خلق دنيء، لكنهم اتفقوا ألا دخول على الله إلا من باب الفقر، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروي أيضاً: من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف؛ فليختر سبعاً على سبع، فإن الصالحين اختاروا حتى بلغوا سنام الخير. واختاروا الفقر على الغنى، والجوع على الشبع؛ والدون على المرتفع، والذل على العز، والتواضع على الكبر، والحزن على الفرح، والموت على الحياة. هـ. وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى؛ حذراً أن يدخله؛ فيفسد عليه فقره، كما يحترز الغنى من الفقر؛ حذراً أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين: كان لي مال، فرأيت فقيراً في الحرم جالساً منذ أيام، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة، فقلت: أعنيه بهذا المال؛ فألقيته في حجره، وقلت: استعن بهذا على دنياك، فنفض بها في الحصباء، وقال لي: اشتريت هذه الجلسة مع ربي بما ملكت، وأنت تفسدها عليّ؟ ثم انصرف وتركني ألقطها. فوالله ما رأيت أعز منه لَمَّا بَدَّدَهَا، ولا أذل مني لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء؛ أصبح حزيناً، وإذا لم يصبح عنده شيء؛ أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إنما الناس بعكس هذا؛ فقال: إني إذا لم يصبح عندي شيء فلي برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة، وإذا أصبح لي شيء لم يكن لي برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية: يفضلون الفقير الصابر على الغني الشاكر، ويفضلون الفقر في الجملة على الغني؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - اختاره، وما كان ليختار المفضل. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

قال القشيري: كان ابن عطاء يُفضل الغنى على الفقر، فدعا عليه الجنيد فأصيب عقله ثلاثين سنة، فلما رجع إليه عقله قال: إنما أصابني ما أصابني بدعاء الجنيد. وتكلم يحيى بن معاذ، ففضل الغنى على الفقر، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم، فدعا بعض المشايخ عليه، فقال: لا بارك الله له فيها، فخرج عليه اللص فنهبه إياها. هـ. وحكي عن أبي يزيد البسطامي: أنه قال: أسري بروحي، فرأيت كائني واقف بين يدي الله، فسمعت قائلاً يقول: يا أبا يزيد، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا، فقلت: يا مولاي وأي شيء ليس عندك، ولك خزائن

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَسَمِعْتَ: يَا أَبَا يَزِيدَ، لَيْسَ عِنْدِي ذَلَّ وَلَا فَقْرَ فَمَنْ أَتَانِي بِهِمَا بَلَّغْتَهُ. هـ.

وقال في الإحياء: الفقر المستعاذ منه: فقر المضطر، والمسؤول هو: الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله عز وجل. هـ. قلت: والأحسن أن المستعاذ منه هو: فقر القلوب من اليقين، فيسكنها الجزع والهلع، والفقر المسؤول هو: التخفيف من الشواغل والعلائق، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم القشيري هنا علي أخذ الزكاة وتركها، فقال: من أهل المعرفة من رأى أنَّ أَخَذَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ أَوْلَى، قَالُوا: لِأَنَّ اللَّهَ - سَبَّحَانَهُ - جَعَلَ ذَلِكَ مِلْكَاً لِلْفَقِيرِ، فَهُوَ أَحَلُّ لَهُ مِنَ الْمَتَطَوِّعِ بِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ لِأَقْوَامٍ مُسْتَحَقَّةٍ، وَرَأَوْا الْإِثَارَ عَلَى الْإِخْوَانِ أَوْلَى، فَلَمْ يَزَاحِمُوا أَرْيَابَ السَّهْمَانِ، وَتَحَرَّجُوا مِنْ أَخْذِ الزَّكَاةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ وَسْخُ الْأَمْوَالِ، وَهُوَ لِأَصْحَابِ الضَّرُورَاتِ. وَقَالُوا: نَحْنُ أَثَرْنَا الْفَقْرَ اخْتِياراً... فَلَمْ يَأْخُذُوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ. هـ.

وقوله تعالى: (والعاملين عليها): هم المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد، و (المؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم، والجادون في فك الرقاب من الجهل والغفلة؛ وهم أهل التذكير، الداعون إلى الله، (والغارمين) أي: الدافعون أموالهم ومهجهم في رضى محبوبهم، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار، و(في سبيل الله) أي: المجاهدون أنفسهم في مرضاة الله. (وابن السبيل):

السائحين في طلب معرفة الله. والله تعالى أعلم. @ { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

قلت: (قل أُذُنٌ خير): من قرأ بالإضافة؛ ف (لكم): متعلق بالاستقرار، أي: هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتنوين؛ ف (خير): خبر عن "أذن"؛ خبر ثان، ومن قرأ: "ورحمة"؛ بالرفع فعطف على (أذن خير)، ومن قرأ بالجر، فعطف على "خير"، المجرور.

يقول الحق جل جلاله: { وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ } فيه: { هُوَ أُذُنٌ } يسمع كل ما يقال له يصدقه؛ حقاً كان أو باطلاً، فإذا حلفنا له أنا لم نقل شيئاً صدقنا. والقائل لهذه المقالة: قيل: هُوَ تَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ، وَكَانَ مِنْ مُرَدَّةِ الْمُنَافِقِينَ: وَقِيلَ: عَتَابُ بْنُ قَشِيرٍ، فِي جَمَاعَةٍ، قَالُوا: مُحَمَّدٌ أُذُنٌ سَامِعٌ، نَقُولُ مَا شِئْنَا، ثُمَّ نَأْتِيهِ فَيُصَدِّقُنَا فِيمَا نَقُولُ. قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ: سَمِيَ بِالْجَارِحَةِ لِلْمِيَالِغَةِ؛ كَأَنَّهُ مِنْ فِرْطِ اسْتِمَاعِهِ صَارَ جَمَلْتَهُ آتَةَ السَّمَاعِ، كَمَا سَمِيَ الْجَاسُوسُ عَيْنًا. هـ.

قال تعالى في الرد عليهم: { قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ } أي: هو لكم سماع خير وحق، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم، أو قل: هُوَ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ كَوْنِهِ غَيْرُ أُذُنٍ؛ لأن كونه أذناً يقبل معاذيركم؛ ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفي (الوجيز) أي: مستمع خير وصلاح، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوي: وهو تصديق لهم بأنه أذن، لكن لا على الوجه الذي ذموا به - يعني من تنقصه بقلة الحزم والانخداع - بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم

فسر ذلك بقوله: { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ }؛ يصدق بالله وبما له من الكمالات، { وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ }؛ ويصدقهم؛ لما يعلم من خلوصهم، واللام مزيدة؛ للتفرقة بين إيمان
التصديق وإيمان الإذعان والأمان، { وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ } أي: هو رحمة
لمن أظهر الإيمان منكم، بحيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس
يقبل قلوبكم؛ جهلاً بكم، بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم، قاله البيضاوي.

وفي ابن عطية: وخص الرحمة بالذين آمنوا؛ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا.
وفي الوجيز: وهو رحمة لهم، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان
الصادر منهم كان حقيقياً، وهو حُسنٌ خلافٍ ظاهر. قال البيضاوي: أي: هو رحمة
لمن وفقه الله للإيمان منكم.

{ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ } بأي نوع من الإيذاء، { لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } موجه
بسبب إذايته.

الإشارة: تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه وذكر محاسنه، من أجل
القربات وأعظم الطاعات؛ لأن تعظيمه ناشئ عن محبته، ومحبته عقد من عقود
الإيمان، لا يتم الإيمان إلا بها، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند
الله، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود، الذين يؤذون جانب النبوة، وما عابه به
المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.
قال القشيري: عابوه بما هو أماره كرمه، ودلالة فضله، فقالوا: إنه؛ لحسن خُلُقِه،
يسمع ما يقال له، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " الْمُؤْمِنُ عَزَّ كَرِيمٌ وَالْمُنَافِقُ
خَبٌّ لَيْئِمٌ ". قالوا: من الفاضل؟ قالوا: الْقَطِئُ الْمُتَعَاْفِلُ، وأنشدوا:

وَإِذَا الْكَرِيمُ أَتَيْتَهُ بِخَدِيعَةٍ فرأيته فيما ترومُّ يُسَارِعُ
فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَمْ تَخَارِعْ جَاهِلًا إِنَّ الْكَرِيمَ - بِفَضْلِهِ - يَتَخَادَعُ
وكل ولي يتخلق بهذا الخلق السنني؛ الذي هو التغافل والانخداع في الله، وكان
عبد الله بن عمر يقول: (من خدعنا في الله انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى
عليه السلام رجلاً يسرق، فقال له: سرقت يا فلان؟ فقال: والله ما سرقت،
فقال عليه السلام: (أمنتُ بالله وكذبتُ عيني). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن
بالله، ويؤمن للمؤمنين، كيف كانوا، ورحمة للذين آمنوا، فمن أذى من هذا وصفه
فله عذاب أليمٍ وباللَّهِ التوفيق.
@ { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ }
{ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ
الْخِزْيُ الْعَظِيمُ }

قلت: إنما وُجِدَ الضمير في (يرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر، فكأنهما
شيء واحد، أو لأن الكلام إنما هو في إيذاء الرسول - عليه الصلاة والسلام -
وإرضائه، فذكر الله تعظيماً لجانب الرسول، أو لأن التقدير: والله أحق أن
يرضوه، ورسوله كذلك؛ فهما جملتان. والضمير في (أنه من يُخَادِدِ): ضمير الشأن؛
(وإن): إما تأكيد لأن الأولى، وجملة (فله): جواب، أو تكون بدلاً منها، أو في
موضع خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فحق، أو واجب له نار جهنم.

يقول الحق جل جلاله: { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ } أي: المنافقون، { لَكُمْ } أيها المؤمنون،
حين يعتذرون في التخلف عن الجهاد وغيره، { لِيُرْضَوْكُمْ } أي: لترضوا عنهم

وتقبلوا عذرهم، { واللَّهُ ورسوله أحقُّ أن يَرْضُوهُ } بالطاعة والوفاق، واتباع ما جاء به، { إن كانوا مؤمنين } صادقين في إيمانهم. { ألم يعلموا أنه } أي: الأمر والشأن، { من يُحَادِدِ اللَّهَ ورسوله } يعاديهما، ويخالف أمرهما { فإنَّ له }؛ فواجبٌ أن له { نارٌ جهنم خالداً فيها ذلك الخزي } أي: الهول { العظيم }، والهلاك الدائم، والعياذ بالله.

الإشارة: من أَرْضَى النَّاسَ بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضي الله أرضاهم عليه، ورضي عنه، فمن أقر منكراً؛ حياءً أو خوفاً من الناس، فقد أسخط مولاة، ومن انكر منكراً، ولم يراقب أحداً فقد أَرْضَى مولاة، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، { واللَّهُ ورسوله أحقُّ أن يُرَضُّوه إن كانوا مؤمنين }. وتأمل قول الشاعر:

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ عَمًّا وَقَارَ بِاللذَاتِ الْجُسُورِ
وبالله التوفيق.

@ { يَحْدَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ } * { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } * { لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَدِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ }

قلت: الضمائر في " عليهم "، و " تنبئهم "، و " قلوبكم "، تعود على المنافقين؛ خلافاً للزمخشري في الأولين، فقال: يعود على المؤمنين، وتبعه البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: { يَحْدَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ } أي: في شأنهم، { سورةٌ } من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، { تُنَبِّئُهُمْ } أي: تخبرهم، أي: المنافقين، { بما في قلوبهم } من الشك والنفاق، وتهتك أستارهم، وكانوا يستهزئون بأمر الوحي والدين، فقال تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام: { قل } لهم: { استهزئوا }؛ تهديداً لهم، { إن الله مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ } من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم.

{ ولئن سألتهم } عن استهزائهم، { ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب } فيما بيننا. رُوي أن ركبا من المنافقين مروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيهات هيهات! فأخبر الله نبيه، فدعاهم فقال: " قلتهم: كذا وكذا؟ " فقالوا: لا، والله، ما كنا في شيء من أمرك، ولا من أمر أصحابك، ولكننا كنا في شيء مما يخوض فيه الركب، ليقصر بعضنا على بعض السفر.

قال تعالى: { قل أباللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ }، توبيخاً لهم على استهزائهم بما لا يصلح الاستهزاء به، { لا تعتذروا } أي: لا تشتغلوا باعتذاركم الكاذبة؛ { قد كفرتم بعد إيمانكم } أي: قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن عليه، بعد إظهار إيمانكم الكاذب. { إن نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ }؛ بتوبتهم وإخلاصهم، حيث سبق لهم ذلك؛ كَانَ مِنْهُمْ رَجُلٌ اسْمُهُ مَخْشِيُّ، تَابَ وَمَاتَ شَهِيداً. أو لكفهم عن الإيذاء، { تُعَدِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا } في علم الله

{ مجرمين }؛ مُصرين على النفاق، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من الله، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكشفوا بأسراهم، وقد يُطلع الله أولياءه على ذلك، وقد لا يطلعهم، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخليقهم بالرحمة الإلهية. والله تعالى أعلم.

@ { الْمُتَافِقُونَ وَالْمُتَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ هُمُ الْقَاسِقُونَ } * { وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَافِقِينَ وَالْمُتَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعِبَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ } * { كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُصُّمٌ كَالَّذِي خَاصُوا أَوْلَائِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } {

قلت: قال في الأساس: ومن المجاز: نسي الشيء: تركته، (تسوا الله فَنَسِيَهُمْ. قال في المشارق: ونسي بمعنى ترك، معناه مشهور في اللغة، ومنه: (نسوا الله فنسيهم) أي: تركوا أمره فتركهم. وقوله: (كالذين من قبلكم): خبر، أي: أنتم كالذين، أو مفعول بمحذوف، أي: فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله: { المنافقون والمنافقاتُ بعضهم من بعض } أي: متشابهة في الكفر والبعد عن الإيمان، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم في النفاق والكفر، وهو نفي لأن يكونوا مؤمنين. وقيل: إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله: { إنهم لمنكم } وتقرير لقوله: وهو قوله: { يأمرن بالمنكر }؛ كالكفر والمعاصي، { وينهون عن المعروف }؛ كالإيمان والطاعة، { ويقبضون أيديهم } عن الإعتناء بالمبار، وهو كناية عن البخل والشح. { تسوا الله } أي: غفلوا، أي: أغفلوا ذكره، وتركوا طاعته، { فنسيهم }؛ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله، { إن المنافقين هم الفاسقون }؛ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

{ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُتَافِقِينَ وَالْمُتَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ } أي: المهاجرين بالكفر، { نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا } أي: مقدرين الخلود. قال ابن جزي: الأصل في الشر أن يقال: أوعد، وإنما يقال فيه: " وعد " إذا صرح بالشر. هـ. { هِيَ حَسْبُهُمْ } أي: جزاؤهم عقاباً وعذاباً، وفيه دليل على عظم عذابها، { ولعنهم الله }؛ أبعدهم من رحمته، وأهانهم، { ولهم عذابٌ مقيمٌ } لا ينقطع، وهو العذاب الذي وعدوه، أو ما يقاسونه من تعب النفاق، والخوف من المؤمنين.

{ كالذين من قبلكم } أي: أنتم كالذين من قبلكم، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، { كانوا أشدَّ منكم قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا }، وهو بيان لتشبيههم بهم، وتمثيل حالهم بحالهم، { فاستمتعوا بخلافكم } أي: نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها، فأملوا بعيداً وبنوا مشيداً، فرحلوا عنه وتركوه، فلا ما كانوا أملوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم رجعوا، { فاستمتعتم } أي: أنتم { بخلافكم } أي: بنصيبكم

مما خلق الله لكم وقدره لكم في الأزل، { كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم }، ثم تركوا ورحلوا عنه، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوي: ذمّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المُخدّجة من الشهوات الفانية، والتهايم بها عن النظر في العاقبة، والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيرة؛ تمهيداً لدم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

{ وَخُصُّمٌ } في الباطل { كالذي خاضوا } أي: كخوضهم، أو كالخوض الذي خاضوه، وقيل: كالذين خاضوا فيه، فأوقع الدم على الجميع. { وأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة } أي: لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين، { وأولئك هم الخاسرون }؛ الكاملون في الخسران، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة: ينبغي لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين؛ فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار، ويذكرون الله على سبيل الاستهتار، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار، فقد استمتعوا بلذيق المناجاة، وحلاوة المشاهدات، وبلطائف العلوم والمكاشفات، وأولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من الله في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الفائزون.

@ { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: في شأن المنافقين: { ألم يأتهم نبأ }؛ خبر { الذين من قبلهم }، كيف دمرهم الله وأهلكهم، حيث خالفوا رسلهم، { قوم نوح }؛ أغرقهم بالطوفان، { و } { وقوم } عاد {؛ أهلكهم بالريح، { و ثمود }؛ أهلكهم بالصيحة، { وقوم إبراهيم }؛ أهلك نمرود ببعوض، وأهلك أصحابه به، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم، ودخلت ببعوضه في دماغه فأكلت دماغه، حتى هلك، { وأصحاب مدين }، وهم قوم شعيب، أهلكوا بالنار يوم الظلة، { والمؤتفكات }؛ مدائن قوم لوط، اتتفكت بهم، أي انقلبت، فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجاراً من سجيل. { أتتهم رسلهم } أي: كل واحدة منهن أتاها رسول { بالبيات }؛ بالمعجزات الواضحة، { فما كان الله ليظلمهم } أي: لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس، كالعقاب بلا جرم. { ولكن كانوا أنفسهم يظلمون }؛ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة: ينبغي للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة، فيجتنبها بقدر الإمكان؛ فينظرها ما فعل الله بأهل المخالفة والمعاصي، فيهرب منها بقدر إمكانه، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز في الدارين، فيبادر إليها فوق ما يطيق، ويعظم الرسل، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم؛ فهذا يسعد سعادة الدارين. وبالله التوفيق.

@ { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ }

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ { * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

يقول الحق جل جلاله: { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء } أي: أصدقاء { بعض } ، هذا في مقابلة قوله: { المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض } ، وحض المؤمنين بالوصف بالولاية، { يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر }؛ ضد ما فعله المنافقون، { ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة }؛ ضد قوله: { وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ } ، { ويطيعون الله ورسوله } في سائر الأمور، ضد قوله: { تَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } ، { أولئك سيرحهم الله } لا محالة؛ لأن السين مؤكدة للوقوع، { إن الله عزيز }؛ غالب على كل شيء، ولا يمتنع عليه ما يريده، { حكيم } يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال: { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً } أي: تستطيبها النفس، أو يطيب فيها العيش. وفي الحديث: "إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر". وفي حديث آخر: "إن في الجنة عرفاً ظاهرها من باطنها، من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وبدل السلام، وتاب الصيام، وصلى بالليل والناس نيام".

وذلك { في جنات عدن } ، أي: إقامة وخلود. وعنه - عليه الصلاة والسلام -: "جنات عدن: دار الله، التي لم ترها عين، ولا تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاث: النبيون، والصديقون، والشهداء. يقول الله تعالى: { طوبى لمن دخلك } قاله البيضاوي. ثم قال: ومرجع العطف فيها - أي: في قوله: { ومسكن طيبة } - يحتمل أن يكون لتعدد الموعود لكل واحد له، أي: فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومسكن، أو للجميع؛ على سبيل التوزيع، أي: فالجنات والمسكن معدة للجميع، ثم يقسمونها على حسب سعيهم في الدنيا، أو إلى تغاير وصفه - أي: الموعود - فكأنه وصفه أولاً بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها؛ لتميل إليه طبائعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش، معرى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار رب العالمين، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: { ورضوان من الله أكبر }؛ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة، والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟" فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك، فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: أي شيء أفضل من ذلك؟ قال: "أجل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً" { ذلك } أي: الرضوان، أو جميع ما تقدم، { هو الفوز العظيم } الذي تستحقرونه الدنيا وما فيها.

الإشارة: قد أعد الله لأهل الإيمان الحقيقي؛ الذين بذلوا مهجهم وأموالهم في مرضاته، جنات المعارف، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحكم، ومسكن طيبة، وهي: عكوف أرواحهم في الحضرة، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة، في محل المشاهدة والمكالمة، والمساررة والمناجاة، ورضوان من الله، الذي هو نعيم

الأرواح، أكبر من كل شيء؛ لأن نعيم الأرواح أجل وأعظم من نعيم الأشباح، حتى أن المقربين ليضحكون على أهل اليمين، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والهور، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم في ذلك، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.

قال القشيري، عند قوله تعالى: { إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } [يس: 55]: إنه لا تنافي بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهلهم وبين شهود أمرهم، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأي حالة هم فيها، ولا يَفِدْحُ اشتغالهم بحُطوطهم في معارفهم. انتهى لفظه، وهو حسن. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ } * { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها النبي جاهد الكفار { والمنافقين } وبالسيف، باللسان؛ بإلزام الحجة وإقامة الحدود؛ ما لم يظهر عليهم ما يدل على كفرهم، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق، فيقتل على المشهور. { وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ } بالقول والفعل، إن استوجبوا ذلك، ولا تراقبهم، { وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ } أي: المرجع، مصيرهم.

{ يخلفون بالله ما قالوا } ، رُوي: أنه صلى الله عليه وسلم أقام في غزوة تبوك شهرين، ينزل عليه القرآن، ويعيب المختلفين فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد في إخواننا حقاً لنحن شرُّ من الحمير، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم؛ فاستحضره، فحلف بالله ما قال، فنزلت، فتاب الجلاس، وحسنت توبته.

قال تعالى: { ولقد قالوا كلمة الكفر } ، يعني: ما تقدم من قول الجلاس، أو قول ابن أبي: سَمَّنْ كَلْبَكَ يَا كَلْبُكَ، أو: { لئن رجعنا إلى المدينة }... الآية. { كفروا بعد إسلامهم }؛ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام، ولم يقل بعد إيمانهم، لأنهم يقولون بالسنتهم: أمانا، ولم يدخل في قلوبهم، { وهَمُّوا بما لم ينالوا } من قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو: أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مَرْجِعِهِ من تبوك، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي، إذا وصل إلى العقبة بالليل، فأخذ عَمَّار بن ياسر بخصام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة تقعقع أخفاف الإبل وقعقة السلاح، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا. أو: هموا بإخراجه من المدينة، أو إخراج المؤمنين، أو هموا بأن يُتَوَجَّؤا عبد الله بن أبي، وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم ينالوا شيئا من ذلك.

{ وما نَعَمُوا } أي: وما عابوا وكرهوا { إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله } الذين حقهم أن يشكروا عليه، وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج، في صَنَكٍ من العيش، فلما قَدِمَهُم رسول الله صلى الله عليه وسلم استغنوا

بالغنائم، وَفُتِلًا لِلْجُلَاسِ مولى، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدينه اثني عشر ألفاً، فأعطيت له، فاستغنى.

{ فَأَنْ يَتَوْبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ } ، وهذا حمل الجلاس على التوبة، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة، { وَإِنْ يَتَوَلَّوْا } عنك؛ بالإصرار على النفاق، { يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ }؛ بالقتل والنار، { وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } ينجيهم من العذاب.

الإشارة: كفار الخصوصية على القسمين: قسم أظهروا الإنكار على أهلها، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق، ففيهم شبه بأهل النفاق، فينبغي الإعراض عن الجميع، والاشتغال بالله عنهم، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم، فعداوة العدو حقاً هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً. وقد تصدر عنهم في جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها، وقد يهّموا بما لم ينالوا من إزابتهم وقتلهم، لو قدروا. والله يتولى الصالحين.

@ { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } * { فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ } * { فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمُ الْيَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } * { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ }

يقول الحق جل جلاله: { ومنهم من عاهد الله } قال: { لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين } ، وهو ثعلبة بن حاطب، أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ادعُ الله يرزقني مالاً. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " يا ثعلبة، قليلٌ تُؤدي شُكرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه " فراجعه، وقال: والذي بعثك بالحق، لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حقٍ حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فتمت كما تنمو الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ، فقال: " يا ويح ثعلبة " فبعث له مُصدقين لأخذ الصدقات؛ فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرأه الكتاب الذي فيه الفرائض، فقال: ما هذه صدقة، ما هذه إلا أخت الجزية، فارجعا حتى أرى رأيي، فنزلت فيه الآية، فجاء ثعلبة بالصدقة، فقال: إن الله منعني أن أقبل منك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له صلى الله عليه وسلم: " هذا منك؛ فقد أمرتُك فلم تطعني " فقبض الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاء بها إلى أبي بكر، فلم يقبلها، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته، فلم يقبلها منه، وهلك في زمن عثمان، بعد أن لم يقبلها منه.

وهذا معنى قوله: { فلما آتاهم من فضله بخلوا به } أي: منعوا حق الله منعه، { وتولوا } عن طاعة الله { وهم مُعرضون } أي: وهم قوم عادتهم الإعراض عنها، { فأعقبهم } أي: فأردفهم { نفاقاً في قلوبهم }؛ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه، أو فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً متمكناً في قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوي: ويجوز أن يكون الضمير للبخل، والمعنى: فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم { إلى يوم يلقونه } ، أي: يلقون الله بالموت، والمراد: يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك { بما أخلفوا الله ما وعدوه } أي: بسبب إخلافهم

ما وعده من التصدق والصلاح، { وبما كانوا يكذبون } أي: ويكونهم كاذبين فيه؛ فإن خلف الوعد متضمن للكذب، مستقيح من الوجهين.

{ ألم يعلموا } أي: المنافقون، أو من عاهد الله، { أن الله يعلم سرهم } أي: ما أسروا في أنفسهم من النفاق، { ونجواهم }؛ ما يتناجون فيه، فيما بينهم، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية، { وأن الله علام الغيوب }؛ فلا يخفى عليه شيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الحكمة العطائية: " من تمام النعمة عليك: أن يرزقك ما يكفيك، ويمنعك ما يطغيك ". وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " خير الرزق ما يكفي، وخير الذكر الخفي ". وقال صلى الله عليه وسلم: " ما طلعت شمسٌ إلا وبجانبها ملكان يُناديان، يُسمعان الخلائق: أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ما قل وكفى خير مما كثر وأهمل ". وقال بعض العارفين: كل من لا يعرف قدر ما زوي عنه في الدنيا، ابتلى بأحد وجهين: إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات، أو رغبة في غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ليس الغنى بكثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس " وغنى النفس عن الدنيا: شرف الأولياء المختارين، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر:

غنى النفس ما يُغنيكَ عن سَدِّ حُلَّةٍ فإن زِدْتَ شيئاً عَادَ ذَلِكَ الغنى قَفراً
وقد قيل: من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى الله عيني قلبه. وقالت الجارية المجنونة لعبد الواحد بن زيد: يا عبد الواحد، اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ثم مال إلى الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيراناً وإلهماً، فإن كان له عند الله تعالى نصيب، عاتبه وحيماً في سره، فقال: عبدي؛ أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشِي، وإجعلك دليلاً لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني؛ فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، عبدي؛ أرجع إلى ما كنت عليه، أرجع بك إلى ما كنت تعرفه. هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفي بعض الكتب: إن أهون ما أصنع بالعالم، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتي. هـ.

@ { الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } * { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

قلت: (الذين): مبتدأ حذف خبره، أي: منهم الذين، أو خبر عن مبتدأ، أو منصوب على الذم، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين: المتطوعين، فأدغمت التاء في الطاء، (وجهدهم): مصدر جهد في الأمر: بالغ فيه.

يقول الحق جل جلاله: ومنهم { الذين يلمزون } أي: يعيبون { المطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ }، روي أنه صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوفٍ بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لي ثمانية آلاف،

فأقرضت ربي أربعة، وأمسكت لعيالي أربعة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت". فبارك الله له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدق عاصم بن عدي ثمانية أوسق تمرًا، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على تمر الصدقات، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطي عبد الرحمن عاصم إلا رياءً، ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، فنزلت الآية.

ونزلت في أبي عقيل: { والذين لا يجِدُونَ إلا جُهدَهُمْ }؛ إلا طاقتهم، { فيسخرون منهم }؛ يستهزئون بهم. قال تعالى: { سخر الله منهم }؛ جازاهم على سخريتهم، كقوله: { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } [البقرة: 15]، { ولهم عذاب أليم } على كفرهم.

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ }، يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة، كما نص عليه بقوله: { إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم }، روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي - وكان من خيار المسلمين - سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مرض أبيه، أن يستغفر له، ففعل، فنزلت:

{ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [المنافقون: 6]، وذلك لأنه - عليه الصلاة والسلام - فهم من السبعين العدد المخصوص، وقال: ولو علمت أني إن زدت على السبعين، غفر له، لزدت، فبيّن له أن المراد به الكثير، دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمئة في التكثر؛ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد، فكانه بأسره. قاله البيضاوي.

{ ذلك } أي: عدم قبول استغفارك بسبب أنهم { كفروا بالله ورسوله } أي: ليس لبخل منا، ولا تقصير في حقك، بل لعدم قابليتهم؛ بسبب الكفر الصارف عنها. { والله لا يهدي القوم الفاسقين }؛ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر، والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره، المطبوع عليه؛ لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره، وهو عدم يأسه من إيمانهم، ما لم يعلم مطبوعون على الضلالة، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم؛ لقوله: { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } .. الآية [التوبة: 113] قاله البيضاوي.

الإشارة: من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم، حتى يسخر منهم، سخر الله منه، وأبعده من رحمته، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا استغفار المستغفرين. وفي بعض الأخبار: "من تتبع عورة أخيه المؤمن تتبع الله عورته حتى يفضحه، ولو في جوف بيته". ومن اشتغل بإذابة الأولياء، ولم يتب، مات على سوء الخاتمة، وذلك جزاء من حارب الله - والعياذ بالله -.

@ { قَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } * { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } * { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ }

قلت: (خلاف رسول الله): منصوب على الظرفية، أي: بعده، يقال: أقام خلاف الحي، أي: بعدهم، وقيل: مصدر خالف، فيكون مفعولاً لأجله، أو حال.

يقول الحق جل جلاله: { قَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ } أي: الذين خلفهم الله عن الغزو، وأقعدهم عنه، ولذلك عبّر بالمخلفين دون المتخلفين، فرحوا { بمقعدهم خلاف رسول الله } أي: بعده في غزوة تبوك، { وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله }؛ إيثاراً للراحة والدعة على طاعة الله ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه؛ ببذل الأموال والمهج، وأما المنافقون فأثروا الراحة وقعدوا، { وقالوا لا تنفروا في الحر }، قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تشبيهاً لهم. قال ابن جزى: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. هـ. { قل نار جهنم أشد حراً }، وقد آثرتموها بهذه المخالفة، { لو كانوا يفقهون } أن مآلهم إليها، أو كيف هي؟... ما اختاروا بإيثار الدعة على الطاعة.

{ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون }، وهو إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة، أي: سيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً؛ لما يرون من سوء العاقبة، وأتى به على صيغة الأمر؛ للدلالة على أن حتم واجب وقوعه. قال ابن جزى: أمرٌ بمعنى الخبر، فضحكهم القليل في الدنيا مدة بقائهم فيها، وبكاؤهم الكثير في الآخرة، أي: سيضحكون قليلاً في الدنيا، ويبكون كثيراً في الآخرة، وقيل: هو بمعنى الأمر، أي: يجب أن يكونوا يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً في الدنيا، لما وقعوا فيه. .

{ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ } أي: فإن رذك الله من الغزو إلى المدينة، وفيها طائفة من المتخلفين - يعني منافقيهم - وكانوا اثني عشر رجلاً ممن تخلف من المنافقين، وإنما لم يقل: إليهم؛ لأن منهم من تاب من النفاق، وندم على التخلف، { فاستأذنوك للخروج } معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، { قل لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا }؛ عقوبة لهم، وفيها خزي وتوبيخ لهم، { إنكم رضيتم بالقعود أول مرة }، يعني: عن تبوك، وهو تعليل لعدم خروجهم معه في المستقبل، { فاقعدوا مع الخالفين } أي: المتخلفين، أي: لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة: من قلَّ إيقانه، وضعف نور إيمانه، فرح ببقائه، مع متابعة هواه وتيسير أمور ديناه، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة، واقتحام حر المخالفة والمكابدة، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة؛ فسندم قريباً، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى.
{ وَالسَّائِقُونَ السَّائِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }
[الواقعة: 10-12].

@ { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَوَسَّوْا لَهُ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ } * { وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }

قلت: (أبدًا): ظرف لمات، أي: مات في مدة لا حياة بعدها؛ فإن حياة الكافر
للتعذيب، وهي كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله: لنبه صلى الله عليه وسلم: { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ } من
المنافقين إذا مات على كفره، بحيث (مات أبدًا) أي: مودة لا حياة بعدها. نزلت
في عبد الله بن أبي راس المنافقين، فإنه لما مرض، دعا رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فسأله أن يستغفر له ويكفنه في ثوبه الذي يلي جسده، ويصلي
عليه، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه، وذهب ليصلي عليه، فنزلت. وروي أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تقدم للصلاة عليه جذبته جبريل بثوبه، وتلا
عليه الآية فانصرف، ولم يصل عليه. وقيل: صلى عليه ثم نزلت. وفي البخاري: أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تقدم للصلاة عليه جذبته عمر، فقال: كيف
تصلي عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال: " إِنَّمَا حَيَّرَنِي... "

قال البيضاوي: وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه، ونهى عن الصلاة عليه؛ لأن
إلصقة بالقميص كانت مُخلّة بالكرم، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين
أسر ببدر، والمراد من الصلاة: الدعاء للميت والاستغفار له، وهو ممنوع في حق
الكافر، ولذلك رتب النهي على قوله: (مات أبدًا)؛ يعني: الموت على الكفر، فإن
إحياء الكافرين للتعذيب، دون التمتع، فكأنه لم يحيى. هـ.

واستدل ابن عبد الحكم، بهذه الآية، على وجوب الصلاة على المؤمنين، وقرر
للخمي وجه الدليل منها بطريق النهي عن الشيء أمر بضده؛ لأن ضد النهي
عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازوي قائلًا: وإنما هو من دليل الخطاب، ومفهوم
المخالفة، وبيان عدم صحة كونها من باب النهي عن الشيء، أن شرط ذلك
اتحاد متعلق الأمر والنهي، كقولك لزيد: لا تسكن، ومعناه تحرك، ومتعلقهما هنا
مختلف، فمتعلق النهي: المنافقون، ومتعلق الأمر: المؤمنون. وكذا رد كونها دالة
مفهوم المخالفة. انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى: { وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } أي: ولا تقف على قبره للدفن، أو الزيادة،
ثم علل النهي فقال: { إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا } ، والحال أنهم
{ فَاسِقُونَ }؛ خارجون عن دائرة الإسلام.

ثم نهى عن الاعتزاز بمالههم فقال: { وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } ، وقد تقدم، وإنما
كرره؛ للتأكيد، وهو حقيق به؛ فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد، والنفوس
مجبولة على حبهما، فكرر النهي عن الاعتزاز بهما، ويجوز أن تكون هذه فريق
آخر غير الأول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها، ورغبت في حُلته الملائكة والجنُّ والإنسُ والروحانيون، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض، وعلى روحه أجناد السماء، وفرحن بقدمه الملائكة والروحانيون، وربما شفعه الله في أهل عصره أجمعين، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة، فلا يصل عليه أحد، ولا يقف على قبره بشر، فالحذر الحذر من كل ما يبعد من حضرة الحبيب من المخلفات والإصرار على الزلات، فإنه بريد الكفر، الذي هو البعد الكبير - والعياذ بالله -.

والبدارُ البدارُ إلى ما يقرب من الحبيب، من أنواع الطاعات، والمسارة إلى الخيرات، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وبالله التوفيق.

@ { وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } * { رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } * { لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَاءِكُمْ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } * { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

يقول الحق جل جلاله: { وإذا أنزلت سورة } ، أو بعضها، في شأن الجهاد قائله: { ان آمنوا بالله } وحده، { وجاهدوا مع رسوله } صلى الله عليه وسلم، { استأذنتك } في التخلف { أولو الطول منهم } أي: أولو الغنى والسعة، { وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين }؛ الذين قعدوا لعذر، { ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف }؛ مع النساء، جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة؛ للذي لا خير فيه. { وطبع على قلوبهم } بالكفر والنفاق، { فهم لا يفقهون } ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة.

{ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم } أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد من هو خير منهم، { وأولئك لهم الخيرات }؛ منافع الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وقيل: الحور، لقوله

{ فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ }

[الرحمن: 70]، و { وأولئك هم المفلحون }؛ الفائزون بالمطالب البهية والمرغب السنية. { أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم }؛ بيان لبعض الخيرات الآخروية.

الإشارة: إذا ظهر الدعاة إلى الله يُشوقون الناس إلى حضرة الله؛ ترى من ضُرف عنه عتَانُ العناية، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة، والميل إلى ما ألفه من سيئ العادة، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء، اختارهم الله لحضرته، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبته، جاهدوا نفوسهم في معرفة محبوبهم، وبذلوا أموالهم ومهجهم في الوصول إلى مطلوبهم، { وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون }.

@ { وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤَدِّنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

قلت: (المُعَذَّرُونَ): أصله: المعتذرون، نقلت حركة التاء إلى العين، وأدغمت التاء في الذال. وقرأ يعقوب: " الْمُعَذَّرُونَ " اسم مفعول، من أعذر، إذا بالغ في العذر.

يقول الحق جل جلاله: { وجاء المُعذرون عن الأعراب { يعتذرون في التخلف عن الغزو؛ { لِيُؤَدِّنَ لَهُمْ { في القعود، قيل: هم أسد وغطفان؛ استأذنوا في التخلف، معتذرين بالجهد وكثرة العيال. قيل: كاذبين، وقيل: صادقين. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك غارت طيئ على أهالينا ومواشينا، وقيل: نزلت في قوم من غفار.

{ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ { من غير هؤلاء، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا في تخلفهم، فكذبوا في دعواهم الإيمان بالله ورسوله، يقال: كذبت فلاناً - بالتخفيف، أي: أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال: { سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {؛ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار.

الإشارة: المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام:

قسم: أقروا بها، وعرفوا صحتها، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم، فاعتذروا في التخلف عنها بأعذار باطلة، هؤلاء لا حجة لهم عند الله، وقوم أقبح منهم، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأساً. قال تعالى في مثلهم: { وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم }.

@ { لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا تَصَدَّقُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ } * { وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأْتُمْ لِيَجْمَلَهُمْ قُلْتُمْ لَا أَحْذُ مَا أَحْمَلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ } * { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بَأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

قلت: جواب " إذا " يحتمل أن يكون (تولوا)، وجملة (قُلْتُمْ): حال من الكاف في (أتوك)، أي: أتوك قائلاً لا أجد... الخ، ويحتمل أن يكون الجواب: " قلت "، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ، و(من الدمع): للبيان، وهي مع المجرور، في محل نصب على التمييز، فهو أبلغ من تفيض دمعتها؛ لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً، و(حزناً): علة، أو حال، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله، (ألا يجدوا): متعلق به، أي: حزناً على ألا يجدوا ما ينفقون، و (إنما السبيل) راجع لقوله: (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله: { ليس على الضعفاء {؛ كالهزمي، { ولا على المرضى {؛ كالرمتي ومن أضناه المرض، { ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون { في الغزو { حَرَجٌ { أي: لا حرج على هؤلاء في التخلف عن الغزو، { إذا تصدقوا لله ورسوله { بالإيمان والطاعة في السر والعلانية. قيل: نزلت في بني مُقرن، وهم ستة إخوة صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل في عبد الله بن مُغفل.

{ ما على المحسنين من سبيل } أي: ليس عليهم جناح، ولا إلى معاتبتهم سبيل، وإنما وضع المحسنين موضع المضمرة؛ للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين، غير معاتبين في ذلك، { والله غفور رحيم } بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ { ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم } معك إلى الغزو، وهم البكاؤون؛ سبعة من الأنصار: مَعْقِل بن يَسَار، وَصَخْر بن خنساء، وَعَبْد الله بن كعب، وسالم بن عُمَيْر، وَتَعْلَبَة بن عَنَمَة، وعبد الله بن مُعَقَّل، وَعُثَيْبَة بن زيد. أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المَرْقُوعَة والتَّعَال المَخْصُوفَة، نغزو معك، فقال: لا أجد، فتولوا وهم يبكون. وقيل: هم بنو مُقَرَّن، وقيل: أبو موسى وأصحابه، وعليه اقتصر البخاري.

{ قلت لا أجد ما أحملكم عليه }؛ وليس عندي ما أحملكم عليه، { تولوا } عنك { وأعيثهم تقيض من الدمع } أي: يفيض دمعها؛ { حزناً } على { ألا يجدوا ما ينفقون } في غزوهم.

زاد البخاري: فلما رجع أبو موسى وأصحابه، أتني - عليه الصلاة والسلام - يتَّهَب إبل، فدعاهم وحملهم عليها، فقالوا: يا رسول الله، إِنَّكَ خَلَفْتَ أَلَا تَحْمِلُنَا، فَخَفْنَا أَنْ نَكُونَ أَغْفَلْنَاكَ يَمِينُكَ، فقال: " ما أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، وإني والله، ما أخلفُ على يَمِينِ قَارِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ". أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: { إنما السبيلُ } أي: الحرج والمعاتبة { على الذين يستأذنونك } في القعود، { وهم أغنياء }؛ واجدون للأهبة، { رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالم }؛ كالنساء والصبيان، وهو استئناف لبيان ما هو السبب لاستثنائهم من غير عذر، وهو رضاهم بالدناءة، والانتظام في جملة النساء والصبيان؛ إثارة للدعة والكسل، { وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } بالكفر والغفلة؛ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة، { فهم لا يعلمون } ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف. الإشارة: كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص؛ الذين جعلهم الله أدوية القلوب، توجه العتاب إليه يوم القيامة، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عيب أو نقص أو خاطر سوء، حتى ربما يلقي الله بقلب سقيم.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من لم يتغلغل في عملنا هذا، مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر. وقال الغزالي: دواء القلوب واجب عينا على كل مسلم، فكل من قصر في ذلك عُوقِب يوم القيامة، إلا من حبسه عذر صحيح: من مرض مزمن، أو كبر سن، أو فقر مدلق. قال تعالى: { ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون جرح إذا نصحوا لله ورسوله }، فإن أحبوا أولياء الله، وصدقوهم وعظموهم، ودلوا الناس على صحبتهم، فهؤلاء محسنون، { ما على المحسنين من سبيل والله غفور } لضعفهم، { رحيم } بهم.

وقال الورتجي: (إذا نصحوا لله ورسوله) أي: إذا عرّفوا عباد الله طريق الله، والأسوة بسنة رسول الله. هـ. وقد قال الحواريون: يا روح الله، ما النصيحة لله؟ قال: تقديم حق الله على حق الناس. هـ. ولا حرج أيضاً على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال، فإن من أعطى نفسه كفته عن إعطاء المال.

قال تعالى: { ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم { إلى حصرة { قلت لا أجد ما أحملكم عليه {؛ فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما، { تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون {؛ ليتحببوا به في قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ: أردنا أن نجعل من يسوق مع من لا يسوق على حد سواء، فلم يعتدلوا. هـ.

وقوله تعالى: { حزناً ألا يجدوا ما ينفقون {، ليس حزنهم على فوات الدنيا، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول الله، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري: شقَّ عليهم أن يكون على قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام - منهم، أوبسبهم، شغلٌ، فتمنَّوا أن لو أزيحت علتهم، لا ميلاً إلى الدنيا؛ ولكن لئلا يعود إلى قلب الرسول من فعلهم كراهةً، ولقد قيل:

مَنْ عَفَّ حَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَخَوِ الحَوَائِجَ وَجْهَهُ مَمْلُوءٌ. هـ.

@ { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } * { سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } * { يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }

قلت: مفعول (نبأ) الثاني: محذوف، أي: نبأنا جملة من أخباركم، و (جزاء): مصدر لمحذوف، أي: يجازون جزاء أو علة، أي: للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله: { يعتذرون إليكم { يعني: المنافقين، { إذا رجعت إليهم { من تبوك، { قل { لهم: { لا تعتذروا { بالمعاذير الكاذبة؛ لأنه { لن نؤمن لكم { أي: لن نصدقكم فيها؛ لأنه { قد نبأنا الله من أخباركم {؛ أعلمنا بالوحي، على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ببعض أخباركم، وهو ما في ضمنا تركم من الشر والفساد.

{ وسيرى الله عملكم ورسوله {؛ هل تتوبون من الكفر، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة، { ثم تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ { وهو الله، والأصل: ثم تردون إليه؛ فوضع هذا الوصف موضع الضمير؛ للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم، لا يعزب عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم، { فينبئكم { أي: يخبركم { بما كنتم تعملون {؛ بالتوبيخ والعقاب عليه.

{ سيخلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم { من غزوكم؛ { لتعرضوا عنهم { أي: عن عتابهم، { فأعرضوا عنهم {؛ لا توبخوهم؛ { إنهم رجسٌ {؛ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب، فإن المقصود من العتاب: التطهير بالحمل على الإنابة، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة، { وماوَاهم جهنم { أي: منقلبهم إليها، والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً، فلا تتكفوا عتابهم، وذلك { جزاءً بما كانوا يكسبون { من الكفر والنفاق.

{ يخلفون لكم لتعرضوا عنهم { بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق، وإشراكهم في الغنائم، { فإن ترضوا عنهم { بذلك { فإن

الله لا يرضى عن القوم الفاسقين { أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله؛ فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية: النهي عن الرضا عنهم والاعتزاز بمعاديرهم، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد يظهر لهذه الطائفة منافقون، إذا ظهر على أهل الله عز أو نصر جاؤوا يعتذرون عن تخلفهم عنه، ويحلفون أنهم على محبتهم؛ فلا ينبغي الاعتزاز بشأنهم، ولا مواجهتهم بالعتاب؛ بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة في الله عنهم، فسرى الله عملهم ورسوله، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون.

@ { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا رِسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } * { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذِّخْلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { الأعرابُ } ، وهم سكان البادية، قال ابن عزيز: يقال: رجل أعرابي، إذا كان بدويًا. وإن لم يكن من العرب، ورجل عربي، إذا كان منسويًا إلى العرب، وإن لم يكن بدويًا. أهل البوادي من المنافقين هم { أشدُّ كفرًا ونفاقًا } من أهل الحاضرة، وذلك لتوحشهم وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب، { وإجدُرُ } أي: أحق { ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله } من الشرائع وفرائضها وسننها، لبعدهم عن مجالس العلم، { والله عليمٌ حكيمٌ }؛ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية، أو الحاضرة، ويختار لكم واحد بحكمته البالغة ما يليق به، وسيأتي بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية في الإشارة، إن شاء الله.

{ ومن الأعراب من يتخذ { أي: يعدُّ } ما ينفقُ { من الزكاة وغيرها في سبيل الله، { مغرمًا } أي: غرامة وخسرانًا؛ إذ لا يحتسبه عند الله، ولا يرجوا عليه ثوابًا، وإنما ينفقه لرباء أو تقية، فيثقل عليه ثقل المغرم الذي ليس بحق، { ويتربصُّ بكم الدوائر } أي: دوائر الزمان وتوبه، أو ينتظر بكم مصائب الزمان، لينقلب الأمر عليكم؛ فيتخلص من الإنفاق الذي كلف به.

قال تعالى: { عليهم دائرة السوء } ، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه - أي: عليهم يدور من الدهر ما يسوؤهم أو جعل الله دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية: كل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله - عز وجل - فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء؛ لأن الله تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله: { وَيُلْ لِكُلِّ هُمْرَةٍ لَمْرَةٍ }

[الهمزة: 1]،
{ وَيُلْ لِكُلِّ هُمْرَةٍ لَمْرَةٍ }

[المطففين: 1]، وهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى. هـ. أو إخبار عن وقوع ما يترتبونه عليهم. قال البيضاوي: الدوائر في الأصل: مصدر أضيف إليه السوء؛ للمبالغة، كقولك: رجلٌ صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: "السُّوء" هنا، وفي الفتح بضم السين. هـ. { والله سميعٌ } لما يقولونه عند الإنفاق { عليمٌ } بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدّهم، فقال: { ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يُنفق { أي: يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها } قرباتٍ عند الله {؛ تُقربهم إليه زلفى؛ لإخلاصهم فيها. } وصلوات الرسول { أي: ويتخذ ما ينفق سببَ صلوات الرسول؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يدعو للمتصدقين، ويقول: اللهم صل على فلان، ويستغفر لهم. ولذلك سُنَّ للمصدّق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته، ولكن ليس له أن يصلي عليه، كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم؛ لأن ذلك منصبه، فله أن يتفضل به على غيره.

{ ألا إنها { أي: نفقاتهم، } قُربة لهم { تُقربهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم، } سيّدخلهم الله في رحمته {، وعدُّ من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم، أو سيّدخلهم في جنته التي هي محل رحمته وكرامته، والسين لتحقيق وقوعه. إن الله غفور رحيم {؛ يغفر ما فرط من الخلل، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل: إن الآية الأولى نزلت في أسد وغطفان وبني تميم؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرماً. والثانية نزلت في عبد الله ذي البجادين وقومه؛ فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد ورد الترغيب في سكنى المدن؛ لأنها محل العلم وسماع الوعظ، وفيها من يستعان بهم على الدين، وورد الترغيب أيضاً في سكنى الجبال والفرارا بالدين من الفتن، وخصوصاً في آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادي؛ كأبي ذر؛ وسلمة بن الأكوع، وغيرهما - رضي الله عنهم -.

والتحرير في المسألة: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد، فمن كان مراده تحقيق الشريعة، وتحرير مسائل العلم الظاهر، والقيام بوظائف الدين، ولم يجد في البادية من يعينه على ذلك؛ فسكنى المدن أفضل له، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة، وتهيئة القلب لإشراق أنوار الحقيقة، فالاعتزال في البوادي، وقرون الجبال، أوفق له، إن وجد من يستعين بهم على ذلك؛ لأن شواغل المدن، وعوائدها كثيرة، وقد كثرت فيها الحطوط والأهوية؛ فلا يجد فيها إلا من هو مفتون بدنياً أو مبتلى بهوى، بخلاف أهل البادية، هذه العوائد فيهم قليلة، وجُلُّ أهلها على الفطرة.

وأيضاً: هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا الله. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أرحم الناس بالناس من يرحم من لا يرحم نفسه. أي: من يرحم الجاهل الذي لا يرحم نفسه؛ بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالي في الإحياء: يجب على العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس في البوادي؛ فإن أخلوا بذلك

الأمر عاقبهم الله، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. والله تعالى أعلم. وأما يذكر حديثاً: "أمّتي في المدن، وقليل في البادية" فلم يصح، بل قال - عليه الصلاة والسلام - للرجل الذي أراد أن ينتقل إلى المدينة: "اعبد الله حيثما كنت، فإن الله لن يترك من أعمالك شيئاً" وكذلك قوله: إذا أراد الله بعبد خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة؛ لم أقف عليه حديثاً. وبالله التوفيق.

@ { وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

قلت: (السابقون): مبتدأ، (والذين اتبعوهم): عطف عليه، وجملة (رضي الله عنهم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: { والسابقون الأولون } إلى الإسلام { من المهاجرين } وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدرًا، أو الذين أسلموا قبل الهجرة، { و } من { الأنصار }؛ وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة، أو أهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مُصعب بن عمير.

{ والذين اتبعوهم بإحسان }؛ اللاحقين بالسابقين من الفريقين، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة، { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ } بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، { وَرَضُوا عَنْهُ } بما نالوا من نِعَمه الدينية والدنيوية، { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } وقرأ ابن كثير: "من تحتها"، كما هي في مصحف أهل مكة. { خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم } أي: الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة: لكل زمان سابقون، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد، قد خرّقوا عوائد أنفسهم، فأبدلوا العز بالذل، والجاه بالخمول، والغنى بالفقر، والرفعة بالتواضع، والرغبة بالزهد، وشغل الظاهر بالترف؛ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا في طلب محبوبهم، وصحبوا المشايخ، وخدموا الإخوان، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأستار، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار؛ فتهيؤوا لتذكير العباد، وحيث بهم الأقطار والبلاد. وفي مثلهم يقول الشاعر:

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزُلُونَ بِهَا كَأَنَّكُمْ فِي يِقَاعِ الْأَرْضِ أَمْطَارٌ
وَتَشْتَهِي الْعَيْنُ فِيكُمْ مَنَظَرًا حَسَنًا كَأَنَّكُمْ فِي عُيُونِ النَّاسِ أَقْمَارٌ
{ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون }.
@ { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّقَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَيْنَا عَذَابٍ عَظِيمٍ }

يقول الحق جل جلاله: { وممن حولكم }، يا أهل المدينة، { من الأعراب منافقون } ساكنون حولكم، وهم: جُهينة، ومُزينة، وأسلم، وغفار، وأشجع، كانوا نازلين حول المدينة، أما أسلم وغفار فتابوا، ودعا لهم - عليه الصلاة والسلام - فقال: "أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها" وأما الباقي فأسلم بعضهم.

قال تعالى: { ومن أهل المدينة { قوم { مَرَدُوا { أي: استمروا { على النفاق } ،
واجترؤوا عليه، وتمرنوا وتمهروا فيه، { لا تعلمهم { أي: لا تعرفهم يا محمد
بأعيانهم، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم في تحري مواقع التهم إلى حد قد خفي
عليك حالهم، مع كمال فطنتك وصدق فراستك، { نحن نعلمهم { ، وتطلع على
أسرارهم إن قدروا أن يلبسوا عليك فلا يقدر أن يلبسوا علينا، { سنعدّ بهم
مرتين { بالفضيحة والقتل، أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان
في الحرب، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر، أو بتسليط الحمى عليهم مرتين في
السنة، { ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم { بعد الموت، وهو عذاب النار.

الإشارة: قد جعل الله - سبحانه - بحكمته وقدرته، في كلِّ عصر وأوان بحرین:
بحراً من النور وبعراً من الظلمة، من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى
قيام الساعة، فلا بد في كل عصر من نور وظلمة، وإيمان وكفران، ونفاق
وإخلاص، وصفاء وخوض، فأهل النور نورهم في الزيادة إلى قرب قيام الساعة،
وأهل الظلمة كذلك إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها، ولا يظهر شرف النور إلا
بوجود الظلمة، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض، ولا فضل العلم إلا بوجود
الجهل، وهكذا جعل الله من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار إلى الواحد الحق،
فمن رام انفراد احدهما في الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. والله تعالى
أعلم.

@ { وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {

يقول الحق جل جلاله: { و { قوم { آخرون اعترفوا بذنوبهم {؛ وهو التخلف عن
الجهاد، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعداء الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين لما
بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، وقالوا: لا نحل
أنفسنا حتى يحلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدم رسول الله صلى
الله عليه وسلم دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، على عادته، فراهم وسأل
عنهم، فذكر له سببهم، فنزلت الآية فأطلقهم.

{ خلطوا عملاً صالحاً { بعمل سيئ { وآخر سيئاً { بعمل صالح، خلطوا العمل
الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب، بآخر سيئ وهو التخلف وموافقة
أهل النفاق، أو خلطوا عملاً صالحاً، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول،
وغيره من الأعمال، بآخر سيئ، وهو تخلفهم عن تبوك. { عسى الله أن يتوب
عليهم { أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله: { اعترفوا بذنوبهم { ، والرجاء في
حقه تعالى واجب. { إن الله غفور رحيم { يتجاوز عن التائب ويفضل عليهم.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقيل القشيري:
قوله: { وآخر سيئاً { بعد قوله: { عملاً صالحاً { دليل على أن التوبة لا تحبط
ثواب الطاعة؛ إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحاً، وهو كذلك. انتهى. قلت: وما
ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، ولا يعارضه حديث
مسلم: " إِنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِقُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ الَّذِي يَتَّأَلَى
عَلَيَّ إِلَّا أَغْفِرَ لِقُلَانٍ، وَإِنِّي غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ " أو كما قال؛ لأن هذا
الرجل كان من بني إسرائيل، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا؛ لأن هذه الأمة

المحمدية قد وضع الله عنها أثقال بني إسرائيل، فهي ملة سمحة، ولعل هذا الرجل أيضاً كان قانطاً من رحمة الله ومكذباً بها، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة: الناس ثلاثة: سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون، والمخلطون راجون، والمنهمكون هالكون، إلا من تاب وعمل صالحاً، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم، وصفاؤهم على كدرهم، إن هفوا رجعوا قريباً، فقد تمر عليهم السنين الطويلة، ولا يكتب عليهم ملك الشمال شيئاً؛ وذلك ليقظتهم، لا لعصمتهم، والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم، عسى الله أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصريون على الفواحش، فإن سبقت لهم عناية رجعوا، وإن لم تسبق لهم عناية فهم مُعَرَّضُونَ لنقمة الله وحلمه، والله تعالى أعلم.

@ { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { إِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

يقول الحق جل جلاله: لنبه - عليه الصلاة والسلام: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ } التي عرضوها عليك { صدقة }، وهو الثلث، فأخذ عليه الصلاة والسلام من أموالهم الثلث، وترك لهم الثلثين، أو: خذ من أموالهم صدقة، وهي الزكاة المفروضة، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة: { تُطَهِّرُهُمْ } أنت يا محمد بها من الذنوب، أو حب المال المؤدي بهم إلى البخل، الذي هو أقيح الذنوب. وقرئ بالجزم؛ جواب الأمر.

{ وَتُزَكِّيهِمْ } أي: تنمي بها حسناتهم، أو ترفعهم { بها } إلى درجات المخلصين، { وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } أي: ترحم عليهم، وادع لهم بالرحمة، فكان عليه الصلاة والسلام يقول لمن أتاه بصدقته: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ أَلِ قُلَانٍ". فأتى أبو أوفى بصدقته فقال: "اللهم صلِّ على آل أبي أوفى".

{ إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ }؛ تسكن إليها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة والسلام. قال القشيري: انتعاشهم بهمتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم. هـ. وجمع الصلوات؛ لتعدد الموعد لهم، وقرأ الأخوان وحفص بالتوحيد. { وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }؛ أي: سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

{ إِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } إذا صحت، والضمير إما للتوب عليهم، والمراد أن يُمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتذار بصدقتهم، أو لغيرهم، والمراد به التحضيض على التوبة، { و } { أنه هو الذي { يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ }؛ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله، { وأن الله هو التواب الرحيم } أي: من شأنه قبول توبة التائبين، والمتفضل عليهم بجوده وإحسانه.

الإشارة: أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب في غناهم، واتساع حالهم حساً ومعنى، وقد قالوا: إذا أراد الله أن يغني فقيراً سلط عليه ولياً يأخذ ماله، أو أمره شيخه بإعطاء ماله، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أشياخنا سيدي علي الجمل العراني في كتابه. وقد رأيت في مناقب شرفاء وزان: أن

الشيخ مولاي التهامي أرسل إلى أخيه مولاي الطيب، وكان من خواص تلامذته، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسرة للمرابطين، فأرسل له جميع ما يملك، حتى كسوة الدار وأثاث البيت، فكان ذلك سبباً في فيضان ماله، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها ملكٌ من أملاك مولاي الطيب، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها، وذلك بسبب شيخه له. والله تعالى أعلم.

@ { وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وقل اعملوا } ما شئتم من خير أو شر، { فسيري الله عملكم }؛ فإنه لا يخفى عليه؛ خيراً كان أو شراً، { و } سيري ذلك أيضاً { رسوله والمؤمنون }، فيظهر لهم ما يبدو منكم، فإن الطول يفضح صاحبه. { وستردون إلى عالم الغيب والشهادة }، بالموت، { فينبئكم بما كنتم تعملون }؛ فيخبركم بما عملتم؛ بالمجازة عليه.

الإشارة: كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له: { وقل اعملوا } فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون؛ { فإن كان أمره مبنياً علي أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض، وشعشع نوره، وإن كان مبنياً على أساس افتضح وكسف نوره، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة، فيجازي كلاً بعلمه.

@ { وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

قلت: الإرجاء هو التأخر، يقال: أرجاه - بالهمز وتركه -: آخره.

يقول الحق جل جلاله: { وآخرون } من المتخلفين، تخلفوا من غير عذر، ولم يعتذروا بشيء، { مُرْجُونَ } أي: مؤخرون { لأمر الله } في شأنهم؛ { إما } أن { يُعَذِّبَهُمْ } على تخلفهم عن الجهاد مع رسوله، { وإما } أن { يتوب عليهم } حيث تابوا وندموا، والترديد باعتبار العباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى، { والله عليم } بأحوالهم، { حكيم } فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ألا يُسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم، وفوضوا أمرهم إلى الله، فرحمهم، وسيأتي تمام قصتهم وتوبة الله عليهم بعد، أو شاء الله.

الإشارة: وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين، حتى ماتوا مفروقين، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساوئ والذنوب، وإما أن يتوب عليهم بفضلهم وكرمه، إنه عليم لا يخفى عليه ما أسروا، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

@ { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } * { لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسُسِينَ عَلَى التَّقْوَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ } * { أَقَمَّنْ أُسُسَ بُنْيَانَهُ عَلَيَا تَقْوَا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسُسَ بُنْيَانَهُ عَلَيَا شَقَا جُرْفٍ هَارٍ قَائِمًا يَوْمَ فِي تَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } * { لَا يَرَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رَبِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

قلت: قرأ نافع وابن عامر: بغير واو؛ مبتدأ حذف خبره، أي: معذبون، أو في: (لا تقم فيه أبداً)، أو في قوله: (لا يزال)، أو صفة لقوله: (وأخرون)، على من يقول: إن "المُرْجُونَ" غير الثلاثة المخلفين، بل في المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. وهو قرأ بالواو فعطف على قوله: (أخرون)، أو مبتدأ حذف خبره، أي: وممن وصفنا: الذين، أو منصوب على الذم، و(ضراراً) وما بعده: علة، وأصل (هاري): هائر، فأخرت الهمزة، ثم قلبت ياء، ثم حذف: لالتقاء الساكنين.

يقول الحق جل جلاله: { و } منهم { الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكُفراً } أي: لأجل المضارة بالمؤمنين والكفر الذي أسروه، وهو تعظيم أبي عامر الكافر، { وتفريقاً بين { المؤمنين } الذين كانوا يُصلون في مسجد قباء.

رُوي أن بني عَمْرُو بن عوف لَمَّا بَنَوْا مَسْجِدَ قُبَاءَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فِيصَلِّي فِيهِ، فَأَتَاهُمْ فَصَلَّى فِيهِ، فَحَسَدْتَهُمْ إِخْوَانُهُمْ؛ بَنُو عُمَرَ بْنِ عَوْفٍ، فَبَنَوْا مَسْجِدًا عَلَى قِصْدِ أَنْ يَوْمَهُمْ فِيهِ أَبُو عَامِرِ الرَّاهِبِ، إِذَا قَدِمَ مِنَ الشَّامِ، فَلَمَّا أُنْمُوهُ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْحَاجَةِ وَالْعَلَّةِ وَاللَّيْلَةِ الْمُطَيَّرَةِ، فَصَلِّ لَنَا فِيهِ حَتَّى نَتَّخِذَهُ مِصْلَى، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ خُرُوجِهِ لَتَبُوكَ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنِّي عَلَى جَتَاحِ سَقَرٍ، وَإِذَا قَدِمْنَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، صَلِينَا فِيهِ". فَلَمَّا قَدِمَ أَتَوْهُ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ لِيَقُومَ مَعَهُمْ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَدَعَا مَالِكُ بْنُ الدَّخْشَمِ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِي، وَعَامِرُ بْنُ السَّكَنِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلَهُ فَاهْدُمُوهُ وَحَرِّقُوهُ؛ ففعلوا، واتخذوا مكانه كناسة.

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد، فقال: { وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله }؛ أي: واتخذوه انتظاراً ليؤمهم فيه من حارب الله ورسوله، يعني: أبا عامر الراهب، فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فانهزم مع هوازن، ثم هرب إلى الشام؛ ليأتي من قيصرٍ بجنودٍ يحاربُ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمات يفتسرين طريداً وحيداً، وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة: الراهب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق.

وقوله: { من قبل } متعلق بحارب، أي: حارب من قبل هذا الوقت، أو باتخذوا، أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف؛ لأنه قبيل غزوة تبوك. { وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى } أي: ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى، وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. { والله يشهد إنهم لكاذبون } في حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال: { لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا } للصلاة؛ إسعافاً لهم،
{ لمسجدٍ أسسَ على التقوى من أول يومٍ } من أيام وجوده، { أحقُّ أن تقوم
فيه } أي: أولى بأن تصلى فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله صلى الله
عليه وسلم في أيام مُقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الاثنين إلى الجمعة،
وهذا أوفق للقصة.

وقيل: مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لقول أبي سعيد: سألت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عنه؟ فقال: "مسجدكم هذا، مسجد المدينة" { فيه رجال
يُحبون أن يتطهروا }، كانوا يستنجون بالماء، ويجمعون بين الماء والحجر، أو
يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة، طلباً لمرضات الله تعالى، أو من
الجنابة، فلا ينامون عليها، { والله يُحبُّ المُطهرين }؛ يرضى عنهم، ويؤدبهم من
جنبه إذناء المحب لحبيبه.

وقيل: لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه المهاجرون، حتى
وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال: "أموئنون أنتم"
فَسَبَّكُوا، فأعادها، فقال عمر: إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام:
"أترضون بالقضاء" فقالوا: نعم، قال: "أصبرون على البلاء" قالوا: نعم، قال: "أتشكرون في الرِّخاء"
قالوا: نعم، فقال عليه الصلاة والسلام: "مؤمئنون وربِّ
الكعبة" فجلس، ثم قال: "يا معشر الأنصار، إن الله عزَّ وجلَّ قد أتى عليكم،
فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط" فقالوا: يا رسول الله، تُتبع الغائط
الأحجار الثلاثة، ثم تُتبع الأحجار الماء. فقال: { رجالٌ يُحبُّون أن يتطهروا }.

{ أفمن أسسَ بُنيانه على تقوى منَ الله ورضوانٍ }؛ بأنه قصد به وجه الله،
وابتغاء مرضاته، فحسنت النية في أوله، { خيرٌ أم من أسس بنيانه على قصد
الرياء والمنافسة، فكانه بنى على { شفاً } أي: طرف { جُرفٍ }؛ حفرة { هارٍ }
أي: واهٍ ضعيف، أشرف على السقوط، أو ساقط، { فأنهار به في نار جهنم }
أي: طاح في جهنم، وهذا ترشيح للمجاز، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار،
الذي هو من شأن الجرف، وقيل: إن ذلك حقيقة، وإنه سقط في جهنم، وإنه لم
يزل يظهر الدخان في موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير، والذي أسس على التقوى والرضوان: هو مسجد قباء، أو
المدينة، على ما تقدم، والذي أسس على شفا جرف هار هو مسجد الضرار،
وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه، وقصد وجه الله، وإظهار
شرعه، والتأسيس على سفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء، والتفريق
بين المؤمنين، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزي: { والله
لا يهدي القوم الظالمين } إلى ما فيه صلاح ونجاه.

{ لا يزالُ بُنيانُهُم } أي: مبنيتهم، مصدر بمعنى المفعول، { الذي بنوا ريبه } أي:
شكاً ونفاقاً { في قلوبهم }، والمعنى: أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم
وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك، ثم لما هدمه الرسول صلى الله عليه
وسلم رسخ ذلك في قلوبهم وازداد، بحيث لا يزول رسمه من قلوبهم، { إلا أن
تقطع } بالموت، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك، أو لا يزال بنيانهم ريبه، أي:
شكاً في الإسلام بسبب بنيانه، لاعتقادهم صواب فعلهم، أو غيظاً بسبب هدمه،
{ والله عليمٌ } بنيانهم، { حكيمٌ } فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة: من أراد أن يؤسس بِنِان أعماله وأحواله على التقوى والرضوان، فليؤسسها على الإخلاص والنية الحسنة، ومتابعة السنة المحمدية، فإنها لا تنهدم أبداً، ومن أراد أن يؤسسها على شفا جرف هار فليؤسسها على الرِّبَاء والسمعة، وقصد الكرامات وطلب الأعواض، فإنها تنهدم سريعاً ولا تدوم، فما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

@ { إِنَّ إِلَهًا اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

قلت: جملة (يقاتلون): حال من (المؤمنين)؛ بياناً للشراء، أو استثنافاً؛ لبيان ما لأجله الشراء، وقيل: "يقاتلون": بمعنى الأمر، و(وعداً): مصدرراً لما دل عليه الشراء، فإنه في معنى الوعد، أي: وعدهم وعداً حقاً لا خلف فيه.

يقول الحق جل جلاله: { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة } أي: عوضهم في بذل مُهْجهم وأموالهم في سبيله الجنة ونعيمها، ومن جملته: النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم: فانظر... ما أكرمه سبحانه، فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بيّن وجه الشراء فقال: { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } لإعلاء كلمة الله، { فَيَقْتُلُونَ } الكفار، { وَيُقْتَلُونَ } شهداء في سبيل الله. وقرأ الأَخْوَانِ بتقديم المبنى للمفعول؛ لأن الواو لا ترتب، وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل، أي: فيموت بعضهم وبجاهد الباقي. وعد ذلك لهم { وعداً عليه حقاً }؛ لا خلف فيه، مذكوراً ذلك الوعد { في التوراة والإنجيل والقرآن } أي: إن الله بيّن في الكتابين أن الله اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة، كما بيّنه في القرآن، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. { ومن أوفى بعهد من الله }؟ هو مبالغة في الإنجاز، أي: لا أحد أوفى منه بالعهد، { فاستبشروا ببيعكم الذي بايَعْتُمْ بِهِ } أي: فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب، كما قال: { وذلك هو الفوز العظيم }. قال بعضهم: ناهيك من بيع، البائع فيه رب العلاء، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة، فمن باع نفسه لله؛ بأن خالف هواها وخرق عوائدها، وسعى في طلب مولاها، عوضه جنة المعارف، معجلة، وزاده جنة الزخارف، مؤجلة. ومن باع ماله؛ بأن أنفقه في مرضاة الله، وبخل بنفسه، عوضه جنة الزخارف، مؤجلة.

قال في الإحياء - في باب الذكر وفضيلته -: وأنه يوجب الأُنْس والحب، فإذا حصل الأُنْس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى هو الذي يفارقه عند الموت، فلا يبقى معه في القبر أهل، ولا مال، ولا ولد، ولا ولاية، ولا يبقى معه إلا ذكر الله، فإن كان في أنس به تمتع به، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غيبته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه، عما به أنسه.

ثم قال: ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة؛ لأن المطلوب هو الخاتمة، ومعنى الخاتمة: وداع الدنيا كلها، والقدوم على الله، والقلب مستغرق بالله، منقطع العلائق عن غيره، والحاضر صف القتال قد تجرد قلبه لله، وقطع طعمه من حياته، حبا لله وطمعا في مرضاته، وحالة الشهيد توافق معنى قولك: (لا إله إلا الله)، فإنه لا مقصود له سوى الله. فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة في مناجاتهم، وأهل الشهود في حال غيبتهم في محبوبهم، ليس هو من نعيم الدنيا، بل من نعيم الجنة، قدّمه الله لأوليائه، وهو معنى جنة المعارف المعجلة؛ عوضا لمن باع نفسه لله.

قال بعض العارفين: النفوس ثلاثة: نفس معيبة، لا يقع عليها بيع ولا شراء، وهي نفس الكافر، ونفس تحررت؛ لا يصح بيعها، وهي نفس الأنبياء والمرسلين، لأنها خلقت مطهرة من البقايا، ونفس يصح بيعها وشراؤها، وهي نفس المؤمن، فإذا باعها لله، واشتراها الحق تعالى منه، وقع عليها التحرير، وذلك حين تحرر من رقّ الأكوان، وتخلص من بقايا الأثر.

وقال بعض أهل التحقيق: اشترى الله تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب؛ لأن القلب حر لا يقع عليه البيع؛ لأنه لله؛ فلا يباع ولا يشتري، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القلب بيت الرب".

أي: لأنه محل مناجاته، ومعدن معرفته، وخزانة سره، فليس للشيطان عليه من سبيل. قال تعالى:

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }

[الإسراء: 65]. وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشتري. هـ.

@ { التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: (التائبون): خبر، أي: هم التائبون، أو مبتدأ حذف خبره، أي: التائبون في الجنة وإن لم يجاهدوا، لقوله تعالى:

{ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى }

[النساء: 95]، أو خبره ما بعده، أي: التائبون عن الكفر، على الحقيقة، وهم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله: في وصف البائعين أنفسهم وأموالهم: هم { التائبون } عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات، { العابدون } لله، مخلصين له الدين، { الحامدون } لله في السراء والضراء وعلى كل حال، { السائحون } أي: الصائمون، لقوله عليه الصلاة والسلام: "سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ" شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الإطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهد، أو لطلب العلم، أو لزيادة المشايخ والإخوان.

{ الراكعون الساجدون } في الصلاة، { الآمرون بالمعروف } أي: بكل ما هو معروف محمود، كالإيمان والطاعة، { والناهون عن المنكر } أي: كل ما هو منكر

في الشرع، كالكفر والمعاصي، { والحافظون لحدود الله } أي: لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. قال البيضاوي: وعطف قوله: { والناهون عن المنكر } دون ما قبله؛ للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة، كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وعطف أيضاً قوله: { والحافظون لحدود الله }؛ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل، وهذا مجملها، وقيل: للإيدان بأن التعداد قد تم بالسابع، من حيث إن السبعة هو العدد التام، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه، ولذلك سمي واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

{ وبشر المؤمنين } الموصوفين بهذه الفضائل، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، كأنه قيل: وبشرهم بما يجلب عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوي.

الإشارة: قد جمعت هذه الآية معارج الترقى من البداية إلى النهاية، فأول المقامات: التوبة، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاه، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة، التي هي عمل الشريعة، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق، ولاحت لها أنوار التحقيق، حمدت الله وشكرته؛ تقيداً لتلك النعمة، ثم تسبح فكرتها في ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت، ثم ترد إلى مراسم الشريعة، إذ منتهى الكمال: التزام الشرائع، فتركع وتسجد البشرية، أدياً في عالم الأشباح، ويركع القلب ويسجد في مسجد الحضرة في عالم الأرواح، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرين؛ لأهل التشريع، والباطنين؛ لأهل التحقيق، فالأول يسمى وعظاً وتذكيراً، والثاني يسمى تربية وترقية، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود، ووفى بالعهود، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنا.

قال القشيري: لقوله تعالى: { السائقون } أي: الصائمون، ولكن عن شهود غير الله، المُمْتَنِعُونَ عن خدمة غير الله، المكفون من الله بالله، ويقال: السائقون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغربها؛ بالتفكير في جوانبها ومناكبها، والاستبدال بتغيرها على مُنْشِئَتِهَا، والتحقق بحكم خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسراهم في الملكوت، فيجدون رَوْحَ الوصال، ويعيشون بنسيم الأُس؛ بالتحقيق بشهود الحق.

وانظر الورتجبي؛ فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة، ثم التوبة الصادقة تستدعي العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية، فإذا تمت له نعمة للعبودية اقتضت حمد الله تعالى، فيحمده تعالى معترفاً بعجزه عن القيام بحمده؛ كما في حديث: "أنت كما أثبتت على تفسيك" ثم الحمد والذكر يقتضي حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين جمى هلال جماله في سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام: "صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ" ولا يكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله: "وأفطروا لرؤيته" فالسائقون طيارون بقلوبهم في أقطار الغيب، وذلك يقتضي الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة، فيركع شوقاً لجماله، وخضوعاً لجلاله، وعنده ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات، فيسجد لكل الجهات؛ { فَأَيُّمًا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ }

[البقرة: 115]. وهذا السجود يقتضي الغربية، والغربة تقتضي المشاهدة، والمشاهدة تصير شاهدها متصفاً بصفاتها، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته صار متصفاً

بوصف الربوبية، متمكناً في العبودية، فيحكم بحكم الله، ويعدل بعدل الله، فيصفهم الله بهذه النعوت، قال: (الأمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق، والناهون لهم عن متابعة الشهوات، والحافظون لحدود الله، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية؛ لأنهم في محل التمكين على أسوة مراتب النبي صلى الله عليه وسلم، مع كماله، قال: "أنا العبد لا إله إلا الله". انتهى.

@ { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } * { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٌ حَلِيمٌ }

يقول الحق جل جلاله: { ما كان } ينبغي { للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين } الذين ماتوا على الشرك، { ولو كانوا أولي قُرْبَى } أي: من قرابتهم، { من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم }؛ لموتهم على الشرك. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لابي طالب، لما حضرته الوفاة: "قُل: " لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله ". فأبى، فقال: " والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " فكان يستغفر له حتى نزلت الآية. وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم استأذن ربه أن يستغفر لأنه، فنزلت، وقيل: إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لأبائهم، فنزلت، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم؛ إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقص باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر، فقال: { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه } ، وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم قال في شأن عمه: " لأستغفرن لك، كما استغفر إبراهيم لأبيه " فنزلت: { وما كان استغفار إبراهيم لأبيه }. والموعدة التي وعدها إياه قوله: { لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء } [الممتحنة: 4]. أي: لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان، فإنه يجب ما قبله.

والمعنى: لا حجة لكم في استغفار إبراهيم لأبيه، فإن ذلك لم يكن إلا لوعده تقدم بقوله: { لأستغفرن لك... } الخ. { فلما تبين له أنه عدو لله }؛ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن، { تبرأ منه }؛ بأن قطع استغفاره له، { وإن إبراهيم لأواه } أي: لكثير التأوه، وهو كناية عن فرط ترحمه، أو كثير الدعاء، أو مؤمن، أو فقيه، أو كثير الذكر لله، أو كثير التأوه من خوف الله، { حلِيمٌ }؛ صبور على الأذى، والجملة: لبيان ما حمله على الاستغفار.

الإشارة: الشفاعة لا تكون فيمن تحقق غضب الله عليه، فإن ذلك من سوء الأدب، كالدعاء بالمحال، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغّب فيها. قال عليه الصلاة والسلام: " اشقُّوا تُوجِّروا " والاستغفار شفاعة. وقد ورد في الخبر: " مَنْ استغفر للمؤمنين والمؤمنات خمسا وعشرين مرة كتب من الأبدال ".

والشفقة مطلوبة، ما لم يظهر مراد الله من خلقه، فإن برز من عنصر القدرة شيء من القهريات، فالتسليم لمراده تعالى أحسن، فإله ارحم بعباده منك أيها الشفيق، وسيأتي عند قوله تعالى:

{ يَا بَرَاهِيمُ اٰغْرَضْ عَنْ هٰذَا ۗ اِنَّهُ قَدْ جَاءَ اَمْرٌ رَبِّكَ } [هود: 76] وبالله التوفيق.

@ { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } * { إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

يقول الحق جل جلاله: { وما كان الله ليضل قوماً }؛ أي: بسميهم ضلالاً، وبؤاخذهم مؤاخذتهم، { بعد إذ هداهم } للإسلام، { حتى يبين لهم ما يتقون } أي: حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه، فإن خالفوا بعد البيان، أضلهم وأخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوي: وكأنه بيان عذر الرسول في قوله لعمه: " لأستغفرن لك، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع ". وقيل: إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفي الجملة: دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزى: نزلت في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن، فخافوا على أنفسهم من ذلك، فنزلت الآية تأنيساً لهم، أي: ما كان الله ليؤاخذهم بذلك قبل أن يبين لكم المنع من ذلك. هـ. { إن الله بكل شيء عليم }؛ فيعلم أمرهم قبل النهي وبعده.

{ إن الله له ملكُ السمواتِ والأرضِ }، يتصرف فيهما وفي ساكنهما كيف يشاء، { يحيي } من يريد إبرازه لعالم الشهادة، { ويميت } من يريد رده لعالم الغيب، أو يحيي قلوباً بالإيمان والمعرفة، ويميت قلوباً بالكفر والغفلة. { وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصير }.

قال البيضاوي: لَمَّا منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قرى، وتضمن ذلك وجوب التبري منهم رأساً، بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود، ومتولي أمره والغالب عليه، ولا يتأني لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه، أمره حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويدرون سواه. هـ.

الإشارة: وما كان الله ليضل قوماً عن السير إلى حضرته، أو الترقى في العلوم والمعارف بعد الوصول، حتى يبين لهم ما يتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه، أضلهم، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه، فإن كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة، وكل معصية وسوء أدب يُبعد عن الحضرة، وقد قالوا: من أساء الأدب على البساط، طرد إلى الباب، ومن أساء الأدب في الباب، طرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

@ { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيَّا النَّبِيِِّّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ قَرِيبٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } * { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ }

وَصَاقِبُ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَطُؤُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {

قلت: في " كاد " ضمير الشأن، ويرتفع بها قلوب.

يقول الحق جل جلاله: { لقد تابَ الله على النبي { أي: برأه وطهره من الذنوب، كقوله:

{ لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ {

{ الفتح: 2 }، { و { تاب على { المهاجرين والأنصار { مما عسى أن يكون ارتكبه؛ إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب. وقيل: هو حض على التوبة، وإظهار لفضلها، بأنها مقام الأنبياء والصالحين، وقيل: تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها، إلى ما هو أكمل منها، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ذكر توبة من لم يذنب؛ لئلا يستوحش من أذنب، لأنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين والأنصار، ولم يذنبوا، ثم قال: { وعلى الثلاثة الذين خُلفوا { ، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، فلو قال أولاً: لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم. هـ.

ثم وصفهم بقوله: { الذين اتبعوه في ساعة العسرة { ، يعني: حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت. والعسرة: الشدة والضيق، أي: الذين خرجوا معه وقت العسرة والضيق، فقد كانوا في عسرة الظهر، يعتقب العشرة على بعير واحد، وفي عسرة الزاد؛ حتى قيل: إن الرجلين كانا يقنسمان تمره واحدة. { من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم { عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، لما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر، { ثم تاب عليهم {؛ كرهه للتأكيد، وللتنبية على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر، { إنه بهم رؤوف رحيم {؛ حيث قَبَلهم، وتاب عليهم، وتاب على الثلاثة: وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق، ولا قصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عتب عليهم، وأمر الناس ألا يكلمهم، وأن يعتزلوا نساءهم، فقبلوا على ذلك خمسين ليلة، ثم أنزل الله توبتهم. وقد وقع حديثهم في البخاري ومسلم وكتب السير.

ومعنى قوله: { الذين خلفوا { أي: تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك: خلفوا عن قبول العذر، وليس بالتخلف عن الغزو، ويقوي ذلك كونه جعل: { حتى إذا ضاقت عليهم الأرض { غاية للتخلف، أي: خلفوا عن قبول العذر، وأخروا { حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت { أي: برحبها وسعتها، وذلك لإعراض الناس عنهم بالكلية، وهو مثل لشدة الحيرة. { وضاقت عليهم أنفسهم {؛ من فرط الوحشة والغم، { ووطنوا { أي: علموا { أن لا ملجأ من الله { أي: من سخطه { إلا إليه { أي: إلا إلى استغفاره والرجوع إليه، { ثم تاب عليهم {؛ بالتوفيق بالتوبة، { ليتوبوا { بإظهارها والدوام عليها، وليعدوا من التوابين، { إن الله هو التواب { لمن تاب، ولو عادوا في اليوم سبعين مرة، { الرحيم {؛ متفضل عليهم بالنعمة التي لا تحصى.

قال الورتجبي: التوبة توبتان: توبة العبد، وتوبة الله، توبة العبد: الرجوع من الزلات إلى الطاعات، وتوبة الله: رجوعه إلى العبد بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب.

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْتَاكُمْ تَعُودِكُمْ وَتَذُنُونَ فَنَأْتِيَكُمْ وَنَعْتَدُ
انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القرية، فتوبته للنبي صلى الله عليه وسلم من غيبته عن المشاهدة؛ باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبته عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا الجنایات، واحتجوا عن المشاهدات؛ أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله في الأنبياء والأولياء، إذا ذابوا في مقام الامتحان، ويقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم، فيؤنسهم بعد إياسهم، ويواصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى:

{ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَتَلُوا مَا }
[الشورى: 28]، وقال تعالى:

{ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ... }

[يوسف: 110] الآية. ثم قال عن بعضهم: توبة الأنبياء في مشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ؛ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة؛ لأنهم في عين الجمع أبداً. هـ.

قال المحشي: وحاصلة: توبة الله المذكورة وهيبه، وهي في كل أحد علي حسب ما يليق بمقامه، وإنما يليق بمقام الرسل ترقينه عن مقامٍ إلى أعلى، أو من شعور يخلق؛ لأجل الإبلاغ، إلى الغيبة عن ذلك، وكذلك أبداً كاهل الجنة. هـ.
@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله }؛ بالمحافظة على ما أمركم به، والانكفاف عما نهاكم عنه، { وكونوا مع الصادقين } في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

قال ابن جزى: ويحتمل أن يريد به صدق اللسان؛ إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان؛ وهو الصدق في الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرين، لقوله في الحشر:

{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ }

.. إلى قوله:

{ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }

[الحشر: 8]. وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة، فقال: (نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا)؛ أي: تابعين لنا. هـ. زاد السهيلي: ولما استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم، استحق الصديق أن تكون الخلافة له، ما دام حياً؛ إذ كان صديقاً. هـ.

الإشارة: الصدق سيف حازم، ما وضع على شيء إلا قطعه، ويكون في الأقوال، وهو صيانتها من الكذب، ولو أدى إلى التلف. وفي الأفعال، وهو صيانتها من

الرياء وطلب العوض. وفي الأحوال، وهو تصفيته من قصد فاسد، كطلب الشهرة، أو إدراك مقام من المقامات، أو ظهور كرامات، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. قال القشيري: الصادقون هم السابقون الأولون، كآبي بكر وعمر وغيرهما، والصدق: استواء السر والعلانية، وهو عزيز، وكما يكون في الأقوال يكون في الأحوال، وهو أتم. هـ.

@ { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } * { وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قلت: (ولا يرغبوا): منصوب بالعطف، أو مجزوم بالنهي، والوادي: أصله: فاعل، من ودي، إذا سأل، وهو منقوص، وهو في اللغة: كل متفرج بين جبال وأكام يكون منفذاً للسيل.

يقول الحق جل جلاله: { ما كان { لأهل المدينة { ، ولا لمن { حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله { في غزوة ولا سرية ولا غيرهما، وهي نهى بصيغة النفي؛ للمبالغة، { لا { ينبغي لهم أن { يرغبوا بأنفسهم عن نفسه {؛ بأن يصونها من افتحام المشقات والمتاعب التي تحملها نبي الله صلى الله عليه وسلم، حيث فعدوا عنه، ولم يكابدوا معه ما كابدته من الأهوال.

رُوي أن أبا خَيْثَمَةَ دخل بستانه، بعد خروجه - عليه الصلاة والسلام - لتبوك، وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظِلٌّ طَلِيلٌ، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصَّحِّ، والريح ما هذا بخير فقام، فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يقطع السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فكانه، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستغفر له.

ثم علل النهي بقوله: { ذلك {؛ إشارة إلى النهي عن التخلف المفهوم من الكلام، { بأنهم {؛ أي: بسبب أنهم { لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ } في سفرهم { ظمأ { من حر العطش، أو عطش، { ولا نَصَبٌ { تعب، { ولا مَخْمَصَةٌ {؛ مجاعة، { في سبيل الله { ، { ولا يَطَؤُونَ { يدرسون بأرجلهم أو بأبدوا بهم { مَوْطِئًا {؛ مكاناً { يغيظ الكفار { أي: يغيظهم ذلك الوطاء، { ولا ينالون من عدو نيلاً {؛ كالقتل، والأسر، والنصب، وكل ما ينكبهم، { إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ { ، أي: إلا استوجبوا به ثواباً جزيلاً. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه صلى الله عليه وسلم؛ فإن { الله لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { على إحسانهم، وهو تعليل لقوله: { إلا كتب لهم... { الخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان، إما في حق الكفار؛ فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن، كضرب المداوي للمجنون، وإما في حق المؤمنين؛ فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوي.

{ ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً } في امر الجهاد، ولو علاقة سيف، { ولا كبيرة }؛ مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة، { ولا يقطعون وادياً } في سيرهم، وهو كل منفرج ينفذ فيه السبيل، { إلا كتب لهم } ذلك، ولم يضع منه شيء، { ليجزيهم الله } بذلك { أحسن } ما كانوا يعملون { ، أي: جزاء أحسن أعمالهم، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينبغي للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيادة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فيقعدون في الراحة والدعة؛ وشيخهم في التعب والنصب؛ لأن ما يصيبهم من مشاق السفر زيادة في ترقبهم ومعرفتهم، وتقوية لمعانيهم، إلى غير ذلك من فوائد السفر، فهو في حق السائرين أمر مؤكد، فكما سار البدن في عالم الشهادة سار القلب في عالم الغيب، كما هو محبوب. والله تعالى أعلم.

@{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا تَقَرَّرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { وما كان المؤمنون } يستقيم لهم ان ينفروا { كافة }؛ جميعاً لنحو غزو، أو طلب علم، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإنه بخل، ووهن للإسلام. قال ابن عباس: هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا، أي: لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى في الخروج معه صلى الله عليه وسلم، وهذه في السرايا التي كان يبعثها، وقيل: ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع، فهي دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

{ فلولا }؛ فهلا { تَقَرَّرَ } من كل فرقة {؛ جماعة كبيرة، كقبيلة أو بلدة، } طائفة { قليلة منها؛ } ليتفقهوا في الدين { ، أما إذا خرجوا للغزو؛ فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون، مع أن مشاق السفر تشد الأذهان، وترقق البشرية، فتستفيد الروح حينئذٍ علوماً لدنية، وأسراراً ربانية، من غير تعلم، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار.

قال في الإحياء: التفقه: الفقه عن الله؛ بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع، ويحمل على التقوى وملازمتها، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الإنذار، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى: { وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } ، أي: وليجعلوا غاية سعيهم ومُعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر؛ لأنه أهم، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية، وأنه ينبغي أن يكون

غرض المتعلم فيه أن يستقيم وقيم، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد،
قاله البيضاوي. وقوله: { لعلهم يَحَدِّثُونَ } ، أي: لعلهم يخافون مما حذروا منه.

قال البيضاوي: قد قيل: للآية معنى آخر، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل؛
تسابق المؤمنون إلى نفيهم، وانقطعوا عن التفقه، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة
طائفة إلى الجهاد، ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد
الأكبر؛ لأن الجدل بالحجة هو الأصل، المقصود من البعثة، فيكون الضمير في
{ ليتفقهوا } ، { ولينذروا } : للفرق البواقى بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي
{ رجعوا } : للطوائف النافرة، أي: لينذروا البواقى من قومهم النافرين إذا رجعوا
إليهم حصَّلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا: فلولا نفر من كل
فرقة طائفة، وجلس طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو
إذا رجعوا إليهم من غزوهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: لو اشتغل الكلُّ بالتَّفَقُّه في الدين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش،
ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب، فجعل ذلك فرضاً على كفاية.
ويقال: المسلمون على مراتب: فعوامُّهم كالرعية للملِك، وكتَبَةُ الحديث كخزنة
الملِك، وأهل القرآن كحُفَّاط الدفاتر، ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء؛ إذ
الفقيه يوقع الحكم عن الله. وعلماءُ الأصول كالقُوَّاد وامراء الجيوش. والأولياءُ
كأركان الباب. وأربابُ القلوب وأصحابُ الصفاء كخواص الملِك وجلسائه. فشغل
قوماً بحفظ أركان الشرع، وآخرين بإمضاء الأحكام، وآخران بالردِّ على المخالفين،
وآخران بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعل قوماً مُفَرِّدين لحضور القلب؛
وهم أصحاب الشهود، وليس لهم شُغْل، يراعون مع الله أنفاسهم، وهم أصحاب
الفراغ، لا يستغفُّهم طلبٌ، ولا يهزُّهم أمر، فهم بالله لله، بمحو ما سوى الله،
وأما الذين يتفقهون في الدين فهم الداعون إلى الله، وإنما يفهم الخلق عن الله
بمَنْ كان يَفْهَمُ عن الله. هـ.

قوله: وأما الذين يتفقهون... الخ، الداعون إلى الله على الحقيقة هم العارفون
بالله، وهم أصحاب الشهود، الذين وصفهم قبل، وأما الفقهاء في الدين فإنما
يدعون إلى أحكام الله، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته؛ فدعواهم ضعيفة
التأثير، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدي العارفين.

وقال الورتجبي، في قوله تعالى: { ليتفقهوا في الدين } : قال المرتعش: السياحة
والأسفار على ضريبين: سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب
العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق
إلى ربه، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام في الخلق يهديهم لأخلاقه
وشمائله. وسياحة هي سياحة الحق، وهي رؤية أهل الحق والتأدب بأدابهم، فهذا
بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }

يقول الحق جل جلاله: { يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار } ،
أي: جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدرج، كما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم
بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل: هم يهود

حوالي المدينة، كقريظة والنضير وخيبر، وقيل: الروم بالشام؛ وهو قريب من المدينة، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام، وكانت العراق حينئذٍ بعيدة. { وليجدوا فيكم غِلْطَةً }؛ شدة وصبراً على قتالهم، { واعلموا أن الله مع المتقين } بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة: ينبغي لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدرج؛ قال الرفاعي رضي الله عنه: إذا أراد الله أن يرقى عبداً إلى مقامات الرجال؛ كلفه بأمر نفسه أولاً، فإذا أدب نفسه واستقامت معه، كلفه بأهله؛ فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه بأهل بلده، فإن أحسن إليهم وساسهم، كلفه جهةً من البلاد، فإن هو نصحهم، وساسهم، وأصلح سيرته مع الله، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض، فإن لله خلقاً لا يعلمهم إلا الله، ثم لا يزال يرتفع من سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل القطب الغوث، وهناك يطلعه الله على بعض غيبه. انتهى.

والغلطة التي تكون في المذكر، إذا رأى منكراً، أو دُكر له وأراد النهي عنه. وأما في الترغيب والإرشاد فينبغي أن يُغلب جانب اللطافة واللين. والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } * { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } * { أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ } * { وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وإذا ما أنزلت سورة } من القرآن، { فمنهم }؛ فمن المنافقين { من يقول }؛ إنكاراً واستهزاءً: { أيكم زادته هذه } السورة { إيماناً }، كما يزعم أصحاب محمد: ان القرآن يزيدهم إيماناً، فلا زيادة فيه، ولا دليل أنه من عند الله. قال تعالى في الرد عليهم: { فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً }؛ لتنوير قلوبهم، وصفاء سرائرهم، فتزيدهم إيماناً وعلماً؛ لما فيها من الإنذار والإخبار، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم، { وهم يستبشرون }؛ بنزولها؛ لأنها سبب لزيادة إيمانهم، وارتفاع درجاتهم، بخلاف قلوب المنافقين؛ فلظلماتها وخوضاً لم تزدهم إلا خوضاً، كما قال تعالى:

{ وأما الذين في قلوبهم مرض }؛ كفر وشك، { فزادتهم رجساً إلى رجسهم } أي: كفراً بها، مضموماً إلى الكفر بغيرها، الذي كان حاصلًا فيهم، { وماتوا وهم كافرون } أي: وتحكم ذلك في قلوبهم حتى ماتوا عليه.

{ أو لا يرون } أي: المنافقون، { أنهم يفتنون } أي: يُبتلون ويُختبرون بأصناف البليات، كالأمراض والجوع، أو الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعانون ما يظهر عليه من الآيات، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم { في كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون }؛ لا ينتهون من نفاقهم وكفرهم، { ولا هم يذكرون }؛ يعتبرون.

{ وإذا ما أنزلت سورةً نظر بعضهم إلى بعض } ، يريدون الهرب، يقولون: { هل يراكم من أحدٍ } إذا قمتم، فإن لم يرههم أحدٌ قاموا وانصرفوا. قال البيضاوي: تغامزوا بالعيوب، إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً؛ لما فيها من عيوبهم. هـ. قال ابن عطية: المعنى: إذا ما أنزلت سورةً فيها فضيحتهم، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يُفهم من تلك النظرة: التقرير: هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحدٍ حين تدبرون أمركم؟ وقوله: { ثم انصَرَفُوا }؛ أي: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم، يقع لهم - لا محالة - تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتموا لكان ذلك الوقت مظنة لهم، فهم إذ يصممون على الكفر، ويرتكبون فيه، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال، التي كانت مظنة النظر والاهتداء. هـ.

والتحقيق: أن معنى { انصرفوا } قاموا عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم؛ مخافة الفضيحة. { صَرَفَ اللُّهُ قُلُوبَهُمْ } عن الإيمان؛ دعاء عليهم، أو إخبار، فيستوجبون ذلك؛ { بأنهم } بسبب أنهم { قوم لا يفقهون }؛ لا يفهمون عن الله؛ ولا عن رسوله - عليه الصلاة والسلام -، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.

الإشارة: زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار، فيقدر ما يصفوا القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، فجاهدت نفسي وطهرتها، فصرت كأني أسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم منَّ عليَّ اللهُ بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندما وجدت له نعيماً لا أصبر عليه.

مثل هذا يزيد القرآن إيقاناً، ويستبشر قلبه عند سماعه، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا، مغموراً بالشكوى والأوهام والخواطر؛ فلا يزيد القرآن إلا بُعداً؛ حيث لم يتدبر فيه، ولم يعمل بمقتضاه، وإذا حضر مثل هذا الغافل مجلس وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس، بل نظر: هل يراه من أحد؟ ثم انصرف، صرف الله قلبه عن حضرة قدسه؛ لعدم فهمه عن ربه. والله تعالى أعلم.

@ { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } * { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }

قلت: " عزيز " صفة " الرسول " ، و " عنتم "؛ فاعله، و " ما "؛ مصدرية، أي: عزيز عليه عنتكم، أو عزيز: خبر مقدم، و " ما عنتم " مبتدأ، والعنت: المشقة والتعب.

يقول الحق جل جلاله: مخاطباً العرب، أو قريش، أو جميع بني آدم: { لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم }؛ محمدٌ صلى الله عليه وسلم، أي: من قبيلتكم، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته، وتفهمون خطابه، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط: بفتح الفاء، أي: من اشرافكم. قال صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ

اَضْطَقَى كِتَابَةً مِنْ وَدِّ اِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَقَى قُرْبَانًا مِنْ كِتَابَتِهِ، وَاضْطَقَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قُرْبَانِ، وَاضْطَقَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمِ، فَأَنَا مُضْطَقِي مِنْ مُضْطَقِينَ " "

{ عزيزٌ عليه } ، أي: شديد شاق عليه { ما عَنَيْتُمْ } أي: عننتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم. { حريصٌ عليكم } أي: على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم، { بالمؤمنين } منكم ومن غيركم { رؤوف رحيم } أي: شفيق بهم، قَدَّمَ الأبلغ منهما؛ لأن الرأفة شدة الرحمة؛ للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

{ فإن تولَّوا } عن الإيمان بك، بعد هذه الحالة المشهورة، التي منَّ الله عليهم بها، { فقلْ حسبي الله } أي: كافيني أمركم؛ فإن قلت ذلك يكفيك شأنهم ويعنيك عليهم، أو فإن أعرضوا فاستعن بالله وتوكل عليه، فإنه كافيك، { لا إله إلا هو }؛ فلا يتوكل إلا عليه، { عليه توكلت }؛ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه، { وهو ربُّ العرش العظيم } ، أي: المُلْك العظيم، أو الجسم الأعظم المحيط، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.

وعن أبي: آخر ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " ما تَزَل القرآنُ عليَّ إلا آية آيةً، وحرفاً حرفاً، ما خلا سورة براءة " و { قل هو الله أحد } فإنهما أنزلتا عليَّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة ". قاله البيضاوي وهاتان الآيتان أيضاً مما وجدتا عند خزيمة بن ثابت، بعد جمع المصحف، فألحقنا في المصحف، بعد تذكير الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي لورثته - عليه الصلاة والسلام - الداعين إلى الله، أن يتخلقوا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، فيشق عليهم ما ينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره، ويبسرون ولا يعسرون عليهم، ويحرصون على الخير للناس كافة، ويبدلون جهدهم في إيصاله إليهم، وبرحمتهم ويشفقون عليهم، فإن ادبروا عنهم استغنوا بالله وتوكلوا عليه، وفرضوا أمرهم إليه، من غير أسف ولا حزن.

وقال الورتجي: قوله تعالى: { عزيز عليه ما عنتم } ، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هوانا واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم: شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف.

قال سهل: شديد عليه غفلتكم عن الله وهو طرفة عين. ثم قال في قوله تعالى: { فإن تولوا فقل حسبي الله... } الآية: سلى قلبه بإعراضهم عن متابعتهم، مع كونه حريصاً على هدايتهم، أي: ففي الله كفاية عن كل غير وسوى.

قال القشيري: أمره أن يدعُو الخلق إلى التوحيد، ثم قال له: فإن أعرضوا عن الإجابة فكُن بنا، بنعت التجريد. ويقال: قال له: { يا أيها النبي حسبك الله } ، ثم أمره أن يقول: حسبي الله. قوله تعالى: { حسبك } : عين الجمع، وقوله: { حسبي الله } فَرَّق، بل هو الجمع، أي: قُل، ولكن بنا تقول، فنحن المتولون عنك وأنت مُسْتَهْلِك في عين التوحيد؛ فانت بنا، ومَحْو عن غيرنا. هـ.

وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.